

محمد حسين يونس

على شفا المموت على شفا الجنون



محمد حسين يونس

**على شفا الموت
على شفا الجنون**

الناشر :
دار الثقافة الجديدة
٣٢ ش صبرى أبو علم / القاهرة
ت : ٧٤٢٨٨٠

تصميم الغلاف : الفنان بهجت عثمان

من لوحة حفل الكوسه لاندواردلين (١٨٣٦)

« كل يوم يستيقظ الرجال في الصباح لكي
يعانوا .. وليس للفقير قوة تنقذه من يفوقه ..
تمر المصائب اليوم ولكن احزان الفد ليست
ماضية بعد »

نص لكاهن مصرى في القرن ٢٠ ق.م

أهداء

الى صديق كل مصرى آمن بالحرية
والاستراتيجية والوحدة الى الرمز الدائم
للنضال .

الى جمال عبد الناصر .. الزعيم الذى آمن
به جيلى دائما واختلف معه قليلا .

الفصل الاول

نحن الآن فى عصر الانفتاح .. وصديقنا أنهى منذ لحظات طقوس أول جمعية عمومية ومجلس إدارة لشركته الجديدة .

لقد أصبح عضوا لمجلس إدارة شركة من شركات الاستثمار المصرية الأمريكية الخاضعة للقانون ٤٣ لعام ١٩٧٤ والمعدل بالإتسانون .. الخ ستسأل أن لم تكن من عصرنا عن معسائى الانفتاح والاستثمار والقانون ٤٣ وتعديلاته والتي اتحدث عنها كما لو كانت من حقائق الحياة التى يجب أن يعرفها كل البشر .

ولك الحق .. كل الحق .. فان هذه المسميات محلية جدا وصاحبت فترة محدودة وخاصة من تاريخ بلدنا حتى أن المعاصرين لها لم يفهموها جيدا ولم يقدروا مدى خطورتها فى حينه .

وعموما ستحتاج لنا الفرصة لحديث طسويل من المعنى الحقيقي لهذه الكلمات فيما بعد .

ستسأل لماذا بدأت افن بعصر الانفتاح اذا كنت قد قررت ألا أستطرد فى مناقشته ؟

وأجيب بدون تردد لأن هذا الحدث الذى تم منذ لحظات هو النقيض لحياة صديقنا وقريبه وإفكاره التى ترسبت عبر رحلته منذ أن ولد فى ربيع يوم من أيام الحرب العالمية الثانية وحتى هذه اللحظة !!

كان يتلقى التهائن من المحيطين به ... وقد لصق على شلتبه ابتسامة بلاهة ويفكر فى احتمالات المستقبل .

لقد قتال له والده وهو في الثمشرين .. «لماذا تعمل اثنتى عشرة واربعة عشرة ساعة يوميا .. ماذا تريد أن تفعل ؟

وإذا كنت فى سنوات قليلة تمتلك الشقة والعربة والمكتب ورصيدا فى البنك لماذا ستفعل ببائى عموك ؟

لقد كان لوالده دور هام ومؤثر فى حياته .. وأبضا كان لصديقنا دور مواز فى حياة والده رغم الصراع التقليدى الذى نشأ بينهما فى فترات مختلفة من حياتهما .

كان بينهما احساس بالامتداد بالابستمرار جعله دائما يشعر بأنه امتداد لخط بدا منذ آلاف السنين يمثل فيه والده اقرب ماض ويمثل فيه حاضره ومستقبله القريب .

جعلها هذا الاحساس لا يفقدان أبدا رابطة الصداقة والثقة المتبادلة وأبضا الصراع .

عندما كان صديقنا صغيرا فى المركز الاضعف من الصراع كان والده يحبه دائما . فى حجرته الصغيرة ليستذكر دروسه يقهره ليكون الأول .

وكان الآخر يقاومه بالطم — يهرب فى احلامه — يحلم بأن والده قد مات أو أن منزلهم قد انهدم .. أو أنه قد صدر قرار بالغاء التعليم أو أنه قد كبر بالقدر الكافى للاستقلال عن والديه .

ولم تكن احلامه الشريرة هذه تسبب له اى تأنيب ضمير ولم يجد لذلك تفسيرا الا بعيا . درس تحليل سيجموند فرويد للأحلام .. أن موت والده لم يكن رغبة شريرة فى نفسه وإنما كان وسيلة لامتلاك حريته .. لذلك لم يشعر بالحزن أو تأنيب الضمير .. أن حلم الحرية محور خيالات طفلنا وهو فى التاسعة من عمره ظل المؤثر الأساسى فى كل تصرفاته وعلاقاته بالحياة بعد ذلك وللأبد .

وهو السبب الذى جعله فى وقت لاحق يوتغ استقالته من مجلس إدارة الشركة التى كونها منذ لحظات ويبيع أسهمه فيها .

كان يقول — لا أستطيع أن أشارك فى جريمة نهب مصر .

وهو أمر متسق تماما مع نشأته .. لقد جاء الى العالم كما قلنا مع بدايات الحرب العالمية الثانية وما صاحب ذلك من تغيرات جذرية فى العالم أهمها انهيار الامبراطوريات القديمة الانجليزية والفرنسية وانبثاق قوى أخرى سيطرت على العالم عمالقة السوفيت وامريكا والصين ..

وبعد ذلك اضطرب العالم .. سقطت بكل القيم القديمة ووسائل

الحياة وعلاقات الإنتاج ووجد من لم يحسن نفسه بالمعرفة انه قد أصبح يعيش في مقاهات .

اننا لا نختار جنسيتنا او لوننا او ملامحنا او ديانتنا او بيئتنا .. ولكن هذه المعطيات تحدد بدايات ماهيتنا .. التى تتشكل بعد ذلك باخياراتنا .

ان وجودنا ليس قدرا لا يمكن تغييره .. بل يمكن تغييره باختيارنا هكذا قال سارتر .. وعلى أساس مجمل اختياراتنا .. يتحدد شكلنا النهائى يوم وفاتنا .. كان يعنى هذا جيدا لذلك فلقد كان حريصا فى اختياراته .

كان يمكنه أن يهاجر .. أن يغير لغته .. جنسيته .. دينه .. وحتى ملامحه كما فعل كثيرون ولكنه فضل ان يبقى بجواره .. لقد كان يعيشه ولا يطبق مفارقتة .. فجمال عبد الناصر لم يكن قائدا فحسب .. لقد كان أملا عندما أمم قناة السويس كان صديقتنا فى السادسة عشرة .. كان قد أنهى امتحان الثانوية العامة وتأهل للالتحاق بكلية الهندسة ليحقق حلمها عزيزا لوالده .

أما والدته فكانت لها أحلامها الخاصة .. لقد كانت مريضة مثله بأحلام اليقظة أو يكون قد ورث عنها هذه المادة وكان حلمها الأعظم ان تراه ضابطا فى الحرس الملكى .. ثم .. ترى واحدة من اللانى يبدأ أساؤهن بحرف الفاء — فريال — فوزية — فادية .. واحدة من أميرات مصر .. تحبه .. تتزوجه .. فيصبح ابنها أميرا .

« حلم سندريلا عبرى »

لقد كان والده واقعيا .. أما والدته فكانت رومانسية .. وورث عنها كلا من الواقعية والرومانسية .. ولكن كيف يجتمع النقيضان .. لقد كانت فى صراع دائم داخله .. وكانت لكل منهما تأثيراتها وقوتها لدرجة ان كلا منهما استقلت بجزء من شخصيته .. نبت .. تأصلت .. مرضت نفسها بعيدا عن الأخرى .. لقد أصبح شخصين أحدهما ذلك الذى وقع طقوس أول جمعية عمومية .. والآخر هو الذى أنهى عضويته فى هذه الشركة .

كان ذلك سببا فى أن يدعو فى بعض الأحيان شاذا .. ولقد تعود هو على هذا الشذوذ — اذا جاز هذا التعبير — .

ففى طفولته كان يأتى بالعمال غريبة على بيئته .. لقد طلب من مدرسته الراهبة فى يوم وكان فى الثالثة من عمره ان يذهب الى دورة المياه .. فتهربته رفضت .. فما كان منه الا ان رجع ثلاثة صفوف الى مكان غير مشغول بالطلاب وتبول دون أن تبطل ملابسه ثم عاد الى مكانه

ببراءة .. عندما اكتشفت الراهبة سرسوب الماء وتبعته وجذته يبدأ من مكان خال .. اختيرت ملابس جميع الأطفال بملا في تلك ملابس .. فلم تعثر على الجاني .. في فترة الراحة كان يقص قصته على زميل أكبر منه قليلا دون أن يكتشف الراهبة الواقفة خلفه تستمع الى القصة وتشهد اذنيه .. ثم تستدعى والدته لتستسمحها في نقله الى سنة دراسية أكبر من الحضنة لذكائه .

لقد كان ذلك غريبا .. ولكنه كان رد فعل طبيعى للانضاج المبكر الذى حاوله والده معه .. لقد كان يصطحبه في رحلاته مع زملائه لدار الآثار لسقارة .. للأهرامات .. وللندوات والمؤتمرات التى كانت تعقدها « مصر الفتاة » تندد بالحكم الملكى وبالاستعمار وبأشياء كثيرة كانت عادة مانستغلق على فهمه .

وكان لوالده صوت جميل يشيع في منزلهم المرح والبهجة عندما يكون في هدنة من شجاره المستمر مع والدته والذى كان موضوعه الدائم مصروف البيت .

في هذه الأوقات كان يشعر بأن الأرض تميد تحت قدميه .. وكره المتعود ولكنه في نفس الوقت احترمها الى القدر الذى لا يجعله في حاجة اليها فقط لقد كان يعيش من خلال ميزانية حددتها لنفسه مسبقا وتغنيه عن القروض .

وتولدت لديه قدرة غريبة على الاستغناء فسادام لا يستطيع ان يحصل على شيء فعليه وبشكل دائم وسريع الاستغناء عنه بترفع .

هكذا حدث له عندما كان في اليمن .. لقد رفض ان يتجرف في تيار الاستهلاك ويهرب البضائع والدلاورات من والى هناك .

وعندما قاوم قبل ذلك رشوة المقاولين وهو يعمل مهندسا مشرفا عليهم في سيناء .

ولكنه كان ضعيفا جدا أمام عواطف الآخرين .. لقد كانت أمه .. وحضن أمه وأصابعها وهى تتخلل شعره المبتل بعد حمام الجمعة وأغانيتها الحزينة وهى تحاول ان تجعله يتسلم مبكرا وهو مازال يحن لحمام ضيق ساخن يملأه البخار المتصاعد من صفيحة ممثلة بماء يغلى فوق موقد جاز .. وصوت الشيخ محمد رفعت وهو يقرأ سورة مريم . أمه علمته أن الحب يصنع المعجزات مهما كانت الامكانيات قليلة .

ففى شتاء شديد البرودة فيما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وكانت الأسطار في ارتفاع جنونى يشبه الارتفاع الذى حدث بعد حرب ٧٣ مباشرة أمه ببطانية قديمة وفصلتها معطفا لتقيه البرد .. كان

يكره هذا المعطف .. ولكنه بعد ذلك تعلم كيف يستطيع الحب ان يدق .. حب الأم لأطفالها مع عجزها المادى وهكذا تستطيع أن تشاهد تأثير هذا المعطف عندما يتصانف ويتواجد في موقف يتعامل فيه مع أم غير قادرة في زمن اسود لاحق من عصر الانفتاح .

لم يكن اختيار الشركة الأمريكية له ليصبح شريكا لها وعضوا لمجلس ادارة شركتها الجديدة في مصر عفويا .. لقد كان له مبرراته .. فقد كان يتقن لغة العصر بعد ان تعلمها خلال عمله في شركات القطاع العام وخلال عمله كمدير فرع شركة مصرية في العراق تعمل في المقاولات لقد تعلم مفردات الادارة الأمريكية وبرع فيها مبكرا عن عصر الانفتاح بحيث أصبح مؤهلا للتعامل مع الوحوش القادمة من الغرب لاستنزاف آخر قرش ناتج من عرق جبين المصريين .

أما الآخرون فكانت أسلحتهم هي قريتهم من السلطة فاصبحت مهمتهم اسهل ولا تحتاج لدراسة أو مؤهلات كل ما كان عليهم أن يفعلوه هو أن يلبسوا قناع الكومبرادور .

وما الكومبرادور يا صديقى .. هو رجل .. أو سيادة .. يتقن اللغة الإنجليزية ويفضل أن تكون باللهجة الأمريكية .. ويلبس ملابس مستوردة يفضل أن تكون فرنسية .. ويدخن سجائر مستوردة ويفرق جيدا بين انواع الخمور المختلفة .. ويقود سيارة فاخرة من أحدث موديل ثم .. ثم ينفذ أوامر أسياده القادمين من الغرب مستعينا بتريه من السلطة أو قهرته على رشوة من هو قريب منها لتسهيل مهمة استنزاف الثروات .. وهو في سبيل ذلك يحصل على قدر من هذه الثروات يسمح له بالتعالى على مواطنيه وأرتياد ألاك لا يستطيع غيره تحمل تكلفتها وفساد الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في بلده .. وهو سعيد . لم يكن صديقنا كومبرادورا والا كيف يتسق هذا مع تربيته .

في يوم من أيام يناير ١٩٥٢ كان عائدا مع والدته من زيارة وكانت القاهرة تحترق .. وكانت البضائع ملقاة في الشوارع بالأكوام بمئات الجنيهات التقط من الأشياء الملقاة لعبة صغيرة عاد بها الى منزله .. كانت أمه تبكى من الخوف وكان والده مهتاجا وهو يقول أن الملك والانجليز حرقا القاهرة .. وزاد اهتياجه عندما شاهد ما اغتصبه صغيره من الحريق دمر اللعبة .. وضربه .. وأهلاته .

ولم ينس صديقا أبدا انه لا يحق له أن يغمم شيئا لنفسه من خلال دمار بلده . فهل من الممكن أن يصبح صديقنا كومبرادورا يعيش على اطلال خرائب اقتصاد بلده ؟

كان من الممكن .. فعمشرات بل مئات من أبناء جيله سمحوا لأنفسهم بأن يقتطعوا بعض المغانم خلال الفوضى .. ولكن ما منعه شيء آخر .

عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ كان صديقنا ولدا صغيرا .. لم يع بعد ما معنى الثورة .. ولكنه تحمس لها .. وأحبها عندما شاهد في الجرائد صور صديقين لوالده من بين قادة الثورة .. كان يعرفهما جيدا .. وكانا يداعبانه عندما يزوران والده .. كان أحدهما واسمه عبد الحكيم يسأله دائما ما هو الأثقل رطل القطن أم رطل الحديد ؟

ورغم انه اجابه بالاجابة الصحيحة اول مرة الا أنه كان دائما ما يسأله نفس السؤال .

اما الآخر وكان عبد الناصر .. فعندما قابلته في مدرسته حيث كان قادة الثورة يقومون بجولاتهم لتعبئة الجماهير بعد ثورتهم مباشرة ميزه من بين زملائه وأمسكه من يده وحمله تحياته لوالده .

وبعد ذلك لم يعد يراها في منزله .. لقد كان والده عزيز النفس لم يحاول التترب منهلا أو استثمار علاقته بهما .

كان يقول لم يعودا ملكا الأحسد .. انها ملك مصر .. حتى رغم ما حدث بعد ذلك .. عندما قسم رجال الثورة المناصب والنفوذ على بعضهم البعض وعلى صفار الضباط ظل والده بعيدا .. لقد شاهد هذا بنفسه .. كان الآخر يقول :

لقد قلت لهم أنا لا ينفعنى رئيس مجلس إدارة شركة .. وكيل وزارة .. او مدير مصلحة كبيرة .. ار ابقى في منزلى .. انا لست أقل عن فلان وفلان وفلان ..

وكان والده يبتسم بسخرية وأدب .. ولكنه انفجر عندما انفرد بالطفل مبرا له أنه متصور أنها عزيزة أبوه ثم مدانعا — لكن عبد الحكيم وجمال غير كده .. عبد الحكيم مؤمن وجمال ذكى ومخلص فعلا اما الآخرون فمصرهم مذيلة التاريخ .. ولم يكن يريد أن يكون مصره هذه المذيلة . لذلك سأل مدير الشركة الأمريكية — ولكن لماذا كل هذه الإضافات ؟

ان ربحية مناسبة وإدارة علمية تستطيع توفير نسبة عالية من الفائد تجعل سعرا مناسبيا .

كان الآخر قد انفعل تماما لم يكن متصورا ان هناك مصريا مهما كان حتى ولو كان شريكهم وعضوا بمجلس الإدارة يستطيع أن يناقشه بهذه الطريقة رد بجفاء — نحن ادري بما نفعل .. كل ما هو مطلوب منك أن تجهز قائمة بقيمة وأسعار الخدمات المحلية .

اجاب بصبر — ولكن هل دورى هو تزويدكم بالمعلومات اننى مشارك فى الشركة ومتحمل مسئولية سياستها .

رد الآخر بتعال — مشارك بماذا لقد اقترضناك نصيبك في رأس المال
لا ننس هذا — اذا — اذا كنت تريد أن تستمر .

سقط من حالق .. لقد تصور انهم دعوه لمشاركتهم لخبرته في الادارة
ومعرفته بالسوق المحلية لذلك اقترضوه نصيبه من رأس المال ولكنه لم
بتصور ان الهدف من مشاركته واقراضه هو اتهام الصنة القانونية لانشاء
شركة استثمار تعافى من الضرائب لمدة خمس سنوات وانه صورة فقط
أجبرتهم القوانين المحلية على اتباعها .. وقرر دخول المعركة .

كان الجنود الانجليز يجلسون على حافة الشبايك نصف عراة
حبر الوجوه يقذفون المارة بقشر البرتقال والموز في ميدان الاسماعيلية ..
وكان والده يكرههم .. كان يقول انهم مستعمرون وانهم أساس البلاء .
عندما خرجوا من القاهرة كان يبكي من الفرح ويتكلم عن اليوم الذي
يخرجون فيه من مصر كلها .. واليوم الذي ستصبح فيه القناة ملكنا .

وخرجوا بعد ذلك من القناة وعادوا ثانيا .. كان قد أصبح شابا
طلابا في اعدادى هندسة .. وأغلقت المدارس والجامعات وهاجمت مدن
القناة وسيناء توات انجليزية وفرنسية واسرائيلية .. وثارت مصر كلها
خرجت للشوارع تحمى ثورتها وبطلها والتحق صديقنا بفرق الدناع
المدنى .. اشترى خوذة من وكالة البلح وبقي في الشوارع يحث المواطنين
على اطفاء الأنوار والالتزام بتعليمات الدناع المدنى ليلا .. وفي الصباح
كان يجرى خلف الطائرات المغيرة ويهتف لمصر .. حنارب .. حنارب ..
كل الناس حنارب مش خايفين من الجايين بالملايين حنارب ..
حتى النصر .. تحيا مصر .

واندحر العدوان .. ورسب صديقنا لأول مرة .

في بعض الأحيان يصبح الفشل أفضل من النجاح .. اذا اتاح
الفرصة للإنسان بأن يراجع مواقفه وعلاقاته بالعالم وينفمه للتغيير ..
الأفضل . وهكذا عندما اكتشف صديقنا أن نجاحه في تأسيس شركة
استثمار كان نجاحا وهميا .. وأنه اندفع خلف أحلام سرابية صورت له
انه باستطاعته التحالف مع الوحش الإمبريالى الأمريكى والاستفادة من
خبراته وامكانياته والتعلم منه .. عندما اكتشف أنه مخلب القط الذي
سيستخدمه شركاؤه للحصول على الثمار الناضجة داخل اقنون الحياة في
بلده الفقير المبطل .. عاد لمراجعة تصوراتهِ وحياته تمها كما فعل عندما
رسب لأول مرة بعد العدوان الثلاثى على مصر .

قلت لكم ان والد صديقنا كان يحاول ان ينضجه مبكرا وهو في سبيل
ذلك كان يحبسه في حجرته الصغيرة ليستذكر دروسه ساعات طوالا مانعا

اباه من اللعب مثل باقى الأطفال .. وكان هو فى مواجهة ذلك بلجأ الى الخيال واحلام اليقظة يبنى من خلالها تصورا ولكنه كان أيضا يسرق يسرق القصص والكتب من مكتبة أبيه بخفيها بين طيات كتبه المدرسية ويظل لساعات يقرأ .. وتعود على القراءة .. مكان يقضى معظم ساعات أجازته بالمكتبة العمامة المجاورة لمنزلهم فى حجرة الأطفال يقرأ القصص السحرية ويعيش فى عوالم غريبة من ألف ليلة وليلة ومجموعات الكيلانى ومترجمات ادب الأطفال العالمى .. حتى التقطه أمين المكتبة فى يوم ما فوجه لتوفيق الحكيم ليقرا يوميات نائب فى الأرياف .. ومنذ ذلك اليوم تعرف صديقنا على باقى نوابغ الأدباء .. وبدأ يوفر من مصروفه الصغير ليشتري كتباً .

لقد كانت هذه هى السمة الرئيسية لعدد من أبناء جيل صديقنا غلم يكن التلفزيون والفيديو والكاسيت قد انسدت فوق الشباب بعد .. وكان الكتاب هو ملجأهم .

وهكذا عندما رسب صديقنا لجأ الى الكتاب يحاوره ويستشير به ويرجوه أن يفسر له أسباب نكسته .

بدأ بالبداية الطبيعية .. الدين .. القرآن .. ووجد الهدوء والراحة ولكن كان صعباً .. وغامضاً .. أن القرآن المسموع أكثر سهولة .. ولكن المكتوب يحتاج لتفسير وشرح وكانت مكتبة والده التى ورثها عن جده مكتظة بكتب الشرح والتفسير .. وغاص صديقنا بين جنبات الأوراق الصفراء للبخارى والطبرى والفضالى وشللت .. ولكنها جميعاً كانت تتكلم عن أحداث مرت عليها أربعة عشر قرناً .

ومل صديقنا .. أن العالم يتغير حوله بسرعة غريبة .. وهو لازل يبحث عن شروح وتفسيرات .. حتى صادف فى مكتبة والده أيضاً .. (هذا .. أو الطوفان) .. كتاب صغير لكاتب شيخ ثائر يسمى خالد محمد خالد .. وسفغ به .. أنه ضالته .. نظرة مصرية متدينة .. هذا هو ما يريده بالضبط .. وقاده خالد بين كتبه (لكى لا تحرثوا فى البحر) .. (من هنا نبدا) .. (الديموقراطية ابدا) .. (مما على الطريق محمد والمسيح) . كان خالد ذا ثقافة دينية موسوعية .. يتكلم عن المسيحية واليهودية وحتى عن الديانات غير السماوية وبدأ صديقنا يقرأ بشغف التوراة .. الإنجيل .. بوذا .. كونفوشيوس .. زرادشت .. أخناتون .. الديانات المصرية القديمة .. الطوطية .. الهندوكية .

اصيب بخيبة أمل فى بعض الأحيان .. وبسعادة فى أحيان أخرى .. ولكنه كان دائماً ما يشعر بالحب والاحترام لكتب القدماء .. حتى تعرف

عليه (سلامة موسى) .. وكان الف شمس قد أضاعت عقله .. لقد كان سلامة موسى بحق أستاذ التنوير لجيل صديقنا .. لقد تعلم منه قيمة الاطلاع على منجزات العصر الحديث .. نظرية التطور .. علم النفس .. وظيفة الفن والأدب .. أينشتاين .. الاشتراكية .. المرأة ليست لعبة الرجل .

وبدا صديقنا طريقا لم ينته بين جنبات الكتب قدم له المعرفة التى منعتها بعد ذلك من أن يكون كومبراندورا .

وهكذا راجع صديقنا علاقاته مع الأمريكان .. لقد كان مستشارهم .. نعرف عليهم عن طريق صديق عندما طلبوا منه اعداد دراسة لعطاء كانا سيتقدمان به معا هم وصديقه .. وكان قد تعلم من قبل كيف تدرس العطاءات وبنفس طريقتهم فى الدراسة .. تحليل البنود الى مكوناتها الرئيسية .. مواد وعمالة ومعدات .. حساب كميات المواد المستخدمة ونسب استخدامها وهو الكفا .. تحديد أسعار هذه المواد ونقلها وتخزينها .. تحديد العمالة المطلوبة ونتاجيتها وأجورها وأعبائها من طعام واسكان وتأمينات اجتماعية وانتقالات ومكائنات .. تحديد المعدات المطلوبة وقيمتها ومقدار قيمة استهلاكها ووقودها وصيانتها وبقى مصاريفها .. والزمن الذى تستخدم خلاله .. ترتيب هذه المعلومات من خلال معادلات مختلفة ثم تحديد التكلفة .. ثم بعد ذلك تحديد المصاريف العمومية .. أجور الجهاز الإشرافى .. الاسكان .. المكاتب الورق .. التليفونات .. اللوكاندات .. السفريات .. قائمة طويلة من الأنشطة .. ثم اضافة نسب التأمينات والمخاطر غير المنظورة ومعناها الرشاوى والإكراميات ثم الأرباح .. تجمع كل هذه التكاليف .. تحدد قيمة العملية ومقدار التمويل المطلوب .. ومنه يتحدد قيمة التسهيلات التى سيقدمها البنك وأتعابه فى مقابل ذلك .. والذى يملك التمويل والتسهيلات هو الذى يتحكم فى العمل .. لأن البنوك لا تمنح تسهيلات الا بضمانات خاصة .. وهو الأمر الذى استفلته الطبقات التى اثرت بسرعة .. عن طريق مجموعة من العلاقات المتشابكة بالبنوك .

كان صديقنا يملك العلم الذى بواسطته يستطيع أن يدرس اما الباتون فقد كانوا يملكون الصلات التى بواسطتها يستطيعون أن يمولوا .

وقدم صديقنا لهم دراسة اقنعهم واستطاعوا بواسطتها الحصول على أول عملية لهم فى مصر .. وبالطبع لم يكن يعلم فى ذلك الحين أن دراسته استخدمت كما هى وأن بندين وحيدين تم تغييرهما بالزيادة وهما غير المنظور والأرباح .

وسعدت جميع الاطراف .. الأمريكان .. وشريكهم .. والنين
حصلوا على غير المنظور .. وصديقنا .. حتى اختلف الشريكان .

يقول صديق لصديقنا أن المشاركة نظل قائمة متى كانت انتهائية
الشركاء متساوية ولكن عندما نختل نسب الانتهازية تنفض الشركة .

وهكذا انفضت الشركة عندما اختلفت انتهائية الشركاء .. لقد
حاول الشريك المصرى الحصول على هامش أوسع من شراء المهمات
والمعدات وما يلى ذلك من زيادة العمولات التى يحصل عليها سرا ..
وأصر الشركاء الأمريكان على شراء جميع المهمات والاحتفاظ بالعمولات
لصالحهم .

وانفضت الشركة .. وبدأ الشركاء الأمريكان يبحثون عن بديل
،صرى له مواصفات خاصة أهملها ألا يشاركونهم فى عمولاتهم ويرضى بقليلة
وكان صديقنا ضالّتهم .

تصور أنهم اختاروه لاعجابهم بدراسته والحقيقة التى اكتشفناها بعد
ذلك أنهم اختاروه لأن طموحاته أقل ومريض بالفتات .. وليحمد الله
ان أتاحت له فرصة وظيفة كومبرادور فى شركة أمريكية .

الفصل الثانى

وقف تطلار العريش على المحطة .. واحتضنته عشرات الوجوه
السمراء فهو الصلة الوحيدة بين بلدهم ومصر .. وهو يحمل الخطابات ..
الطعام والمسافرين .. وفى موعد تقومه تعلن حالة الطوارئ فى البلد .

نزل منه شاب عمره اثنان وعشرون عاما .. حضر من الوادى
ليعمل مهندسا باسكان ومرافق سيناء بعد أن قرر خوض المغامرة
والمشاركة فى جيش العمل بنقاء أبناء الثورة .

كان يحمل خونه من خبرته المحدودة .. وخوفه من عدم القدرة على
التألم .. وخوفه الأعظم من الاعيب المقاولين .

لقد صوروا له — فى محاولتهم لاقناعه بالرضا والاستسلام لوظيفته فى
المكتب العربى للتصميمات — مدى اجرام وخطورة المقاولين .. سيسرقون
الحديد سيفتشون فى الاسمنت .. سيخطفونك .. سيقتلونك ..
سيلوثونك .

ولكنه كان يحمل معه حماس شاب خطا وطنه أولى الخطوات نحو
الاشتراكية نحو الرغامية .. تخلص من الاستعمار .. ويقف شامخا
مناطق قوى التخلف والرجعية .

كان يحلم بالحق والخير والجمال والرغامية والمعدل وكل ما هو
جميل وكان يتصور انه مسئول مسئولية شخصية عن نجاح الثورة بأن
يعمل بأن يقاوم كل القبح والحق وجيوش الرجعية والاستغلال .

لقد كان اليثاق لم يجف حبر طباعته بعد .. وكانت كلمات العمل
حق .. العمل واجب .. العمل حياة .. هى الضوء المتوهج الذى يدفع فى
شرايينه وعشرات المثات من جيله بالأمل والرغبة فى المشاركة .

نزل صديقنا وكانت قد نبتت له شعيرات صغيرة أسفل ذقنه رتبها بنظام وعناية مرتديا بذلة رمادية لها فتحتان خلفيتان كاحداث موضة وبابيون أسود وبيده كتاب ضخّم اشترراه من أول مرتب له بعد طول اشتياق لامتلاكه .

خطا خطواته الأولى على محطة العريش منتشيا من الكلمات التى كتبها نهرو لابنته انديرا غاندى فى لحات من تاريخ العالم . . سكران من منظر النخيل القائم على شاطئ البحر مستمتعا بخروجه الأول من القاهرة متخوفا من تحمل مسئولية حياته من مأكّل ومشرب وسكن وعمل .

سأل أحد الواقفين عن مستقبله من هندسة الاسكان . . وهنا تنبه للصدمة التى أحدثها عندما التفّ حوله جمهرة من المستقبلين المنتظرين فى ترقب مشاهدة المهندس الجديد .

نفس الصدمة التى أحدثها عندما رفض تقبيل يد البابا كركس والشيخ الصاوى شيخ مشايخ الطرق الصوفية عندما قابلهما على التوالى بحثا عن اليقين بعد ما شوشته الفلسفة والعلم .

نفس الصدمة التى أحدثها عندما ثبت أن وجهة نظره كانت الصحيحة وأنهم قد خسروا العطاء وفقدوا مائة ألف جنيه لأن الأمريكان لم يستمعوا الى ملاحظاته وتوصياته .

لقد كانت هوايته صنع الآخرين بتصرّفاته وأفكاره وعلاقته بالعالم كان مستقبله فى انتظار عجوز غير مرضى عنه ومنلى من القاهرة وكانوا قد اتفقا التعامل مع هذا الفوع . . فان بعض الخدمات الصغيرة كتيلة يجعله أداة طليعة بين أيديهم .

ولكن ذلك الشاب المنفتح كالديك ترى كيف سيتعاملون معه . . وبنفس الخطأ فى التقدير الذى حسب به ابن العم سام علاقته مع صديقنا تصرفا متاولو العريش وموظفو الاسكان .

طلب منه مخبره مصالحبة أحد المقاولين لاستلام مستشفى العريش استلاما نهائيا . . كان أول أيام عمله . . ولم يكن يعرف ما هو الاستلام النهائى وكيف يتم . . ولم يشرح الآخر له . . مضى مع مجموعة من العربان فى سيارتهم لاستلام المستشفى .

فى الطريق قالوا له أنه قد تم استلامها ابتدائيا . . ولكن المحضر فى الاسماعيلية . . وأنهم بانتظاره منذ مدة لاستلامها نهائيا وصرفت التلميذات . . وان كل ما عليه أن يوقع بعض المستندات . . ثم اصطحبوه الى كابينة على شاطئ البحر . . والبحر فى العريش تحلة فنية رائعة

رمل ناعم .. مياه هادئة .. نخيل على الشاطئ والماعز ترمى الأعشاب
في هدوء وسلام .. لاضواء .. لا ازعاج .. ولا زحمة ولكن داخل
الكابينة كان هناك ماجعله يشعر بالرعب .. لقد عرضوا عليه ان يمنحوه
اياها بدون ايجار ليسكنها .. وتذكر ذلك المقاتل الأسمر السمين الذى
قابلته فى القاهرة .. كان يعرض عليه أن يعمل معه بمرتب مائة جنيه ..
رقم لم يحطم به أبدا .. عندما تردد زاد الآخر المرضى لثلاثة وعشرين ..
أربعة أضعاف مرتبه .. جرى من أمامه وظل يجرى حتى أصبح فى
الشارع .. لقد شعر بحاسة غير محددة أن هنالك شيئا ما خطأ ..
والا فما الداعى لعرض هذا المرتب المبالغ فيه .. حفظه نقاؤه ..
فجرى .. وفى كابينة العرش أيضا .. جرى حتى وصل الى العربية ..
والآخرون يجرون خلفه متعجبين .

إنها نفس طريقة لاعب الثلاث ورقات يداعب انتهازيتك فتتصور
أنك يمكنك أن تكسب مكسبا سهلا .. فتخسر كل ما تملك .. أن اى
مكسب سهل لابد وأن يجعل المرء يتساعل ولماذا ؟

انه لا يؤمن بالحظ .. والأمور لديه مسببة .. اذا فقدت سببيتها
فقدت منطقتها وبالتالي فهي مخ مختلفة لاصطياد الانتهازيين .

عندما عرض عليه أبناء العم سام مشاركتهم تذكر ذلك ولكنهم ردوا
عليه بأنه كفاءة فهم لديهم المال ويحتاجون لخبرته .. وكان هذا أيضا
نظرا آخر .. لقد اصطادوه من ثقته الزائدة بنفسه .

عندما عاد للخير الخيرية مع العربيان ثم تم تقريره من سطر وأحد ..
« نظرا لعدم وجود محضر التسليم الابتدائى فلا يمكن استغلال
المستشفى نهائيا » .

ضحك الآخر .. ولم يخف تواطؤه معهم .

ثائلا — ألم اقل لكم انه ليس سهلا .

ولكن لم تسلم الجرة فى كل مرة .. لقد كان عليه أن يتعلم الكثير
وليس هناك من يعلمه .. وشعر بالمرارة والاحباط .. ان انصار الثورة
لا زالوا ضعافا .. ان قلة خبرتهم ستؤدى الى التهلكة .. ان النظام
القديم لازال قويا .. وهؤلاء يهادنونه .

ولجا الى اصعقائه التقليديين .. الى الكتاب .. الى المواصفات
الطبوعة وأصبح بيروقراطيا كريها .. يصر على تنفيذ نصوص كتبت
بدون واتعية .. وبفض النظر عن الظروف الفعلية .. واشتكى منه

المقاولون وزملائه .. ومؤسساته وكاد أن يستسلم .. أما للفوضى أو
للدوجماتية .. حتى وجده .

كان مهندس المقاولين شابا يكبره بخمس سنوات ولكنها كانت
ليصبح أكثر مرونة وفيها .. بدأ يعلمه جون أن يجرح مشاعره .. ودون
أن يشعره بجهله .. ودون تعال .. عرف أنه ما هي « الشدة » وكيف
يستلمها .. وكيف يستلم حديد التسليح والشروط الواجبة لذلك وكيف
يخطط موقعا والأهم كيف يعد مستخلصا لصرف دفقات المقاولين .

وهكذا أيضا عندما خرج من القوات المسلحة بعد إحالته الى المعاش
علمه رئيسه بشركة المقاولات التي عمل بها بعد ذلك كيف يعد دراسة
للأسمار وكيف يحلل البنود وكيف يتابع الأعمال والأهم من ذلك كيف
يطلع على أحدث علوم الإدارة في العالم ويستفيد منها في تطوير عمله ليمتلك
اللغة المصرية التي تجعله قادرا على التعامل مع المفاوضين القادمين من
الغرب .

وفي العريش استكمل صديقنا أساسيات بنائه الثقافي التي بدأها
بعد رسوبه الأول في اعدادى هندسة .. ان الفلسفة الوجودية التي
جذبته بشدة وجعلته يحطم أغلاله .. أغلال الخوف ويواجه العالم بروح
التحدى والمغامرة .

الفلسفة الوجودية التي تسببت في أسوأ فترة لعلاقته بوالده عندما
حاول الخروج عن دائرة تأثيره وأرادته .. تطورت لديه لتترك الفرصة
للماركسية لتعيد بناء مجموعة من القيم والأفكار الخاصة بمادية الكون
وحركته وتطوره .

ان علاقات التبعية التي سادت ذلك الزمن بين الرجل والمرأة تحطمت
أيضا لتحل محلها مفاهيم جديدة من حرية المرأة وحقها في الحياة بنفس
القدر والتساوى مع الرجل .

وبدا صديقنا يطل على عوالم جديدة من الموسيقى والعلم والفن
والفلسفة والحب والحياة عوالم مختلفة بالأضواء والألوان والهواء النقي .
وبدا يدرب نفسه على سماع الموسيقى الكلاسيك واستيعابها وعلى
تفهم الفنون الحديثة وتذوقها .

بعد ذلك عندما عاد للقاهرة كان المناخ الثقافي والفني في القاهرة
مزدهرا الى درجة لم تشهدها من قبل أو بعد .. لقد تكونت عديد من
الفرق المسرحية عرضت مسرحيات طليعية وتقدمية كانت المدرسة التي
تربى فيها جيل صديقنا .

وصاحب ذلك بدء البث التلفزيونى وتكوين اول فرقة سيمفونية
ومعاهد للباليه والموسيقى .

لقد كان صديقنا يتحدث عن هذه الفترة باعزاز شديد خصوصا
عندما يناقش شباب الانفتاح والفيديو .

وتطورت قدرات صديقنا الفنية لقد أصبح افضل مهندسى المديرية
واحبهم للمقاولين لانه يقوم بواجبه على افضل وجه وبأكثر درجات المرونة
وفى نفس الوقت الشرف .

وانقطعت دخول اضافية لعدد من معاونيه ورؤسائه فأحالوا حياته
الى صراعات دائسة .. ان قوة اغراء بضائع غرة ورفع القرية ..
ونقص المرتبات كانت عوامل ضغط غير متصور تأثيره على موظفى هندسة
اسكان ومرافق سينا فى ذلك الوقت .. وكان هو العتبة امام مصادر
الدخل الاضافى فقرروا ازاحته عن طريقهم .

وهكذا دائما ما يصنع الصرع الاستهلاكى .. ان عصر « الانفتاح »
العظيم كان المحصلة النهائية لعدد من التجارب الصغيرة التى تمت فى
عصر « الانغلاق » المبارك .

التجربة الاولى كانت تتم فى الاجزاء الملاصقة لغرة ورنح املا التجربة
الثانية فكانت فى الين .. عندها تحول الجيش المصرى الى مجموعة من
التجار ومهربى العملة كما سنرى بعد ذلك عندها يسافر صديقنا لليمن .
عندها كان يقص على والده ملاحظاته فى سيناء .. كان الآخر يبتسم فى
اشفاق ثم يشحنه بمصل مضاد كان يقول له :

انت لازلت فى مستهل حياتك .. والعالم لم يبن فى يوم واحد لذاذا
تتعجل الحياة الرغبة .. ما تتقاضاه اضعاف مضاعفة لما يحصل عليه
الاعلبية العظمى من مواطنى بلدنا .. وانت افضل حظا انك مهندس
وستصبح فى يوم ما فى مركز ممتاز وتحصل على مرتب كاف وتعيش بالشكل
الذى تتبناه اما الثراء السريع عن طريق السرقة والرشوة والسمرة
فهو انتحار .. لن تستطيع ان تعيش متوافقا مع نفسك أبدا لو سقطت
يوما امامها .. تستطيع ان تضحك على العالم كله عدا شخصا واحدا
هو انت .

وكان والده محقا فى جزء من كلامه .. ولكنه جانبه الصواب فى جزء
آخر فكيف كان سيمكنه ان يعرف بعصر الانفتاح وما سبغيره من مقاييس
خصوصا فى قيمة المهندس .. وقيمة الشرف .

فى النهاية قرر صديقنا امرا وهو يشاهد التلفزيون الجديد فى عيد
الثورة والطواير العسكرية تستعرض امامه .. لقد قرر الهروب من

مقاومة جيوش الرشوة والسرقة والسمرة في العريش .. والاتحاق بالقوات المسلحة ضابطا مهندسا حيث المناخ أكثر نقاء وأبعد ما يمكن عن السقوط الأخلاقي فهم بعيدون عن اغراءات التلوث المدنية وهم في نفس الوقت الذين تؤثر لهم الدولة أفضل مستوى معيشي بمرتباتهم الزائدة قليلا .

قبل أن يترك صديقنا مكان المعركة قرر أن يدمر الألغام المخبأة في هندسة اسكان ومرافق سيناء وذلك بالجوء الى السلطة .

فالسطة في ذلك الوقت كانت الملاذ للشرفاء .. السلطة .. التي جاءت بها الثورة .. وطردت الانجليز .. قاومت العدوان .. وقضت على الاقطاع .. وهي التي رفعت رأس مصر عاليا في باندونج وبريوني وكان عبد الناصر ممثلا هو أحد ثلاثة عظام أقاموا حركة عدم الانحياز . وأجبر دالاس وأمريكا على الخضوع لرغباته .

ولم تكن السلطة في نظره في ذلك الوقت هي التي أوقفت الحياة السياسية ودمرت الديمقراطية وبثت الرعب في قلوب البشر وحطمت مبادئ الفردية والجماعية وجعلتهم يعيشون داخل بلدهم في غربة .

فالاغتيالات السياسية للأخوان والشيوخيين ومفسدى الحياة السياسية من رجال الأحزاب القديمة لم تكن في نظره اغتالا للديمقراطية والحرية والشرعية وال دستور وإنما كانت إجراءات ثورية ضد اعداء الثورة . أما ما يتم من تجاوزات فهي تخص صفار البيروقراطيين والمنتقمين ولا تنس طهارة الثورة ورجالها وقائدها .

قلت ولجا صديقنا الى السلطة الى الوزير بنفسه .. كان استاذ في الجامعة .. قابله شجعه استمع له .. ثم .. عرض عليه أن يعمل معه في مكتبه عنحما علم برغبته في الالتحاق بالقوات المسلحة .. ولكن أمام أصرار صديقنا تمنى له الحظ السعيد في خدمة وطنه .

وأعاد ترتيب وتجهيز هندسة اسكان ومرافق سيناء مستهديا بتقرير صديقنا الصغير .

ملأته هذه التجربة أملا وثقة .. وغرورا .. لقد استجاب استاذة لتقريره وهذا يدعو للعجب فلقد كان من الجيل الذي تمتع بمجانية التعليم وازدحام المدرجات في الجامعات وفقدان الصلة بين الاستاذ وطلابه . فلم يؤثر فيه استاذ واحد طول فترة دراسته .

وكانت الجامعة بانفصالها عن المجتمع عبارة عن معهد لتفريخ المتعلمين نصف المثقفين رغم أنه لم يكن قد أصابها بعد تدهور عصر الانفتاح والذي حدا بصديقنا بعد ذلك الى اعتبار فترة دراسته في الجامعة رغم انفصالها العصر الذهبي للتعليم الجامعي .

وكان من الجيل الذي انزاحت من أمامه الحواجز الى القمة فلم يعد هناك أبناء ملوك أو أمراء أو وزراء أو أعيان وأنماطريق مفتوح بدون اشارات الا لجهوده وقدرته وإخلاصه وهو الأمر الذي لم يستمر طويلا بظهور أمراء وملوك جدد . وهو أيضا من الجيل الذي سمحت له السلطة بالقراءة في الملن ودون أن تفرض عليه المحظورات . . جميع الكتب في المكتبات ودع مائة زهرة تنفتح ومائة فكرة تتصارع وهي الأمور التي قضت عليها سياسة الانفتاح الاقتصادي والفكرى والأرهاب العسكرى والبولىسي وموجات أجهزة الاعلام الفائقة القوة والتأثير .

أقول أن صغيرنا وهو منتشى بما حدث في مكتب أستاذه الوزير سار وائق الخطى مقديا نفسه للكلية الحربية ليصبح ضابطا مهندسا . . ولم يشعر بالكارثة المتجه اليها بنفسه الا وهو في حلام السباحة الخاص بالكلية الحربية ومجموعة من الصف ضباط الطلبة ينبحون حوله صائحين . . يا شفاخ . . يا عيل . . يا مستجد .

الفصل الثالث

كان يتحرك كما لو كان غارسا من فرسان السينما الأمريكية برشاقته وطوله .. وينطلقونه الكحلى ذى الخطوط الرفيعة والجاكيت الموهير الأبيض . وربطة العنق الزرقاء الحديثة .

كان قد خرج لتوه من بين يدي حلاقه بعد أن قص شعره على أحدث موبيل وصل اليهم من بلاد الفرنجة :

لقد استسلم صديقنا لأجهزة صبغ الأتسان العالمية وأصبح نموذجاً من نماذجها .. وقديماً قال هيربرت ماركوس أن أجهزة الاعلام والموضة والدولة نصب الأفراد في نماذج من ابتكارها ليصبحوا نسخاً متشابهة وتمسخ كلا منهم ليكون انساناً ذا بعد واحد يلبس ما يريدون ويستهلك ما يدفعونه لاستهلاكه ويفكر ويتكلم ويتصرف بشكل مخطط له مسبقاً كما لو كان قد كتب في اللوح المحفوظ .

قاوم صديقنا طويلاً عندما حاولوا صبه في قالب عسكري بالكنيسة الحربية وما بعدها .. ولكنه استسلم عندما قرر أن يكون رجل أعمال انفتاحياً فهو لى يكون مقبولاً من الانفتاحيين فيضمونه لناديهم عليه أن يمثل نموذج رجل الأعمال .. الملابس المستوردة على أحدث طراز .. السجائر الأمريكية .. العربية الفارهة .. وارتياد الأماكن الخاصة ذات التكلفة العالية وعليه أيضاً أن يقطن الانجليزية حديثاً وكتابة وقراءة .

هكذا قالت له .. وهى تحاول أن تتوده خلال دروب الغابة المتشابكة وهكذا رسمته قبل أن يتأبل رئيس مجلس ادارة الشركة الأمريكية .

التفت عليه النظرات الأخيرة وتكدت من أنه لم ينس شيئاً .. ثم تقدمته الى حجرة الأمريكى .. الذى وقف مرحباً به بشكل متكلف .

قال — لقد اختلفنا مع شريكنا المصرى .. وهو قد وافق على بيع أسهمه ولكن القانون يحتم أن يشتريها مصرى .. لأبد وأن يكون للجانب المصرى على الأقل نصف الأسهم .. ولقد بحثنا طويلا .. واستقر الراى عليك فما رأيك ؟؟

رد صديقنا (وهو يبحث عن خطوط انتهازيته التى يجذبها منها الأمريكى) ولكننى لست مستعدا لاستثمار بهذا القدر .. !!

حسم الآخر الموقف بسرعة وكأنه يملأ قرارات غير قابلة للتعديل .. سنمنحك قرضا يسد على خمس سنوات .. وسيحدد لك مرتبا ألف جنيه شهريا وستكون مهمتك الإدارة والإشراف على العمالة والأنشطة المحلية .. وستحصل نحن جميع التكاليف لحين الحصول على أعمال جديدة .. سواء كانت تكاليف دراسات أو سفر أو خلاصه على أن نحصل على ستين بالمائة من الأرباح .

كان العرض مغريا تماما .. خذ جميع مراكز المقاومة لديه فورا .. وكانت هى تبسّم فى سعادة نهى التى رشحته لهم .. وكانوا قد أعيدوا صيغة عقد وقعا الجميع وأصبح مساهما فى الشركة المصرية الأمريكية بنسبة خمسين بالمائة .

لقد وضع قدميه على أولى سلالم النجاح والانطلاق بعد رحلة طويلة منذ أن واجهه مدير سلاح المهندسين قائلا :

والآن يمكننا أن نوفر لك مكانا إداريا .. اننى مشفق عليك ماذا ستفعل بعد أن تخرج من القوات المسلحة .. ؟

رد — اننى مهندس .. وسأبدأ من جديد .

لقد جاهد كثيرا لكى يترك القوات المسلحة .. ومنذ أول يوم .. منذ زمن طويل بعد أن أجتاز الكشوف الطبى وتقدم للجنة كشف الهيئة .

كانت اللجنة فى الماضى القريب هى البوابة للجنة هكذا تعلم سواء من قصص يوسف السباعى أو من الفضائح التى نشرت فى جرائد ما بعد الثورة عن الوضع قبلها .

لقد كانت لجنة كشف الهيئة ذات وظيفة خاصة وهى التأكد من أن ضباط القوات المسلحة من أصول أرستقراطية لضمان ولاء الجيش للنظام .

ترى ماذا ستكون وظيفة لجنة كشف هيئة ما بعد الثورة ، وظل صديقنا يجهز ردودا لأسئلة توقعها من اللجنة الجديدة .

سيسألونه عن سابق خبرته .. وسيفيده طبعها خبرته في سيناء .

كذلك سيسألونه عن القضايا القومية والوطنية وبالتأكيد سيسألونه لماذا يريد أن يكون ضابطا ؟؟

رتب الاجابات ولكنه توقف امام السؤال الأخير .. هل سيقول لهم هربا من مستنقع الحياة المدنية .. هل سيقول طلبا للامتيازات التي يتمتع بها الضباط هل سيقول أيمانا بالدفاع عن المكاسب الوطنية والاستراكية .. !!

هل سيقول أنه حلم كل وطني أن يكون جزءا من جهاز حماية بلده .. !!

وقطع عليه تأملاته من ينادى عليه للمثول أمام اللجنة .

حجرة واسعة جدا يتوسطها منضدة على شكل حدوة حصان .. مجموعة ضخمة من الفرقاء واللواءات بلوان ملابسهم الزاهية المزينة بعلامات حمراء وذهبية .. الاضاء خافتة قليلا .. أحدهم يجره جرا الى وسط الحدوة أنفاسه تتلاحق .. ضربات قلبه تزداد نبضا .. يسمع سؤالا كأنه قادم من الحياة الأخرى من اسمه .

ويرتبك أن اسمه مدون لديهم فلماذا ؟؟

سؤال آخر .. هل قريبك فلان .. الفلاني !!

ويرد .. لا تشابه أسماء .

أحدهم يهمس لآخر فيهمز رأسه .. ثم يصرفه .. وأصبح طالبا بالكلية الحربية .

لقد قال له أنه قريب أحد اللواءات الجالسين حول حدوة الحصان . وهكذا أيضا فعلوا معه عندما قدم استقالته من القوات المسلحة بعد أن سمحوا لهم بتقديم استقالاتهم .

كان قد أثنى مع مدير سلاحه .. كما تعرفون .. وكان اجراء المقابلة شكليا أيضا لقد همس مدير السلاح للآخر فهز رأسه .. ثم صرفه ..

وأصبح مفيدا متقاعدا .. لقد قال له أنه ضابط مشاكس ومشاكله كثيرة .

لم تكن مشاكسة صديقنا ظاهرة جديدة عليه بعد حرب ٧٣ بل بدأت منذ اليوم الأول لدخوله الكلية الحربية .. وبعد تخرجه من الكلية الحربية .. وقبل ذهابه لليمن .. وبعد عودته من اليمن .. وبعد حرب ٦٧ وقبل حرب ٧٣ كانت توارثه فكرة أنه قد أصبح قاتلا محترفا .. بعد تخرجه من الكلية الحربية مباشرة .

رومانسيته ثانيا التي جعلته ييكي وهو يخلع أعواد الشمير في سيناء ويضع بدلا منها الغاما .. يخلع الحياة .. ويزرع الموت .

قدم نفسه في صباح يوم خريفى مشمس ومعه المصاريف للكلية الحربية جلسوا حول حمام السباحة على المدرجات .. استظهم نقيب يعمل بدون حساب .. استلم منهم المصروفات .. سلمهم للصف ضباط الطلبة .

الشمس تنعكس على صفحة مياه حوض السباحة .. ونسمة هواء باردة تخفف حرارة الأشعة المسلطة عليهم .. وطواير الطلبة القسماى تتحرك على نغمات مارشات عسكرية في نظام .. تحبس مع الحركة المنتظمة للأذرع والسيقان .. تضدر .. صاح الصف ضباط الطلبة مجموعة اولاد تتراوح أعمارهم بين الثمانية عشر والعشرين .. يربون شوارب كثيفة كى تظهرهم أكبر منا ويضخون أصواتهم .. ابتسم .. لقد كانوا يمثلون بدون ائتمان شخصية رجل ملتزم .. فلقى جزاءه فوراً .. حكم عليه أحدهم بأداء التمرين رقم ٩ .. مثله له أحدهم أنه تمرين القرفصاء .. تضع كفيك فوق رأسك وتقفز لأعلى مبدلاً ساقيك .. وانقطعت أنفاسه مع مزاوله التمرين ثم اختفت الابتسامة .. وتبدد الحساب .. ليواجه أصعب يوم في حياته .. لقد كانوا يحاولون أن يصبوه في قالب مسكوى .. وبأسرع وقت .. أن يخلصوه من الأخلاق المغنية المرفولة .. أن يصنعوا منه رجلاً .. هكذا برروا له تصرفاتهم عندما واجههم يستخفها بعد ذلك .

ولكنهم في سبيل هدف أسى يرتكبون جرائم لا حصر لها .. فهو عليه أن يعود على اطاعة الأوامر بدون تفكير .. فيفقد القدرة على المبادرة أو التصرف منتظرا التعليمات وهو في عقله الباطن قد ترسب إحساس بعدم القدرة على اتخاذ القرار .. وأيضاً الاستقبال العقلى لأشياء غير منطقية كأن يقبس العنبر مثلاً بأبرة خياطة .. أو يضغط على الحائط ليزيحه من

مكانه .. او .. او .. وهو يعود أيضا على تحمل الاهانة .. كإنبندى عليه بلقب شخاخ .. وعيل .. ولقد لاحظ صديقنا تأثير هذه التربية في زملائه الضباط بعد ذلك .. وخصوصا عندما يتعاملون مع التكتيك وسوف ترى ذلك بوضوح عندما اتص عليكم ماذا حدث في الين وسيناء بعد ذلك. استلم صديقنا مهماته .. كيا من الجلد .. ملأه بأحذية وشرابات وفائلة ضرب نار (بلوفر كاكى) .. وأفرولات غير مناسبة لجسده .. وقايش وجتر وزمزية وخوذة وأشياء كثيرة .. كان عليه ترتيبها في دولابه بالمعبر

وهناك ظل يبحث لساعات عن الجندارى والجندارى كما عرف بعد ذلك هو العلم الذى يتوسط الكلية الحربية ويلقنون حوله كل صباح يستمعون الى سخافات المساعد الطالب .. ولكنهم يسألون عنه الطلبة المستجدين دائما محيرين اياهم ومستخدمين حيرتهم كوسيلة للسخرية منهم .

زعى لطلبة .. وامتدت عشرات الايدى تدفعه ليقف .. لقد دخل باشاوايش السرية .. أو الرقيب اول .. ولد فى التاسعة عشر يطلق شرابا كثيفا ويضخم صوته بحجم الشرائط الأربعة التى يعلتها على ذراعه .

سأله عن عمله ..

— فأجابه : بأنه مهندس .

وهنا احتاج الآخر بشدة قائلا : مهندس دى فى البيت يا عيل يا شخاخ هنا طالب جامعى مستجد تحت الاختبار ناهم .

رد الآخر : أبوه .

فأحتاج ثانيا : هنا مغيث أبوه .. هنا أبوة يافندم .

ابتسم صديقنا بغيظ .. انهم يصبغونهم .. ولكن هل هذه هى الطريقة المناسبة .

لقد قال ماركس .. أن التشوه يصيب الظالم والمظلوم .. الظاهر والمتهور .. المعتدى والمعتدى عليه بنفس القدر .. ولكن بصور مختلفة .

وهكذا .. فان بعض الطلبة الذين كانت لهم سلطات لأ نهائية فى الكلية الحربية مثل المساعد أو الرقيب الأول .. أصابهم تشوه الظالم بنفس قدر تشوه الآخرين فهو بعد تخرجه يصبح ملازما فى كتيبة هو أصغر من فيها وتسحب منه السلطات التى مارسها لسنتين فى الكلية الحربية فيصاب برد فعل مضاد .

وهكذا صادف صديقنا عديدا من مشوهى الكلية الحربية .. سواء كانوا قادتها أو عبيدها .. كانوا يقولون لهم .. لا تتكلم نيابة عن زملائك قل أنا فقط .. اسمع الأمر حتى ولو كان مستحيلا .. الأقدمية مقدسة والأقدم برقم يعلم بالتأكيد أكثر منك .. أهم ما فى الحياة النظام .

وتستقط كل هذه الدعاوى من أول يوم .. فالأولاد فى نهائى لا ينفذون هذه التعليمات أبدا .. وشار صديقنا تمرد .. وكان جزاؤه حمل المرتبة فوق رأسه والدوران بها يتابعه عريف ذو صوت مزعج .. قذف المرتبة فوقه ليقع على الأرض ويتبعه مكيلا له اللكيات والركلات .

ولم يفق الا على صوت مجموعة من الصف ضباط ملتفة حوله تنبح فى صوت واحد وأيدى كثيرة تمتد لجذبه فى اتجاهات مختلفة .. ولم يتقده منهم الا ابن لجار لهم جنبه الى حجرته وأفهمه طتوس التعامل .

إذا أخذت الأمور بجدية فلن تستطيع أن تكمل .. انظر للتصرفات على أساس أنها مسرحية .. وامش بجوار الحائط .. نفذ التعليمات .. وسترتاح بعد ذلك .

وبدا التدريب .. كان عليه أن يتعلم السير .. واحد .. اثنين .. واحد اثنين .. هوب .. هوب .. تبديل الخطوة .. خطوة تبديل .. النداء على الرجل الشمال .

كانت تضمنه فكرة أنه ترك وظيفته .. وهبلماته فى سيناء ليتعلم السير فى الكلية الحربية .. ولكنه عرف بعد ذلك العلاقة بين الاستماع الى النداء والتصرف على أساسه وما يصحبه من غرز عادة اطاعة الأوامر عندما ناقشه أحدهم فى فكرة الارتباط الشرطى بين الصوت والتصرف وان هذه إحدى نظريات علم النفس السلوكى وخصوصا تجارب بافلوف .. ضحك كثيرا كان يقول انها نظريات الجيوش القديمة .. عندما كان على القائد أن يقود رجاله مئات الكيلو مترات سيرا على الأقدام ثم يدفعهم لمركبة مواجهة بالسلاح الأبيض ولكن فى اطار الحروب الالكترونية والقنابل التليفزيونية والصواريخ الموجهة تصبح هذه النظريات عذبا لا طائل من خلفه .

وانه لابد من اعادة النظر فى طريقة تربية الشباب بالكليات العسكرية لتتوافق مع العالم الجديد .. وللأسف أن ما يتعلمه هؤلاء الشباب يطبقونه على جنودهم فى وحداتهم وبشكل تعسفى .. بل .. وهو العجيب انهم يطبقونه فى منازلهم وتتحول زوجاتهم وأبنائهم الى جنود .. عليهم أن

يطيعوا الأوامر بدون مناقشة .. انه كل حصيلتهم الثقافية والسلوكية ويتحول المجتمع الى الديكتاتورية ويخضع البشر وتحدث نكسة ٦٧ .. وهزيمة للشعب والديمقراطية والحرية .. وتأمرنا القادة بأن نصبح اشتراكيين فنصبح اشتراكيين ثم تأمرنا بأن نكون انفتاحيين .. فنصبح انفتاحيين .. وتغتنق المبادرة والحماس .. وقوة الخلق .. ثم نضع أيدينا تحت ذقوننا ونتمعجب ما الذى حدث للمصريين ؟؟

في نهاية الخبسة وأربعين يوما المقررة لتحويل صديقنا من مدني الى عسكري كان قد تعلم كيف يتحرك .. وكيف يجرى .. وكيف يؤدي التحية العسكرية .. وكيف يركب البندقية الآتية .. وكيف يطلق النار من هذه البندقية .

أحضروا لهم مجموعة من الفريزة .. جهزوا لهم ملابسهم العسكرية ثم مروا في طابور استعراض أمام اللواء قائد الكلية وأدوا له التحية العسكرية وخرجوا في أول أجازة بعد دخولهم الكلية الحربية منذ خمسة وأربعين يوما . كان يجلس على الكرسي المجاور لشباك المترو .. الهواء البارد يصطدم بوجهه الحليق .. بجواره طالب مستجد من طلبة الكلية الحربية خرج ليقضى أول أجازة له مثله .. وإمامه فتاة صغيرة تدايب الشاب بانسامة بريئة وهو ينظر في الفضاء نظرة تملؤها الأسى .. حزن عميق وانكسار لا يتناسب مع البنية الكاكي بدلة السلطة .. وشعر أنه ينظر في مرآة انه يشعر بانكسار في نظراته .. وتبلغته رغبة عارمة في الهروب وعدم العودة .. كانوا يحاصرونه من داخله .. فأصواتهم تدوى في رأسه لا تخلع الكاب في الأنوبيس .. لا تأخذ أمك بالحضن فلقد أصبحت رجلا لا .. لا .. ألفا لا .. وكانوا هم أول من يخالفونها .. لقد غمر صديقنا فتحوله من مهندس لاسكان ومرافق سيناء .. ذلك الشخص الأكثر من هام في بلد يعيش معظم أهلها على المتاولات . خاصة في عصر المد العمراني الذي صاحب بدايات الثورة وبناء مئات المدارس والوحدات الاجتماعية. أقول فتحوله من هذا الوضع المميز الذي كان يتيح له التحكم في أرزاق مئات البشر الذين يتمتعون رضاه .. الى الطالب الجامعي المستجد وما يلحق باسمه من شخاخ وعيل وخلافه من شتائم عسكرية كان لها تأثير مضاد .. فلقد شعر لأول مرة بالتهور .. ومدى ضراوة السلطة خاصة لو كانت في أيدي غير مقدره لأهميتها .. وهو الأمر الذي أثر على معظم سلوكياته بعد ذلك .. لقد أصبح متمردا أو فلتل انتصر الجانب الرومانسي على الجانب العملي في شخصيته فأصبح نائرا متمردا . بهتاج لجرد احساسه بأي تصرف يحتوى على ظلم .. سواء كان موجها له أو للآخرين أو حتى لحيوان .

وغرق صديقنا في فلسفة تدعم احساسه .. فهو دائما ما يفلسف ..
وهو بدون الفلسفة لا يستطيع ان يتحرك لخطوات .

وفلسفة تمرد صديقنا وجدت صداها في كتابات كولن ولسن
« اللامنتهى » حتى انه وخلال عودته هرب كتابه هذا الى داخل الكلية
الحربية .. وكان يقرأ باستغراب خلال الساعات المقررة للاستذكار .

وكره فكرة الحرب .. والمجتمع .. وائى ارتباط .. حتى أبسطها
كالارتباط الأسرى .. كان يجلس في حلقات الدراسة بجسده فقط اما عقله
فلقد كان يستخدم حيل والذخ في الهروب بأحلام اليقظة .. وهكذا هو
دائما منذ ان حاول والده انضاجه مبكرا بحبه في غرفته للاستذكار .

ثم تحول تمرده بعد قليل الى ظواهر .. فهو الذى لم يخض أبدا حتى
خضوله الكلية الحربية أصبح مخضنا شرها .. لأنهم منسوه من التسخين
وكان يتحارب بثتى الطرق على تهريب سجنائه لداخل الأسوار .

وبدا يدمو لتمرده .. كان يناقش كثيرا حتى داخل الأسوار ..
عندما طلبوا منه تجهيز مجلة الحائط .. صدرها بمقال تجمع حوله أعداد
غفيرة من الطلبة عن « السرياليزم واللامعقول واللامنتهى » .

ورغم هذا فان واقعية والده أجبرته على الاستمرار .. كان يتعامل
مع الموقف كما لو كان تراجعدا من أعمال هوميروس عن صراع الانسان
مع القدر والقوى الخفية الأكثر تسلطا وتجبرا .

لكن وحتى في أصعب الظروف وفي أحلك الأوقات يستطيع الانسان
ان يجد ما يتمتع به وكانت الخمس دقائق الراحة التى يمنحونه إياها بين كل
طابورين مصدر سعادة دافئة له .. لقد كان يجرى ويرتقى في ظل شجرة
بجوار قناية صغيرة جدا للياه الراوية لاشجار الحديقة .. وينسى ..
يتألم بعمق لمدة خمس دقائق .. يبتسم .. لو عرفوا كم يستمتع بفائقة
الخمس في ظل شجرته لقطعوا جميع الاشجار .

كانت ليلة رأس السنة .. وكان شركاؤه اولاد العم سام قد قرروا
أن يحتفلوا بها ودموه لمشاركتهم .. وكان قد انضم لنادى الانفتاحيين
رسميا بعد أن أصبح عضوا في غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة وهى
المكان الذى يتجمع فيه مشدوبو الشركات الأمريكية العاملة في
مصر .. و .. و ..

مجموعة من المغامرين المصريين المتأربين . كانوا يجتمعون مرة كل شهر حول متحدث رسمى ذى سلطة يستمعون اليه وهم يتناولون الغذاء ثم يحاصرونه بأسئلتهم وفي بعض الاحيان تعقد صفحات .

وهكذا تصنع السياسة والاقتصاد في بلاد الانفتاح .

في تلك الليلة كان هناك عديد من الأمريكين رجالا ونساء .. وعديد من المصريين رجالا ونساء .. وهو بينهم يرتدى بدلة كحلة أنيقة اشتراها من نيويورك التى استوردها من كريستيان ديور .. وتبيصا أبيض خفيفا من قطن سويسرى وصنع جيفنشى وبابيون نبيذى محلى بالألماظ الصناعى اشتراه من روما وحذاء أسود لامعا بالطبع انجليزيا .. وشرابا بلون البابيون ومطبوعا عليه علامة بير كردان .

وكانت تتردى فستانا حريريا ملتصقا بجسدها أسود طويلا عارى الظهر حتى منتصف جسدها الأسمر الفارع .. ذا فتحتين على جانبيه برزان ساقيهما وحتى منتصف فخذيها وكانت تغطى ككفيها بفراء أبيض بتوسطه بروش الماظ أصلى يضموى بأشعاعات حمراء وزرقاء وببنفسجية وحذاء أسود قطيفة قادم لقوه من أمريكا .

كانت تضحك بسعادة .. وتنظر له محاولة اقتياده في دروب العادات الأمريكية هبست - لكى تستطيع التعامل معهم يجب أن تعرف كل شيء عنهم .. أحاديثهم المفضلة .. عاداتهم في الأكل .. كيف يشربون وما أنواع الخمر التى يتناولونها .. أنس كل ما تعلّمته من قبل .. يجب أن تقرأ رواياتهم خاصة تلك التى يطلقون عليها الأكثر مبيعا .. وتعرف مكاهاتهم .. هناك أشياء يضحكون عليها ونحن لا نفهمها .. فهم يقولون مثلا على الأمريكى الذى يرتدى ملابس رعاة بقر مبالغ فيها (ذو الرقبة الحمراء) ويضحكون بالنسبة لنا لا تعنى شيئا .. أما هم فيشبهون الى هؤلاء الذين نزعوا من المكسيك سرا عن طريق السباحة أسفل الماء بحيث لم يكن معرضا من جسدهم للأشمس الا قفاهم الذى أحمرته الشمس نسمى بالرقبة الحمراء مظلما كان يقول الليبيون على المتسربين سرا من الأسلاك التى بين حدودهم ومصر السلكاويون .

كانت توليه اهتماما خاصا ولا ترك مناسبة الا وتنهزها فرصة لتقريبه من أولاد العم سام .. وكان يتعامل معها بحذر فقد عودته الأيام الأخيرة انه لا يوجد تعاطف بدون ثمن .

ترى ما المائد الذى تتوقعه . ظل يفتش داخل أمتازيته .. ترى

أين نقطة الضعف التي تجذبه منها وإلى أي مصر تقوده .. ووجد الرد على سؤاله عندها زالت الخمور الحذر بعد ذلك في لقاء خاص بينهما قصت فيه تاريخ حياتها وهي تبكي ألما أو ندما .. أو في محاولة للتعايل مع جانب الرومانسية الذي عرفته فيه .

ولكن لماذا أتكم عن ليلة رأس السنة هذه لقد وجدت أن أكلكم عن ليلة رأس سنة أخرى .. تلك التي قضاها في الكلية الحربية قبل صباح تخرجهم كانت العنابر كلها مستيقظة رغم سماعهم لنسوبة نوم منذ مدة طويلة .. وكان ابن جارهم قد استضافه في حجرته حيث كانا يستمعان إلى موسيقى نابذة من راديو ممنوع دخوله الحربية ويدخان سجاير ممنوعة أيضا .. كان الآخر يعتذر له عن سوء المعاملة التي لاقاها أما صديقنا فلم يكن مصدقا أن الكابوس قد قارب على الانتهاء كان يشعر أنه شاهد فقط عرضا مجسدا من عروض بازوليني أو فلليني .. عندها عادوا من أجازتهم الأولى وقف المساعد في طابور المساء متخفيا بالظلمة يؤنبهم .. كان يقول أن طلبة نهائي ارتكبوا مخالفات لاحصر لها وأن طلبة متوسط انطلقوا تهاجا .. لذلك يصير معاقبة طلبة اعدادي والمستجدين بطوابير تكدير حتى نوبة نوم .. كان الآخر يضحك ويحاول فلسفة ذلك بانهم بعد عودتهم من الأجازة كان لابد من تفكيرهم بأنهم لزالوا عسكريين .

تذكر صديقنا هذا الحوار عندما سمع عن دفعة الضباط حديثة التخرج التي أرسلوها إلى ميدان المعركة مباشرة أيام يونيو ٦٧ وكيف تصرف معظمهم بطفولة خلال الممارك فهم لم يتعلموا الا قيسا جوفاء في كليتهم الحربية .

وهو أيضا لم يتعلم شيئا خلال مدة اقامته هناك .. عناوين الموضوعات فقط تكتيك .. إشارة .. هندسة ميدان طبوغرافيا .. وكلها درسها بطريقة ساذجة أعدوها لطلبة في السانسة عشر من العمر .. ولا تليق بمهندس تجاوز هذا السن بخمس سنوات درس خلالها بالجامعة ولكن كل هذا يمكن أن يوضع بكفة وما تعلمه من مدير الكلية الحربية خلال متابطين بكفة أخرى لقد قال لهم — أنهم بانضمامهم لمصنع الرجال (تعبير غريب فالإنسان لا يعاملون كالمنتج .. أن البشر علاقات وأفكار ومزاج واختلاف ومبادرة وحيوية .. وأخيرا عقل وإرادة) .. ستتاح لهم فرصة الانضمام لباتي الرجال الذين سيحمون مصر .

وأن كانت الفرصة قصيرة للتأثير فيهم وتحويلهم إلى رجال (وبالتالي كان لابد من تعديل وسائل وأشكال تدريبهم) ثم للأسف بأن رغم هذه العيوب الواضحة الا أنهم سيكونون ضباطا وسيحسبون على الضباط .. وهو

لذلك وأمره لله يرجوهم أن يحافظوا على سمعة الضباط بأن يؤدي كل منهم التحية العسكرية للضابط الأعلى .. والا يتزوجوا بغايا الكباريات .

يزاولون معهم الجنس فقط ولكن الزواج شيء آخر .. ولا يتزوجون أيضا امرأة تلبس الملاة اللف والا فكيف سيدخلون معها الى نادى الضباط لقد منعوا ضباط الشرف من دخول الاندية لذلك السبب « ضباط الشرف هم الصف ضباط الذين رقوا حتى رتبة ضابط بحد أقصى رائد » .

وأن عليهم أيضا ألا يشتروا الفجل والكرات والبطيخ ويحملوها وهم يرندون بدلة الجيش .. ثم كرر رجاءه .. بأنهم محسوبون ظلما على رجال القوات المسلحة وعليهم ألا يسيبوا فضائح لهم .

كان الفتى يضحك وصديقنا يعلق على كلمات مدير الكلية .. وكان رغم سنه يعجب كيف يجرؤ انسان ما على مواجهة مهندسين بهذا المنطق .. لقد كان المهندس في ذلك الزمن أملا .. كان يمثل نجاح خطط التنمية والأمل في مستقبل يواكب الزمن والتقدم التكنولوجي .. لقد كان البطل في السد العالي .. ومصانع الطيران .. والمصانع الحربية .. وقناة السويس .. واستصلاح الأراضي .. في الحديد والصلب .. ومصانع الاسمنت ومصانع الكيماويات .. والف مصنع آخر .. وكانوا يفنون له .. ويرفعون من شأنه لذلك اندهش الفتى .

بالطبع كان من الممكن أن يكون حديث مدير الكلية الحربية صحيحا في عصر الانفتاح بعد تنازل القيادة عن حلم خلق قاعدة صناعية في مصر تخدم أفريقيا والعرب والأمم الإسلامية وتعتبر نموذجا لصمود دول العالم الثالث وتحديها لحول الصناعة فلقد أنزوى المهندس في عصر الانفتاح وحل محله الكومبرادور .. السمسار .. الوسيط .. المبتلك الأكبر رصيد من المال المقطع من قوت ومعاماة الشعب .. ففي عصر الانفتاح أصبحت هناك بطالة بين المهندسين .. خاصة المهندسات اللائي لا يستطيعن السهر للخارج للعمل في دول البترول .. ولكن في ذلك العصر الذي كان أمل كل شاب أن يصبح مهندسا وأمل كل اب أو أم أن يورثا ابنيهما مهندسا كان غريبا .. أن يخاف مدير الكلية من زواج الضباط المهندسين من بغايا الكباريات الا اذا كان متأثرا بقصص يوسف السباعي .

كان الفتى يضحك بصوت عال غير عابئ بأنهما يتكلمان بعد سماعهما لنوبة نوم وصديقنا يحدثه عن مشاعره وهو يؤدي اختبار الثقة بعد عودتهم من المنصورة .

واختبار الثقة ان كنت لا تعلم هو ان يصعد الطالب الى أعلى برج
منط حمام السباحة بالكلية الحربية .. بملابسه كاملة ثم يقفز الى الماء
عموديا عند سماعه لأمر القفز .

كان صديقنا قد عاد من المناورة بعد قطع رحلة سير على الأقدام
مقدارها عشرون كيلومترا ذهابا وأخرى ايابا وبعد أن قضى ليلته في
حفرة صغيرة أعدها بنفسه في الجبل خلالبرد ديسمبر اللعين للتدريب على
تكتيك الفصيلة المشاة في الدفاع وكان مرافقوهم من الضباط يتبعونهم راكبين
ميكروباس ثم قضوا ليلتهم في عربتهم بينما تركوهم ينامون في العراء .

كان يقول هل يضربون لنا المثل في كيف يكون الفارق بين الضباط
والجندي لتصبح هذه الليلة ذريعة لنا حتى نترك جنودنا في العراء ونبحث
نحن عن أسهل وسيلة للراحة .

عندما صعد الى برج منط حمام السباحة .. ونظر من أعلى أصابه
الرعب مبالي الكلية تبدو من أعلى صغيرة .. وهو لم ينجح حتى تلك
اللحظة في تعلم السباحة .. لقد خافت عليه أمه من الشرق فلم تنحسه
نصف جنيه اشتراك في الحمام خلال الأجازة الصيفية وبالتالي لم يتعلم
السباحة مثل باقي زملائه — هكذا كانت تدعى — وأستمع وهو شبه منوم
للأمر .. أقفز .. لم يدر ماذا يفعل ؟؟

حاول العودة .. ولكنه ارتبك فتقدم فخطأ الى الهواء ليستط من
من أعلى في منتصف المسافة بين البرج والماء تذكر أنه لا يعرف السباحة ..
رفع ذراعيه لأعلى للامساك بقاعدة البرج .. ولكن هيهات استقبلته المياه
بكرباج فغطس الى أسفل الحمام وارتفع مرتين وبصعوبة استطاع أن
يمسك بالحبل الذي مذفوه له لانقاذه .

في بداية العام الجديد .. كان يقف وزملاؤه في صف طويل أمام
مدير الكلية الحربية وباقي ضباط التدريس ليؤدي اليمين العسكرية —
اقسم بالله العظيم .. بالمحافظة على السلاح .. والأرض والجود
بالنفس .. واطاعة القادة .

ولم يوغوا بهذا القسم بعد ذلك بخمس سنوات مع أحداث حرب
٦٧ للأسف .

وخرج صديقنا في ذلك اليوم من الكلية الحربية لآخر مرة مرتديا ملابس
العسكرية وعلى كتفيه في كل ناحية نجمتان صغيرتان تثبتان بأنه قد أصبح
ملازما أول في القوات المسلحة .

الفصل الرابع

شاهد دموعها بصعوبة وهى تنحدر على خديها .. فالضوء الاحمر الخافت جعل الموجودات حولهما تبدو كالأشباح .

كانت موسيقى الوسترن بنقات رعاة البقر الرثيبة والصوت المبحوح للمغنى الأمريكى وكأسا المنهاتن اللذان سبقا زجاجة النبيذ التى قاربت على الانتهاء .. قد أثاروا أشجانها .

كانت تتكلم عن وحدتها التى تضئها رغم كل مظاهر الترف والرضا التى تحيطها العربية المرسيدس التى اشترتها لها الشركة على احدث طراز والشقة الفاخرة التى اجرتها لها الشركة تحت اسم شقة الضيافة .. والفيديو كاسيت وأحدث الأفلام الأمريكية التى تبث على مكتب الشقة .. وعشرات المتقربين لها فى محاولة لمقدد صفقة ما .. والالف وخمسمائة جنيه التى تحصل عليها أول كل شهر .

كانت تتكلم بالانجليزية اللغة التى تتقن التعبير بها عن نفسها وتقول انها فقدت القدرة على التواؤم .. فهى مصرية بالمولد . ولكنها أمريكية بالتربية رغم عدم زيارتها لأمريكا .. وأنها فقدت كل هوامش الاتصال بالآخرين . الأجانب يتعاملون معها على أنها جزء من مغامرة ساحرة للشرق وأبناء وطنها على أساس انها أكثر تأمركا من الأمريكيين .

ادهشته دموعها كان يتصور انها راضية عن حياتها .. وأن الجنايب الأكبر من أمريكيتها قد كونه بارادتها .

وكانت هى أيضا تبدى دهشتها .. لقد حصلت على ما خططته لنفسها تماما لقد وثقوا بها لدرجة انها الوحيدة بين جميع العاملين التى جعلت كارت « أمريكان أكسبريس » .. وهى بواسطته تستطيع أن تصبح

مليونيرة .. ولكنها لن تخذلهم لقد بنت ثقتهم بها بعد عناء .. أن ملاحظاتها وتقريرها مقدسة لديهم وهى بذلك تستطيع أن تطيح بمن تريد وتقرّب من تريد أيضا كانت تبكى وتقص عليه قصتها لعله يستطيع تفسير أسباب عدم رضائها أنها أبنة مهندس .. عاصر الوقت الذى كان للمهندس فيه قيمة عالية ومستوى معيشة متميز .. أصرت أمها على أن تتعلم فى المدارس الأجنبية هى وأخوتها .. حيث اتقنت الإنجليزية .. والعادات الخاصة بطبقة كانت تتميز وتتشكل فى تلك المرحلة .. تلك الطبقة التى ورثت الارستقراطية الامطاعية بعد قيام الثورة .

أن المتأمل فى تلك المرحلة من تاريخنا فى حاجة الى أن يمتلك خيالاً علمياً وقدره على ربط الظواهر المختلفة .. التى أرتبط بعضها ببعض بشكل جنلى بحيث لا يمكن تفريغ ظاهرة منفردة ومناقشتها الا فى أطوار الظواهر الأخرى . لقد حدث انقلاب فى تاريخ البشرية سواء العلمى أو السياسى أو السلوكى أو الاجتماعى .. عصفت بكل الموازين والقيم المتوارثة فتخطت الكثيرون وخاض كل منهم تجربته متصورا انه امتلك القدرة على إيجاد التوازن الصحيح . فعندما كان الكون تقتسم السيطرة على أرضه انجلترا وفرنسا .. كانت الحياة مستقرة .. مستعمر وآخر يعانى من الاستعمار .. مستغل وآخر يعانى الاستغلال .. منتج للمواد الخام وآخر مصنع لها .. وكان العالم يعيش ثقافة وحضارة الأقوى .. وكان فى بلدنا ارستقراطية اطماعية امتلكت ثروتها ونفوذها بعد الاحتلال الإنجليزي لبلدنا وتوزيعه الأرض على الخونة الذين تدبوا له عرابى وبلدهم على مائدة أطماعهم .. وكانت الاستقراطية تتمثل بأولياء نعمتها .. تكلم لفبتهم .. وتلبس ملابهم .. وتبنى تقاليدهم . كانت الارستقراطية تعيش فى أوروبا فترات أكثر من التى نقضسيها فى بلدها وفى فترة ما .. حاولت دول أخرى مشاركة المستعمرين الاساسيين للأرض .. وقامت حرب طاحنة اعقبتها حرب أخرى ضارية هى الحرب العالمية الثانية فى هذا الوقت جاء صديقنا الى الحياة .. وفى وقت لاحق قريب جاءت صديقتة الباكية .

خلال الحرب العالمية الثانية ظهرت الحباية .. والطائرة والصاروخ والقنبلة الذرية تلك التى حمزت بها أمريكا هيروشيميا ونجازاكي .. وبدأ السباق بعد أن تغيرت خريطة العالم .. وتميز الى أقسام ثلاثة .. أمريكا وحلفائها والاتحاد السوفيتى وحلفائه .. ودول العالم الثالث التى كانت مشغولة فى مشاكلها الأساسية وهى مقاومة الاستعمار القديم .

عندما التحق صديقنا بكلية الهندسة .. دارت معركة بورسعيد انتهى في أثرها الاستعمار القديم وبذلك حققت بلاده أول مسبار في نعش هذا الاستعمار وحذا حذوها الكثيرون .. ولجأ إليها الكثيرون .

وتوالى الانتصارات .. الجزائر .. دول أفريقيا .. دول أمريكا اللاتينية .. دول آسيا والصين .

وتنامس العملاقان الجديدان على امتصاص الأرض كل منهما يحمل تراثه الفكري في مقاومة الاستعمار القديم .. الاتحاد السوفيتي وتعليقات لينين وماركس وإنجلز .

وأمركا مع وثيقة حقوق الانسنان .. وليس غريبا أن يتعاون العملاقان في إيقاف العدوان الثلاثى على بورسعيد .. وانهاء عصر الأمبراطوريات التى لا يغيب عنها الشمس .

كان عبد الناصر هو فارس هذه المرحلة .. وأملها .. قاد القوات المسلحة للقضاء على الاستعمار القديم والأستقراطية الطفيلية وتوقف ليسأل نفسه وبعد !! قادته الأحداث المتغيرة والمتطورة بسرعة أكبر من تصورهِ وتزق في الصراع بين العملاقين .. في البدء عندما لجأ لحاملى حقوق الانسنان .. قالوا قف لقد أنتهى دورك .. بانتهاء مقاومة الاستعمار القديم .

عندما لجأ لحاملى تعليمات لينين قالوا .. نعطيك السلاح والغذاء والتكنولوجيا وتعليمات الرقيق .

عندما لجأ الى اتحاد المظلومين — وكانوا أن يكونوا قوة يحسب حسابها سحقه العملاقان .. أحدهما حامل وثيقة حقوق الانسان .. دمر قواته المسلحة في اليمن .. ثم أنهى عليها في سيناء .. ثم أغرقه في بحر الاستهلاك والحاجة .. والآخر ساندته الى القدر الذى لا يمتلك فيه قدرته على أخذ القرار الذاتى .

وهكذا تغيرت المفاهيم والأفكار والسياسات ثلاث مرات وبشكل جنرى خلال فترة قصيرة هي عبر صديقنا .

مقاومة الاستعمار وانابيه (هذا هو التعبير السائد في تلك الأيام) الاشتراكية العربية .. ثم الانفتاح الاقتصادى .. ولكن وفى كل مرحلة كانت هناك طبقة ما تشاردة على أن تحافظ على مكاسبها وأرستقراطيتها

ورغد حياتها وبأكيثنا كانت من أسرة أمسكت بكل الطرق والأساليب التي مكنتها من ذلك قالت أن أمها أصرت على تعليمها وأخوتها في المدارس الأجنبية جنبا الى جنب مع أبناء الأرستقراطية المحجورة . وأن أمها أيضا أصرت على أن تكون الأسرة عضوا بنادى الجزيرة .. جنبا الى جنب من أبناء الأرستقراطية المنهارة .. وأبناء الطبقة الجديدة البازغة والمتكونة من أعضاء مجالس الادارات ومديرى المصالح وضباط القوات المسلحة السابقين واللاحقين .

ان اصرار والدتها هذا كان مكلفا للأسرة .. بل فوق طاقتها الاقتصادية . اذا علمنا أن المشير عامر قائد الجيش فى ذلك الوقت منح الضباط عضوية جماعية مجانية لجميع أندية مصر الأرستقراطية وغير الأرستقراطية .

وفى المدرسة والنادى اعانت بأكيثنا من عوارق لا يشعر بها الا الاطفال فوالدها المهندس يستطيع أن يقدم لها المدرسة الجيدة والملبس المناسب والطعام الصحى والمصروف المتوسط أما أبناء الأرستقراطية القديمة والجديدة فكان يمكنهم أن يتمتعوا بما هو أكثر من ذلك .. الملابس المستوردة والطعام النادر مثل الشيكولاته السويسرى والتفاح الأمريكانى والفسق اللينيانى .. وأيضا باستطاعتهم أن يمتلك كل منهم عربة خاصة .. وكان لا بد لها من أن تصارع وتمثلت الفرصة فى ذلك الشاب القادم للزواج منها .. كان متناسبا جدا مع طموحها .. فهو من أسرة متوسطة لن يباهيها بأصله وفى نفس الوقت من ذلك الجيل الذى أصبح الطريق أمامه مفتوحا للقمة .

لقد أزيح من أمامه أبناء الطبقة الأرستقراطية الوارثة للمناصب الأساسية فى الدولة .. وهو قد عاد لقوه من الولايات المتحدة الأمريكية حاملا الدكتوراه .. وينتظر الأرض المروثشة بالزهور ليصل الى قمة الهرم .

لقد كان مناسبا لها خاصة انه وبعد الفترة التى قضتها فى الولايات المتحدة أصبح متعينا فى نظرها ولن يعاملها بنفس الطريقة المتوحشة التى يتعامل بها الرجل المصرى مع زوجته .

وبعد فرح صغير تزوجت بأكيثنا وتركت دراستها بالجامعة الأمريكية أو قل أجهلتها .. وأصطدم الدكتور العائد من بلاد حقوق الانسان .. بأبناء الطبقة الجديدة .. كانت هناك مؤامرة غير مخططة .. لكسر اعتزازه

بنفسه .. واعادته الى الحظيرة وتوالت النكسات .. آخرها هزيمة ٦٧ .. وهرب الدكتور ومعه باكيثنا الى بلد عربى ليكونا نفسيهما ويعودا .

فى تلك الايام كان صديقنا قد أنهى دراسته فى مدرسة المهندسين العسكريين حيث تعلم عناوين مواضيع أخرى اضافها لسابقتها عن الألغام والمفترعات وتسوية الطرق والتكتيك الخاص بسلاحه .

كان عليه أن ينسى كل ما تعلمه بكلية الهندسة ويعد نفسه ليصبح مهندساً عسكرياً يرمي حقول الألغام وينسف المنشآت ويجهز الطرق والكبارى المؤقتة وبعدما اجتمع بهم مدير السلاح للترحيب .. ندم على ذلك اليوم الذى هرب فيه من مستنقع الحياة المدنية الى أتون الحياة العسكرية .. فلتد كان من الواضح أن ذلك الضخم السمين ذا الكرش المنتفخ لا يعنى ما يقوله .. قال ان عليهم نسيان عائلاتهم وأسرهم فالسلاح هو عائلاتهم الأساسية وأنه قد اختارهم بحيث يملأ كل منهم فراغا محددًا .. مهندس الفلزات اختاره خصيصا للوروش .. والمعماري الوحيد اختاره لمكتب تصميمات أسسه حديثا وكان صديقنا هو ذلك المعماري الوحيد الذين اختاروه لسلاح المهندسين بدلا من الأشغال .

ولكن وقبل أن تنتهى الجلسة اكتشف كذب المدير .. لقد كان واحدا من ثلاثة ضباط تم توزيعهم على كتيبة مهندسى الفرقة الثالثة بسياء . عندما أسر بذلك لزميل أقدم منه قليلا تصادف وجوده بجواره أثناء تناولهم طعامهم فى الوليمة التى جهزها لهم المدير بعد المقاتلة .

ضحك الآخر بصوت عال لفت الأنظار له .

ثم قال — عيب جيلكم انه نقى جدا ويصدق كل ما يقال .. ان هذه طريقة سيادة اللواء دائما .. فهو لا يصدق الا انما يخص الولائم فقط هل صدقت ما قاله عن ان الهندسة لا وجود لها فى مصر الا فى سلاح المهندسين وأنه لايجد من يشغل البعثات المخصصة للسلاح سواء الخارجية او الداخلية وأن هناك مكاتب متنقلة على مجل توصل الكتاب حتى الخندق يا ابنى لو كان لديك واسطة « كوسة » .. لما ذهبت الى سياء ... ومع ذلك فلقد كان صديقنا سعيدا بعودته لسياء عسكريا بعد أن خذلها مدنيا رغم صدمته الأولى فى قيادته .

بعد ذلك اكتشف صديقنا أن أسلوب سيادة اللواء مدير السلاح كان الأسلوب السائد ليس فقط فى جميع أجهزة الدولة ولكن الأخطر فى الجيش عندما قصوا عليه كيف أن المشير عابر غداة حرب الأيام الست قال

لمجموعة من الضباط اجتمع بهم في سيناء .. انه لديه اقوى سلاح طيران في الشرق الأوسط .. وانه قادر على حماية مصر والانتصار في سيناء واليمن .

وكيف انه قال لعبد الناصر عندما ناقشه في امكانية تحقيق نصر في سيناء - رقبتي يا ريس .

كانت هذه الإنكار تصدده بعنف وهو يستمع اليها من خلال سمعها المنهارة .. ان هروب النكتور من مصر وهى معه .. كان أحد الانتماءات التى نمت في مواجهة التسيب والكذب وعدم الجدية التى لازمت تلك الفترة .

ولكن كيف وصلت الأمور الى هذه الدرجة .. خاصة بعد أن انتصرت الثورة واصبحت مثلاً يحتذى به في مقاومة الاستعمار القديم .. وبعد أن تخلصت من الاقطاع وفساد الحكم .. وبعد أن رأس جمهوريتها أول مصرى بعد آلاف السنين من حكم الفخلاء .

يقول صديقتنا انه حكم الفرد .. رجل واحد وحزب واحد .. وصوت واحد يسيطر على أجهزة الاعلام وأجهزة السيطرة .. انه الخطأ الأول والأخير لحبيبه وقائده عبد الناصر .

لقد أصبح النفوذ والمال والحياة الرغدة كلها مرتبطة بالاقتراب من راس السلطة وكانت فرصة الاقتراب تزداد كلما كان الإنسان قادراً على خداعها لقد أخطأ عبد الناصر بعدم استثماره لثقة الجماهير بثورته واعتماده على أهل الثقة من المخربين .. أخطأ في اهدار الديمقراطية واحلال الديكتاتورية الرشيدة محلها .

لم تكن هذه وجهة نظره في تلك الايام الأولى لعمله بسيناء فقد تصادف بعد عودته من اجازة ميدانية أن التقى بمقيم أسمر جمع حوله ثلاثة ضباط صغار السن يحدثهم عن حكمة الحياة ويوجزها في ان الحياة طموح . ومجد وثروة .. وأن الإنسان تتحدد قيمته من خلال ثروته وقدرته على الكسب وطال الطريق . فبدأ يشرح فلسفته في التعامل مع الجنس الآخر وأنه جنس لا يستقيم الا بالضرب .. ثم ينتقل الى مثال لعمد حسنين هيك في الأهرام وكان يمثل صوت السلطة في ذلك الوقت .

كان صديقتنا يقرأ مجلة الطليعة في تلك اللحظات وبالأذات مثال لطفى الخولى عن اعادة انتخاب عبد الناصر .. فتدخل في الحديث مستعمرا جزءا من وجهة نظر الطليعة .

غضب الآخر .. ثم تبادلنا ناختطف الطليعة من بين يديه وتقلب صفحاتها وهو يزوم .. الم نقل لا داعى للقراءة لهؤلاء .. ثانيا .. العالم .. والخفيف .. وأبو سيف يوسف .. ثم واجهه بسؤال .. لماذا نقرأ لهؤلاء ؟ هل أنت شيوعى .. ؟ ثم أدانته مباشرة .. أنت شيوعى .. وأضح من لهجتك .. نظر له المستمعون برعب ثم ابتعدوا عنه كما لو كان أجرب ولم ينتذه الا رائد أبعدهم عنهم لينصحه .

— ما الذى دعاك لمناقشته سياسيا .. هل أنت شيوعى فعلا .

— رد الآخر بصدى — لا .

— بتسترى الطليعة ليه .. !!

— أحنا فى بلد اشتراكى .. ولا بد أن يثقف كل منا نفسه حتى يصبح خلية ثورية تشع فينا حولها .

التقط المتقدم الأسمر الكلمات ثم صاح مقاطعا —

حضرتة عايز يعمل خلية .. والخلية دى داخل الاتحاد الاشتراكى أم خارجه .

وتمعدت الأمور .. فانسحب صديقتنا مؤثرا عدم اضافة كلمات جديدة تجعل هذا الهوىس بجميع حوله شباككه .. مفكرا لماذا ارتعب ذلك المقدم من الطليعة ومن كتاب علميين مثل الخولى — والعالم — والخفيف وهل هؤلاء فعلا شيوعيون .. اذا كانوا شيوعيين فالشيوعية مبدأ جيد بحيث يقتنع بها مثلهم واذا كان هناك خطر منهم أو من مجلتهم فلماذا يصرح لها .. وتطبع وتتداول .

كان لهذا الحدث أثر حاد فى مستقبل صديقتنا .. فعندما وصلوا الى العريش وجد فى استقباله رئيس العمليات الذى سألهم المتقدم الأسمر .

— هل هذا الضابط من كتبتك .

رد الآخر

— أيوه يا مقدم .

— ده ضابط شيوعى .

رد الآخر غير مصدق

— مش مقول يافتنم .

رد الآخر بفتة غريبة

— شوف بيقول ايه .. بيقول عايزين نعمل خلايا ثورية خارج الاتحاد الاشتراكى .. ثم أردف .. هل تتصور أنه يقرأ للطفى الخولى والعالم والأشكال دى .

ومنذ ذلك اليوم أصبح صديقنا معروفا فى سلاحه بأنه ضابط شيوعى مشاكسى .

كانت لاتزال تبكى وهى تقص كيف أن زوجها تفسرت معاملته لها بعد أن أصابه الاحباط فى مصر .. وكان لابد لها من أن تسافر معه الى دولة عربية حيث يمكنهم تقديره علميا ومائيا .. ولكن

ورغم تضحياتها بدراساتها ورغم أنها وفرت له كل الوسائل للراحة والنجاح فى الغرب .. فائه قابل ذلك بالقسوة عليها التى وصلت الى درجة ضربها .

واندهش صديقنا هل يمكن أن يحدث هذا فعلا ... ؟

دكتور .. حامل دكتوراه من امريكا يضرب زوجته .. خاصة اذا كانت تلك الجالسة أمامه .. تبكى فى وداعة .. وانفصلا .. ثم سكت . لقد كان لائنصاليها قصة غريبة لم يكن يتصور أن تحدث أبدا .. فى هذا الوسط .. عرفها بعد ذلك .. تدخلت فيها النيابة والبوليس والمحاكم .. وتبادلا الاتهامات واستولى كل منهما فيها على ما وصل يديه ووجدت نفسها تبدأ من جديد ومعها طفلة صغيرة عليها الاهتمام بها دون مساعدة والدها .

الفصل الخامس

معسكر الكتيبة عبارة عن مبنى من دور واحد من الهاردبورد والطوب يستخدم لمبيت الضباط .. ملحق به مطبخ وصالة معيشة .. وعلى بعد مائة متر توجد مكاتب الضباط والمخازن وفي نهاية المعسكر مطبخ الجنود وخيام أعدت لمبيتهم ويميز من الخشب والهاردبورد للجنود ملحق به كائنين وفي النهاية المقابلة توجد (الحلة) جراج العربات والمعدات .

كل هذه المباني متناثرة وسط صحراء لا حدود لها .. والمعسكر محاط بسور من السلك الشائك له بوابة يحرسها جنديان .

وصلوا المعسكر قبل غروب الشمس بقليل عبر طريق غير مهمد كثير الحفر والمطبات كان السبب في تغطيتهم بطبقة رقيقة من التراب .

استقبلهم الضباط القدامى في صالة المعيشة بترحاب يشوبه الملل والراء . ثم أهرأ الجنود بتقديم الطعام لهم وهذه عادة الضباط في الصحراء أكرام الضيف وتقديم الطعام له حتى لو لم يطلب .

كانوا يحاولون ابتلاع الكشرى بدون أمراره على أسنانتهم لامتلائه بالزمل ويلهبون شهيتهم بالطرشي الحار .. ويحاربون ضد الذباب كى لا يثأركهم وجبتهم .. ويتأملون المكان الذى سيصبح مقرهم لعدد من السنين يعلم الله مداها .

عندما توقفت سيارة جيب أمام الميز .. تبعها توتر خفيف بين الضباط القدامى .. ثم دخول شاب أسير مملىء يتناثر الشيب في شعره الأسود الخفيف .. على الصوت يقهقه وهو يداعب الجنود بمرح بواسطة عصا صغيرة في يده .. لقد كان قائد الكتيبة .. رحب بهم بسخريه .. فقد طال انتظاره لهم لىسد العجز فى ضباط الكتيبة ..

سألهم عن تخصصاتهم .. قال صديقنا أنه معماري .. علق القائد ..
يعنى فنان يادى المصيبة كفاية علينا فنان واحد ثم نظر تجاه نقيب أبيض
يبتسم بتكلف .

قال الآخر انه بترول والثالث انه كيمياء .

علق القائد بخفة دم تائلا —

عندما كنت فى سنكم وذهبتا لمقابلة قائد الكتبية سألنى عن تخصصى
عندما قلت له ميكانيكا .. قال تمسك الحيلة .. وعندها رد زمينى بأنه
بترول قال بجدية تمسك البنزينة .. ثم ضحك وسأل الشاب الصغير
هل تمسك البنزينة .

كان صديقنا يتأمل القائد الضاحك ويعجب .. لقد علموه فى الكلية
الحربية وفى مدرسة المهندسين بأن الضحك جريمة .. الأدهى من ذلك
أن الضباط الأقل رتبة يضحكون أيضا معه ويتبادلون النكات .

سألهم .. ماذا تريدون أن تعملوا ... ؟

رد صديقنا .

— بل ماذا تريدوننا أن نعمل .. ؟

ثم أردف .. نحن نريد أن نكون مهندسين .

رد القائد بصراحة غريبة

— هندسة .. لا .. مش فى هذا الدكان .. ملتقيش يابنى ..
لكن اذا كانت لديكم القدرة على بذل الجهد .. واذا كان لديك الشرف
لتراعى ضميرك وتضرب وتدريب جنودك .. فلن تقدم على دخول
الجيش .

كان واضحاً منذ اللحظة الاولى انه شخص مختلف عن الآخرين
وهذا ما ظهر بعد ذلك بوضوح فى مواقف كثيرة كان أهمها عندما صدرت
الأوامر لكتيباتهم بالسفر لليمن .. اذ اجتمع بجميع الضباط وبدأ حديثه
بأنه لن يسمح بارادة نقطة دم واحدة لأحد من الجنود نتيجة لاهمال
ضابط وانه سيتعامل بعنف مع الاستهتار بأرواح الجنود السائد هناك ..
ثم صرح بأن من يريد السفر فبهذه الشروط .. ومن يرفضها فليعلن عن
رغبته فى عدم السفر .. وسيحل محله آخر بقدر المسؤولية .

فى ذلك اليوم دار بيته وبين صديقنا حوار غريب بعد أن أعلن عدم
رغبته فى السفر .. عن أن حرب اليمن حرب قومية .. وانها دفاع عن

حرية الانسان وأن هناك العديد من الضباط والجنود الذين يحاربون
المعركة من وجهة نظر سياسية شريفة .. وأن الذين يذهبون لاي هناك
لرغبة في ثراء أو تحسين أحوالهم المعيشية تلة مبالغ فيها .. ورفض
التصديق على عدم سطر صديقنا .

استدعاه رئيس عمليات الكتيبة ليلقنه مهام منصبه بعد أن تم ترقيته
زميله الى المواعع الأمامية للمشاركة في التجهيز الهندسى لفر الفرقة في
المعركة .

قال - أنتم دم جديد على الكتيبة وعادة مع قدوم دم جديد ننتهزها
فرصة لزيادة الضغط والربط وللاندفاع بالكتيبة الى افضل مورها ..
لا تستمع الى شكاوى ويس الآخرين .. أنت شاب وعليك اثبات مقدرتك
ولن يحدث هذا الا بالعمل الشاق لقد اخترناك لتصبح قائد فصيلة
الاستطلاع وضابط الأمن بالكتيبة .

ثم سلته بعض الأوراق لدراستها وفهم مهام فصيلة الاستطلاع
وضابط الأمن .

سال احد الضباط القدامى عن مهام ضابط الاستطلاع .

فقال - ولا حاجة .. هبكة .. ضابط الاستطلاع هو جوكر
الكتيبة ولا مهام له الاعلى الورق .

سال آخر .. فرد عليه بخبت .. بأن القائد يريد به بجواره لأنه علم
بقربته لأحد اللوات الهامين في السلاح .

سال رئيس العمليات ..

فقال ان القائد مهتم جداً بهذه الفصيلة التى لا وجود لها الان ..
ولذلك ستشكلها من الجنود المستجدين لتقوم بدورها الحيوى في المستقبل
وأنه اختارك لأنه توهم فيك الجدية .

كان عليه انتظار قدوم الجنود الجدد .. وحتى يتم ذلك كلفه
رئيس العمليات باعداد الفصول التدريبية وتجهيز مساعدات التدريب .

وعكف صديقنا على دراسة مهام كتيبة المهندسين .. ليستطيع تجهيز
مساعدات التدريب المطلوبة منه بدءاً من العدم .. وفي مدة قليلة كان
قد ألم بما لم يتعلمه أبداً في مدرسة المهندسين العسكريين .

وبدا يملأ حجرات التدريب بلوحات عن الألغام وطرق استخدامها
ورصها والفارق بين الألغام المصادة للذبابات والأخرى المضادة للأفراد ..

ولوحات من التحصينات والمرتميات .. وطرق الاخفاء والتمويه .. وغرق في بحر من الالوان واللوحات والاطر .. حتى اتم مصول التدريب واستدعى القائد ورئيس العمليات لافتتاحها .

كانت بداية مناسبة له .. لقد عوض عجزه بالدراسة المكثفة .. ثم انه بدأ حياته العملية بأعمال محببة له الرسم والكتابة وتجهيز ما يشبه المعرض لقد كانت هذه بداية دائما في كل عمل جديد .. الدراسة النظرية أولا ثم التطبيق .. وهذا ما حدث له عندما عمل في شركة مناولات بعد احالته للمعاش من القوات المسلحة .. لقد قرأ كل ما وقع تحت يديه من كتب .. ثم وضعها بعد ذلك في التطبيق بحيث تجاوز الفارق بينه وبين باقى زملائه العاملين في هذا اجال من بدء تخرجهم في مدة وجيزة وكان النجاح الذى حققه صديقنا في اعداد مساعدات التدريب حافظا لقائده ان يوكل اليه مهمة تدريب الجنود الجدد .

اجتمع معه رئيس العمليات وبعض قادة السرايا .. جهزوا برامج تدريب مكثفة اعاروه ثلاثة صف ضباط قدامى .. وسلموه خمسين جنديا جديدا .. بحيث يعدهم للتوزيع على السرايا خلال ثلاثين يوما .. وعلى ان يختار من بينهم فصيلته .. وبدأ برنامج التدريب .

لاحظ ان الجنود لا يستوعبون الكلمات التى يشرح بواسطتها الصف ضباط المعلومات .. ثم انهم ينهكون سريعا .

وبعد يومين .. استطاع ان يحدد الاسباب بالصدفة .. ان اكثر من ثمانين بالمئة منهم يجهل القراءة والكتابة وبالتالي لا يعرف الا الفاظ لهجته المحلية .. واكثر من ستين بالمئة مرضى بالبلهارسيا .

عندما واجه رئيس العمليات بذلك .. واقترح ان يبدأوا بتعليمهم القراءة والكتابة وعلاجهم ثم تدريبهم ضحك الآخر بسخرية .. ثم شرح له اسباب رفضه .. ان تعليم القراءة والكتابة ليست مهمة القوات المسلحة .. اما علاج البلهارسيا فاملمه عقبتان الأولى .. ان العلاج محدود .. والاخرى ان على المريض ان يستريح في اليوم التالى للعلاج اى انهم سيخسرون نصف مدة عمله في العلاج ومقد صديقنا حماسه .. وهكذا هو دائما يريد أن يعمل في ظروف مثالية وهى عادة سببت له كثيرا من المشاكل بعد ذلك خاصة في تعامله مع شركائه الأمريكان .

ولكنه عندما اختار جنوده المستجدين حاول قدر جهده ان يكونوا
من المتعلمين والأصحاء .

كان صديقنا قد أصيب بخيبة أمل لالتحاقه بالقوات المسلحة بعد
تجربته في الكلية الحربية وحديثه مع مدير السلاح وكانت نظرات الحزن
والاحباط التى يلاحظها في عيون الضباط الأقدم الاثر في خفض روحه
المعنوية لقد أصبح يثمر بأنه تم تضليله . . ان الحياة العسكرية
لا تناسبه . . وردود فعل رؤسائه على حماسه كانت تضيفه . . لم يكن
هذا شعوره منفردا وانما زميلاه أيضا . . عند عودتهما من مأمورياتهما
بالجبل كانا ينتقلان له عدم رضائهما وندمهما على الالتحاق بالقوات
المسلحة . . وبدأت نظرة الحزن تزحف الى عينيه . . وأصبح صامتا . .
هادئا . . انطوائيا .

حتى استدعاه قائد كتيبته في ليلة ربيعية من ليالى الصحراء . .
كان جالسا منفردا على كرسي « فوتي » بجواره منضدة صغيرة عليها
زجاجة ويسكى اشترأها له أحد الضباط من غرة . . وقطع من الثلج
في ترموس وبعض السلطات .

دعاه لمشاركته في كأس . . ولم يكن صديقنا قد تناول أى مشروبات
كحولية من قبل .

عندما اعتذر بعدم تعوده على شرب الكحوليات — ابتسم الآخر .

كان القمر بدرا ونسمة هواء جافة تحاول عبثا الاطاحة بالموجودات
الغريبة التى ظهرت نجاة في الصحراء ولكن لضعفها لم تؤثر الا في بعث
النشوة في الجسدين المتواجهين .

قال القائد . . ولماذا لا تجرب . . يجب ان يكون لديك المرونة على
ان تجرب أشياء لم تتعودها .

انا لا اتكلم عن الويسكى . . انما أعنى كل ما يحيطك . . هل تخيل
ان كل البشر ياكلون الملوخية بالأرانب .

ابتسم صديقنا . . أكل الآخر . . انهم يقتلون الارانب في استراليا
بواسطة الأفاعى لينعموا عدوانها على المزروعات وفي نفس الوقت لانهم

لا ياكلونها وفي اليمن يسمون الملوخية حق الحبر .. وفي العراق
يسمونها مالة البهائم .. في أوروبا .. لا ياكلون الحمام ويتركونه طليقا..
اليست هذه الذ الاكلات لدينا .. في فرنسا يستمتعون بكل الضفادع ..
ورجال الصناعة يلتنون بأكل الثعابين .

ان بالعالم آلاف الجنسيات .. وكل جنسية لها عاداتها وتقاليدها
وافكارها هل كل العادات والأفكار والتقاليد التي تخالف ما تعودت
عليه باطلة .

كانت كلوس الويسكى التي تناولها القائد تد رقت مشاعره وأطلقت
لسانه وجعلته تريبا من قلب صديقنا .. ولمعت نجمة في السماء ..
صمت كلاهما كان للصمت في الصحراء صوت غريب .. صوت الخواء..
وصفرت نسمة هواء في مكان ما .

أكمل القائد .. هل سافرت الى الخارج من قبل .. ؟
أجاب صديقنا انه كان مهندسا لاسكان ومرافق سيناء .. وأنه زار
رفع والشيخ زويد والعريش وبئر العبد والطور .. فقد كان يشرف على
مباني تنشأ هناك .

سال القائد — لا .. أقصد هل سافرت خارج مصر .. ؟
أجاب صديقنا — بأن أول مرة يغادر القاهرة كان سفره لسيناء مرتين
الأولى كمهندس والثانية كضابط .

ضحك القائد بصوت عال .. ثم أكمل —

ان الاوربيين يدفعون آلاف الجنيهات كي يعيشون اياما مثل التي
نعيشها لماذا لا نستمتع بالتجربة ؟
كان القمر قد سقط الى طرف السماء .. فأضاء وجه القائد بهالة
من نور .

أكمل — انت شاب نكي .. لا تتصور أنني اخترتك هنا لأنك قريب
سيادة اللواء لقد اخترتك لأنك الشخص المناسب لأن تصبح أركان حرب
عمليات الكتيبة .

..... كان هذا اللقب جديدا عليه

أكمل القائد .. أركان حرب العمليات هو دينامو الكتية .. هو ضابط الأمن والتوجيه المعنوي والخدمة الاجتماعية وهو مساعد رئيس العمليات في تجهيز خطط التدريب والقتال ويجب أن يكون مثقفا انسانا .. ذكيا .. وهو ما أتصوره فيك أن لم اخطئ .

صمت قليلا ثم أكمل وقد ملا للآخر كاسا ووضع فيه بعض قطع الفلج وقدمه له .

أخذ صديقنا رشفة ثم امتعض .

ضحك الآخر مشجعا له .

أخذ صديقنا رشفة أخرى .. وأخرى .

ضحك الآخر قائلا .. على مهلك .. لتستمتع أكثر .

كان تثير الليل .. والسكون .. والفجر .. والهواء الجاف البارد والكحول الذي بدأ السريان في دم صديقنا .. أن استيقظت روماتسيته وواقعيته كلاهما في نفس الوقت .

كان يرى أن الأمر يستحق التجربة .

قال — وماذا تريد مني .. ؟

رد الآخر .. أن تبسم .. وتعمل بجدية .. وتقيم الموقف، بعد ذلك ستصبح ضابطا ممتازا .

استلم رجاله .. خمسة عشر رجلا .. كان عليه أن يحولهم الى جنود استطلاع حقيقيين .. وعندما بدأ الشرح لهم فوجيء بأنهم ناثبون .. لا يستوعبون ما يقول لقد كانوا يرفضون مظه فكرة الجندية . كانوا يتصرفون كما لو كان عليهم أن يضيعوا عددا من السنين من عمرهم حتى يستطيعوا الحصول على شهادة أداء الخدمة العسكرية .

ولم يجد وسيلة للاقتراب منهم الا طريقة قائده .. نحى خطة التدريب جانباً وقضى وقته في الحديث معهم .. كانت المناقشات عن قراهم وأسمرهم ومهنهم وأحلامهم وظروفهم الشخصية أكثر امتعاضا لهم .. واستيقظ النائمون واستوعب الراضون .. واقتربوا جميعا بعضهم من بعض .. كان صديقنا من خلال المناقشات يصحح لهم بعض الجوانب من وجهة نظرهم .. كان يساعدهم على حل مشاكلهم .. بواسطة تحليل الموضوع لأجزائه الأولية ثم إعادة تركيبه بأكثر من طريقة .. وأصبح هناك حوار انساني وفكر مشترك في أكثر من موضوع .

انتقل بعد ذلك للمرحلة التالية.. وهى تعويدهم على تحمل المسؤولية والعمل كحريق .. لم يكن هناك أفضل من الرياضة .

كون صديقنا من رجاله فريقين للعب الكرة الطائرة .. ومن خلال المباريات كان يلاحظهم ويصنفهم .. فمنهم من كان يستطيع تحمل المسؤولية وآخر سلبى والثالث انتحارى .. والرابع شديد الاعتزاز بنفسه .. وهكذا . خلال اسبوعين .. أصبح الرجال يكونون فريقاً متجانساً يعرف امكانيات كل منهم بدقة .

استخدم صديقنا طريقة أخرى لفتح حوارات مشتركة .. وهى دعوتهم لمشاهدة أفلام سينمائية .. وادهشته طريقة تلقيهم لموضوع الفيلم بعضهم كان لا يستطيع استيعاب أى معنى .. والبعض كان يستوعب جزءاً ما وآخرون كانوا يستطون ما يحدث على الشاشة على حياتهم الخاصة .

وكان هو يحلل لهم الفيلم ويلفت نظرهم الى بعض النقاط التى غفلوا عنها وفى بعض الأحيان يناقشهم فى امكانية تغيير القصة .

وانتشرت اخبار صديقنا فى الكتيبة .. بعضهم كان يقول انه يضيع وقته وآخرون كانوا ينتقدون تفاعله عن برامج التدريب .. اما الجنود والصف ضباط فلقد شعروا بتعاطف معه .. حاول كثيرون الاقتراب منه .

أما قائد الكتيبة ورغم شكوى باقى الضباط المستمرة انتقادا لسلوك صديقنا فقد تركه ليكمل خطته .. كل ما علق به أن ذكره بأن موعد تفتيش هيئة التدريب سيحل بعد شهر .. وأن عليه أن يكون مستعداً لاستقبالها .

وبدأ صديقنا بعد أن تكونت بينه وبين جنوده علاقة ودودة أن ينتقل لمرحلة تالية وهى التدريب العملى واختار ضرب النار .

فى ميدان ضرب النار خلف الكتيبة وبكبيات الطلقات الزائدة التى لم تستخدم فى التدريب وتم استهلاكها على الورق فقط .

كان هناك ستة عشر رجلاً يتدربون .. بدأوا بالطرق التقليدية .. ولكن كانت النتيجة مخيبة للآمال .

وظل صديقنا يراقب أسباب الفشل .. فوجد أن بعضهم يخاف البندقية والبعض الآخر يتوقى الهزة المرتدة من البندقية بعد إطلاقها .. وآخرون يغمضون أعينهم .. ولم يكن هناك وسيلة لعلاج ذلك الا أن يتعودوا جميعاً على السلاح .. وبدأوا يطلقون الرصاص فى الهواء ..

وعلى أهداف غير عسكرية كعلبة صفيح أو زجاجة أو قطعة من الخشب ..
بدأ بأهداف كبيرة ثم أصغر .. وقام بينهم تنافس حتى تعاونوا على
السلاح .. خلال ذلك كان يرشددهم اضبط على البندقية في كفك ..
اكنم نفسك اثناء الضرب افتح عينيك .. فليكن الهدف وسن نمل اللبانة
والمشقية على صف واحد وهكذا خلال اسبوع كانوا يستطيعون اجتياز
اختبار ضرب النار بامتياز . الخطوة التالية لذلك التدريب على اللياقة
البدنية .. طوابير الجرى .. واختراق الضاحية .. والتدريبات
السويدى .

كان صديقنا يهتم بغذاء جنوده .. كان يستلمه بنفسه من المطبخ
ويؤكد من ان كيته كافية ونظيفة .. ويهتم بمكان اقامتهم ويؤكد من أنه
مريح ومرتب ونظيف ومعنى به .. ولكن مع ذلك فان ثلاثة من جنوده
رغم ان مظهرهم الخارجى يوحى بالكمال لياقتهم الا انهم كانوا سرىمى
الشعب .

ذهب معهم الى العيادة الميدانية وهناك اكتشف ان احدهم مريض
بالاسكارى والآخرين بالبلهارسيا .. وكان لابد من علاجهم .

كان احدهم يهرب من العلاج .. خوفا من حقن الطرطريك .. كان
يقول ان ساعده يصيبه الورم في مكان الحقنة .

سال صديقنا .. فعلم ان بعض النقط من المادة المختون بها ان لم
تحقن في مكانها تتسبب في الورم .. وأن اهمال المرض هو السبب .

صادق المرض .. أوصاه على جنوده .. ومع ذلك فللجندى يتعل
بحجج واهية .. وكان لابد من الحزم .. تجاهله .. حرمة من مباريات
الكرة الطائرة ومن مشاهدة الأفلام .. وعاقبه .. اثبتت هذه الطريقة
ومفضل الجندى عذاب الحقن عن تجاهل قائده .

وهكذا أصبحت فصيلة صديقنا جاهزة لتلقى التدريب .

في معسكر خارج الكتبية .. كون نقط استطلاع .. حضرها جنوده
بأنفسهم ثم قسمهم لقسمين قسم للهجوم وآخر للدفاع .. ومن خلال
التدريب العملى كان من السهل فهم جميع التعبيرات النظرية .

ولم يعد صديقنا من الجبل الا وهو متأكد أن جنوده قد استوعبوا
تماما المهام التكتيكية لفصيلة الاستطلاع الهندسية في الهجوم والدفاع .

عندما عادت فصيلة صديقنا من الجبل .. كانوا قد أصبحوا رجالا
آخرين غير هؤلاء الذين حضروا للكتبية منذ شهرين .

كانوا يتحركون بثقة فى صفوف منظمة بخطوة سريعة مثل خطوة الصاعقة ويصبحون صيحات متوافقة فيملأون الفراغ الذى يحيط بكتيبتهم بأصوات رجال أصبحوا لائقين لأن يكونوا جنود فصيلة الاستطلاع الجديدة كما حلم بها قائد الكتيبة .

اصطفوا أمام مكتب القائد مشدودى الأجساد . مرموعى الرأس ممثلين ثقة كان منظرهم يبعث الى البهجة والحماس لدرجة أن أكثر من ضابط طمرت عيناه بالدموع وهو يشاهد صديقنا يجرى بخطوات متحمسة ثم يقف أمام القائد مشدودا يؤدى التحية العسكرية .

كانت المهام التالية أكثر سهولة . . تحريب الفصيلة على رص ورفع الألفام التعرف على الممرات . . مبادئ الاخفاء والتهويه .

لقد أصبحت العقول قادرة على تقبل المعلومات بسهولة أدهشت لجنة هيئة التحريب لدرجة أن فصيلة صديقنا من المستجدين كانت الفصيلة الأولى من بين فصائل كتائب مهندسى المنطقة الشرقية . وكان صديقنا أفضل قائد فصيلة .

كانت هذه التجربة المبكرة فى التعامل مع البشر هى التى شكلت أسلوب صديقنا فى الإدارة طبقها فى بناء سد حرض باليمن وفى سد نقص العمالة المدربة بشركة المااولات التى عمل بها بعد ذلك .

وكان دائماً ما ينصح مرموسيه بأن يعدوا الرجال لتنفيذ مهامهم ثم يوكلوها لهم وهم متأكدون أنهم سيؤدونها بالفضل الطرق .

عندما قص عليها تجربته مع جنود أول فصيلة يقودها ابتسمت غلقد كان ذلك هو ما فعلته بعد انفصالها عن زوجها . . كانت قد تحطمت . .

فقدت الثقة فى نفسها وفى البشر . . لقد اختارت أفضل اختيار لشريك حياتها حامل دكتوراه من أمريكا . . وقدمت له كل ما تستطيع زوجة أن تقدمه لرجل بعد أن حصرت دورها فى الحياة بأن تكون المرأة التى خلف العظيم .

وكان جزاءها أن تكون ثروة . . لم تشاركه فى نتائجها . . وضربها فى النهاية وأصبا أياها بالتذع الأوصاف . . لقد كان جزاءها أن تقصف أمام المحاكم تحاول إثبات اعتدائه عليها . . وتقص أدق تفاصيل حياتها

كان من الممكن أن تتوقع على نفسها فى منزل والدها منتظرة رجلا آخر يتحكم فيها . . ولكنهم نصحوها بأن تعمل لنفسى .

في تلك الأيام كانت الشركات الأجنبية قد بدأت تلجأ الى مصر ..
وكان هناك طلب متزايد على سكرتيرات يتقن الانجليزية .. توسط لها قريب
لتعمل في شركة امريكية .. بدأت السلم من اوله .. تعلمت الكتابة على
الالة الكتابة ثم التلكس .. ثم اكملت دراستها بالجامعة الأمريكية وبهرتها
الحياة مع الأجانب .. الانطلاق .. السهرات .. السفر للخارج ..
المرتب المرتفع .. الهدايا المستوردة .. ثم الحرية .. والعلاقات
المتعددة .

من خلال معاناة شديدة وانتقال من شركة لأخرى استطاعت في النهاية
أن تصبح مديرة مكتب شركتهما .

كان الليل قد انقصف .. والدموع قد جفت .. قبلته من خدية مكافأة
له على استماعه لها .. وغادرته .

الفصل السادس

أصبح جنود فصيلة الاستطلاع التى يقودها صديقنا مميزين بين جنود الكتيبة شمرهم من مظهرهم ونظافة ملابسهم ومن اعتزازهم وثقتهم بأنفسهم ومن حركتهم السريعة ونشاطهم ومن ضبطهم وربطهم العالى .. كانوا قد أحبوا قائدهم ووثقوا به .. وكان يبذلهم الحب والثقة .. فأصبحت علاقتهم مثلاً يحتذى به يثير غيرة الضباط ويجمع الصف ضباط والجنود حول صديقنا .

وكان النجاح يزيد حماسا . وحب الجنود يزيده رغبة فى خدمتهم وتحسين أحوالهم .. كون منهم فريقا للتشيل وآخر للفنساء والفكاهة وفى بعض الأحيان للرقص .. وقامت هذه الفرق بأعداد مسرح وأحياء حفلة انتهاء مدة تجنيد دفعة من الجنود نالت إعجاب ضباط الكتيبة وآخرين دعاهم القائد من قيادة الفرقة .. ثم كون فريقا لإصدار مجلة شهرية كانت تطبع على الرنيو .. ضم اليه عديدا من الشعراء والقصاصين ورساى الكاريكاتير .. وتشجرت مواهب لم يكن يتصور أن يجدها فى القوات المسلحة .

وانعكس هذا على علاقة قائد الكتيبة بصديقنا .. لقد ازدادت الثقة بينهما فأوكل اليه الاشراف على التوجيه المهنوى والخدمات الاجتماعية بجوار أعماله الأخرى .

كان صديقنا فى تقدم مستمر .. ان التفاف الصف ضباط والجنود حوله واحترام ثقافته له .. ساعده على أن يتعلم .. كان يسأل كثيرا ويقرأ كثيرا ويتعلم فى كل يوم جديدا سواء كان فى مهنته كضابط مهندس .. أو فى أسلوب التعامل البشرى .

حتى ذلك اليوم الذى علا فيه مع رئيس العمليات من العريش بعد ان قضى اجازته الميدانية بالقاهرة .. كان الآخر يعامله كما لو كان طفلا

صغيراً قد أخطأ وعليه مواجهة والده .. وكان صديقنا يتعامل مع الموقف بمنطق الذى لم يخطئ .

نحتى هذه اللحظات لم يكن يدرك ما يدور فى بلده .. لقد كان يتصور أن الثورة لازالت قائمة تدفع به وبكل شريف الى العمل لتحقيق أحلام الرفاهية والعدل .. كان قد صدق ما يدرسه عن فتاعة لجنوده فى طواير التوجيه المعنوى عن الحرية .. والديمقراطية .. والاستراكية .. والعدل .. لم يكن يتصور أن بلده تحكم حكما عسكريا بوليسيا وأن على البشر أن يخافوا من المعتقلات والسجون والمباحث والتعذيب .. ومن أين له أن يعلم ؟

إن أجهزة الاعلام لا تتحدث إلا عن الانتصارات وفى الشارع كانت كل الأفكار مطروحة فى كتب متباينة المنهج والاتجاه .. أما هو فندوره جندي من جنود الثورة الذين يعملون فى أمان تحت مظلة قيادة وطنية مخلصه غيرورة على مصلحة وطنه مثقلة بأعباء الصراع ضد قوى الرجعية والاستعمار .

كان قد حاول طول الطريق أن يشرح موقفه لرئيس العمليات ولكن الآخر زجره بعنف مشاعلا - هل كان من الواجب أن « ينجس » من لسانه أمام هذا الرجل الذى تم ترقيقه استثنائيا مرتين فى اليمن لوشياته بزملائه الذين كانوا يثرون ثروة عادية عن عدم جدوى ذهاب جيشنا لليمن وضياح الأرواح والعتاد والمصاريف .

لم تمض ساعات على وصولهما الكتبية حتى استدعاه قائدها .

قال له - يا ابنى أنا اليوم رائد .. وفى الثورة القادمة سأكون مقدما مرتبى سبعون جنوها فى مصر وأعيش فى شقة مؤسسه جيدا وسعيد فى حياتى وأنا غير مستعد لأن أنصل واتشحطط فى الشوارع علشان حته ملازم زيك مش عارف يمسك لسانه .. وعليه .. تترك عملك كضابط أمن وتوجيه معنوى وتسافر فوراً الى القسيمة لتعمل فى التجهيزات الميدانية لموقع العمليات وهذا اجراء مبعثى حتى أتأكد اذا كان قد ابغ المخابرات أم لا .

ثم أرفف وبالمنااسبة البقية فى حياتك قريبك اللواء توفى أمس .

كانت شمس أبريل العذائنة تنبىء عن انتهاء الشتاء وبداية فصل الربيع . وكان قد أحضر كرسيه وضمه فى صندوق العربة الزيل بجوار سريره ومرتبته وصندوقه الحديدى الذى يحتوى على مهماته .. كان جالسا فوق الكرسي يستمع الى موسيقى هادئة منبعثة من الراديو تبثها الاذاعة الاسرائيلية .

تضايق من اهتزازات الكرسي مفرد المرتبة على أرضية صندوق العربة وتمدد مستمتعا بالشمس والهواء والموسيقى .

كانت العربة متجهة الى القسيمة حيث نفاه قائد الكتيبة خوفا منه على مستقبله وكان يشمر بلذة تطهره من كل مشاكله واحزانه المتراكمة منذ الأمس يحاول أن يفلسف ما يدور حوله .

كانت النساء العربيات يرعين الغنم بهدوء .. وكن عند ملاحظتهن للعربة الحربية يدرن ظهورهن للطريق كى لا يشاهدن الجنود رغم ملابسهن الثقيلة وحجبهن التى يضعنها على وجوههن .

لقد كان مظهرهن غريبا على قاهرى عاش فى النصف الثانى من القرن العشرين حيث تخلصت النساء فى بلده من حجبهن منذ مدة طويلة .. وحيث أصبح ارتداؤه رمزا للتخلف .. حتى فى الاحياء الشعبية حيث كانت سائدة عادة ارتداء الملائة اللف والبرقع .

وشعر بالاشفاق عليهن .. فرغم حياتهن الشاقة ورغم سعيهن المستمر فى الأرض بحثا عن الرزق ومتطلبات الحياة البسيطة الا انهن يكبلن أنفسهن بملابس ثقيلة بالتاكيد تزيد عذابهن عذابا سواء من حرارة الجو او صموبة الحركة تذكر هذا المظهر بعد ذلك عندما كان فى طريقه من الحديدية الى حرض لنفلاء السد هناك .. لقد كانت النسوة اليبنيات يواجهن الجنود ونصفهن الأعلى عارى تماما من أى ملابس او اغطية بما فى ذلك الثديين وحتى أسفل البطن .

لقد كان يتصور أن الحجاب والملابس الثقيلة التى ترتديها نساء العرب فى سيناء سببها التخلف الحضارى .. ولكن هاهو تخلف حضارى آخر ترك أجساد النساء عاريات حتى الجذع .. وبالتالى فالامر يتصل بتقاليد خاصة بكل منطقة تنبع من تاريخها .

فالحجاب فى مصر انتشر بقوة بعد الاحتلال العثمانى .. حيث أصدر سليم الأول فرمانين احدهما يحرم على النساء الخروج الى الشارع كاشفات وجوههن وفى حالة خروج احدها .. تركب حمارا بالعكس وتزف فضيحتها فى حوارى القاهرة وأما فرمان الثانى فهو مصادرة جميع أراضي مصر لصالح السلطان . وللأسف خرجت المظاهرات فى الشوارع تدمو للسلطان المؤمن حامى الدين .

منذ ذلك العصر انتشر الحجاب فى مصر بقوة القانون وحسبت النساء فى بيوتهن بعد أن كن يمثلن قوة عمل هامة فى الانتاج القومى خاصة فى الريف .

وبمرور الزمن وبعد أن تغيرت القيم الاجتماعية والجمالية والانسانية
نتيجة الاحتلال تركى طويل .. تميزت الطبقات بحيث أصبحت الارستقراطية
والطبقات المتوسطة تتمسك بالحجاب .. والفلاحات خلعنه ليتمكن من
العمل فى الحقول وأصبح الحجاب رمزا ليسر الحال والانتفاء للارستقراطية
تتمسك به النساء قبل الرجال .

حتى سافر ارستقراطيو مصر الى أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى
والثانية واختلاطهم بالاوروبيات فى ذلك الوقت ونتيجة لنقص الرجال فى
أوروبا اثناء وبعد الحربين لانضمامهم الى الجيوش الحربية .. حلت
النساء مكانهم فى العمل خالعات الحجاب والملابس الثقيلة .. وتطورت
شخصياتهن باستقلالهن الاقتصادي وبهرت نساء أوروبا رجال الشرق ..
وتزايدت زيجات المصريين بالاوروبيات .

وتنبيهت المرأة المصرية للخطر الذى حاق بها .. فخلعن الحجاب فى
أوروبا ثم حرقنه فى ميناء الاسكندرية ثم لم يرتدنه لمدة طويلة .. وابتدت
الدعوة لخلع الحجاب كالنار فى الهشيم .. وكافحت المصرية .. تعلمت ..
تطورت عملت .. ارتدت ملابسها حسب تطور الملابس فى العالم المتحضر .

وأصبح الحجاب رمزا للتخلف حتى أن صديقنا وخلال رحلة عمره
وحتى تلك اللحظات لم يشهد أكثر من ثلاث أو أربع محجبات من الجدات .
وها هى الثورة تكمل المسيرة لتصبح السيدة وزيرة وعضوا بمجلس
الشعب ... ومهندسة وقاضية والأهم أن لها صوتا فى الانتخاب .

إن الفارق الحضارى الواسع بين وادى النيل وسيناء هو الفارق
بين سيدات مصر العاهلات المثققات ونساء سيناء اللاتى يقرن ظهورهن
لعربات الجنود . عندما ناقش أحد الصف ضباط الراكبين معه على ظهر
العربة فى ذلك .. أبترسم قائلا - لا تظلمهن لقد اعتدى عليهن أكثر من مرة
مجموعة من الجنود ولذلك فهن يخفن منهم .. ولا يطمئنن إلا اذا شاهدهن
ضابطا فى العربة . ثم أضاف - أنه الحرمان يا غندم فالجندي يأخذ أجازته
كل ستين يوما حضرات الضباط كل ثلاثة وعشرين .. وفى بعض الأحيان
تتسبب الجزاءات فى حرمان الجنود من أجازتهم ليستمر حرمانهم لثلاثة أو
أربعة شهور تدخل أحد الجنود فى الحديث بخيال أثاره الحرمان والكبت ..

— سمعت يا غندم أن فى مدن يصفرون امرأة كاوتش لكل ضابط
ونصف امرأة لكل جندي وكأثوا يملأونها بالمياه الدافئة ثم ينامون معها .

رد آخر — ولية كاوتش م جنبنا نسوان زى الرز فى اسرائيل بس
أحنا نتجدمن ونروح ناخذهم .

العربة تنجيه الى القسيمة .. عبر منطقة تسمى الحسنة حيث توجد نقطة مياه وطريق ضيق بين مرتفعين يرتفع باستمرار لافى ..
فيسبب فى ارتفاع صوت موتور العربة .. الطريق بعد ذلك ممتد على
جانبه سهول نسيحة من الرمال لا حياة فيها الا فى فترات متباعدة حيث
يتم مشاهدة جبل ومعه اعرابى او مجموعة من البدويات يرعى الغنم .

بالقرب من القسيمة تظهر الجبال ثانيا شامخة بالوان يعجز اى فنان
عن توضيحها فى لوحته تعكس ظلالا مختلفة لنتوءات رائعة كما لو كان شكلها
مثال متخصص .

سحره المكان .. لماذا لم يعمر اهل الوادى هذه المنطقة ان المياه
متوفرة والطبيعة معطاءة .. ولا ينقصها الا السواعد .. لو كانت هذه
العربة تحمل عمالا ومعدات للتعبير الم يكن افضل للانسانية .

ان المياه تنفجر تلقائيا من عين الجديرات مياه عذبة كمياه النيل ..
لماذا لو تدخل العلم الحديث فى البحث والتنقيب وحفر الابار وروى
هذه المساحات الشاسعة .. ولكننا نضيع عمرنا واموالنا فى صراعات
لا طائل خلفها ونترك الارض تصرخ طلبا للحياة .

شفت روحه تماما .. الشمس تميل للغروب تاركة الوانا رائعة على
جبال شامخة وسهول مهجورة .. والهواء يزداد برودة فيضم ملابسه على
جسده ليتوقى لسعة البرد .. وافكاره تعبه برده الى رومانسيته التى
كاد ان يتخلص منها خلال شهوره التى قضاه فى تدريب رجاله واعداد
الكتيبة للتتقى .

صدمه رد فعل قائد الكتيبة ورئيس العمليات لحديثه مع المتقدم الاسمر
تجعله يراجع قيمه وافكاره عن نقاء الثورة ونقاء القوات المسلحة .. انه
لازال يعيش فى نفس المستنقع الذى هرب منه فى الحياة المدنية .. ولكنه
الوجه الاخر الاكثر عذابا .. الخوف .. الرعب .. من اشباح غير
معروفة .. كرهب العربويات من جنود لا يعلمن اذا كان يصحبهم ضابط
ام لا . وقطع عليه تسلسل افكاره انحراف العربة من الطريق الاسفلتى
ثم دخولها فى مدق ترابى جعل الرمل الخفيف يتصاعد خلفها محدثا غمامة
من مواد دقيقة التصقت بكل جزء عارى من جسده ثم اخترفت ملابسه
الثقيلة لتكون غلالة من الاتربة تلتصق بجسده المندى بالعرق .

لقد وصلوا الى نهاية الرحلة .. مقر المأمورية التى عليها تجهيز
ثلاثة مواقع دفاعية لرئاسة الفرقة تستخدمها فى حالة الدفاع عن
سيناء .

استقبله نقيب أبيض صابت تدل ملامحه على انتمائه الى جنود
الغزاة الأتراك وضابط أسمر رفيع قادم من وسط الصعيد حاملا ملامح
جدوده قدماء المصريين استقبله بالأحضان فلقد كان أحد زملائه الذين
وزعتهم ادارة السلاح على الكتيبة معه .. أمر الجنود بتجهيز سرير
صديقنا ليشاركه خيمته كان الليل قد غطى الصحراء بملاءة سوداء
وأصبح من الصعب في غياب القمر ومنجزات المدنية التعرف على المكان.

وكان زميله سعيدا بحضوره فسيجد من يشاركه وحدته وان لم
يمنعه هذا من مداعبته .

استدعى الجندي المراسلة وأمره يحفر حفرة بعيدا عن خيام
الضباط ودفن قشر الفاكهة خوفا من الثعابين التي يجذبها رائحته .. ثم
تنظيف الأسرة جيدا والتأكد من خلوها من العقارب التي لدغت أحد الجنود
في اليوم السابق وانتفوه بصعوبة بعد نقله الى المستشفى .

كاد أن تزعجه مداعبات زميله لولا أن فأسها بعقله فسأله ..
وكيف يعيش كل هؤلاء بين الثعابين والعقارب .. رد عليه ضاحكا ..
ايه أنت م خفتش ؟

جلس كل منهما في سريره متقابلين .. قص صديقنا على زميله
أسباب نقله الى القسيمة .. واهتم الآخر بالجانب الخفى من القصة ..
لماذا خاف القائد ورئيس العمليات من مجلة الطليعة .. وما السر الذي
أهاج المقدم الأسمر عندما رأى أسماء الذين يحررون المجلة .

كانا كمرهقين يثامران لمرشة بعض الكتب الخارجية التي يخفيها
والدها عن أعينها .. كانا يودان أن يفهما .. ثم يقررا .. وكان هذا
هو موقف عديد من شباب جيلهما لقد استكملوا وعيهم في ظل ثورة طرقت
الانجليز والرجمية والخوف ولم يكونوا قد استوعبوا الخوف الجديد بعد
الذى كتمه عنهم الأكبر سنا .. لذلك فلقد كانوا مخاطرين مجاذمين يرتادون
أصعب البحور وأخطر الطرق بقوة نابغة من غفلة عما يحيطهم من شراك
ماتلة وهو الأمر الذى جعل هزيمة ٦٧ تصيبهم بهزة عنيفة أثرت في أترانهم
العقلى والعاطفى بعد ذلك .. وجعلت من السهل الانتقال من أقصى
اليسار الى أقصى اليمين في عصر الانفتاح وما صاحبه من مظاهر فجائية
غريبة على التطور الاجتماعى كهودة عجيد من الانسات والسيدات الى
الحجاب طوعا وتمزق أخريات في حفلات المجون التي اقامها رجال الانفتاح
الثلاثون من القرب وأمريكا .

لم يتصور هذا .. ان السيدة الجادة المحترمة التي عرفها في العمل
يمكنها ان تجلس على ساقى ذلك الأمريكى تقبله أمام الجميع .. وكأنها

تعلن على الملأ بفخر علاقتها بصاحب الشركة الأمريكى .. حقا كانت قد ابتلعت زجاجتى ويسكى على الأقل .. ولكن السكر ليس مبررا لما فعلت .

لم يكن صاحب الشركة هو أول صديق لها .. لقد مرت على عديد منهم خلال تنقلاتها من شركة لأخرى بعد انفصالها عن زوجها المتأرمك .. وكانت كلها بددت سام أكبر عدد من المفترين تقدمت الى أعلى فى السلم الوظيفى لشركات الانفتاح حتى أصبحت مديرة مكتب شركتهم وحتى أصبحت لها سلطات لا نهائية على العاملين من المصريين وبعض الأمريكين .

وحتى أصبح لديها عربة مرسيدس وشقة فاخرة .. وهدايا لا حصر لها ومرتب ابتدئى مرتفع يتضاعف بالمكافآت والحوافز ليرفع أرمعتها فى بنوك الانفتاح بشكل متصاعد لم يحلم ببلوغه هو نفسه عندما قرر أن يؤسس شركته الجديدة .

لم تكن فتاة كباريه من اللائى اضطرتهن حياتهن الى احترام البغاء خلال فترة الاحتلال الانجليزى لمصر .. ان الأخريات اضطرتهن ظروف الحياة الصعبة التى نتجت عن الحرب العالمية الثانية لاكتساب قوتهن عن طريق تقديم أنفسهن لجنود الاحتلال .

أما هى فقد كانت تستطيع ان تعمل فى شركة أمريكية انفتاحية دون تبذل ولكن الانفتاح لم يكن انفتاحا اقتصاديا فقط .. لقد كان سلوكا .. وعلاقات وتقاليد غزت بلدها مع كل دولار .. لقد انتشرت أفلام البورنو فى كل قرية ومعها قيم المبالاة الأمريكية التى فرضت نفسها على السلوك والذى أمتصته سيدتنا من خلال محاولاتها المستمرة لفهم الانسان الأمريكى لتعامل معه .

عندما رأت نظرات الدهشة فى عيني صديقنا صرخت بالعربية فى وجهه ماذا تريعون منى ؟ أتركونى أعيش حياتى .. هل ستتصرف مثل الببه اللئى كان مستعبدنى .. ؟ أنا حرة .. أنا حرة .. أنا حرة ..

الفصل السابع

ظهرت الشمس وتسللت أشعتها الحراء من فتحات الخيمة التي يسكنها الشابان ومع الفجر تنفست الصحراء بنسمات نقيات هاتمتش صديقتنا .. قفز من سريريه وغامر الخيمة يتعبد في جمال الطبيعة .. الجبال البنفسجية تلمع مع الأشعة المنعكسة على الصخور الملساء والوادي يمتد مسطحا تتخلله قباب صغيرة يداعبها الهواء فتطرد قليلا من رمالها على هيئة سحبات خفيفة والحركة بدأت تعب في المسكر الراقد في حضن السحر .

حياه جندي شاب يلف فوطة صفراء حول رأسه وأذنيه بابتسامة ودودة .. ثم اقترب منه عارضا خدماته بحب .

كان كل ما يحيطه يبعث على البهجة .. وشعر بالطمأنان غريب وهدهوء .. قدم جندي آخر يهرول .. فلقطد كان المكلف برعايتهما حاملا معه جركن مملئا بالمياه ليساعده في تنظيف نفسه .

كان يملك أسنانه بواسطة الفرشاة والمعجون ويتألم المكان (الذي نلى اليه) في ضوء الشمس .

حلق شعر ذقنه .. غسل وجهه .. ارتدى ملابس نظيفة .. واستعد لاستقبال يومه .

استدعى قائدا المأمورية زميله .. طلب منه أن يصاحب الكومبرسور لاصلاحه بالورشة ثم اختفى .

جال صديقتنا في المسكر بنون هف .. التقى برقيب أسمر حزين يطلق لحينه كان يعرفه أثناء تواجده بالكتيبة .. فهو شاعر .. ينظم قصائده بالعربية الفصحى وعلى المنهج القديم ثم يحررها — رغم أنها جيدة المستوى — بعد تلاوتها مباشرة .. فقد كان يمتاز بعزة نفس تمنعه من أن يقدم نفسه لمن لا يقدره .

رحب به .. سارا سويا .. كان الرقيب قد تبرع بتفسير ما يحدث حولها عندما لاحظ جهل الضابط بالموقف وتفرع الحديث بينهما فجلسا فوق ربوة تطل على المعسكر ليتلو الرقيب في لغة عربية سليمة وصوت قوى تصيدة من قصائده عن تجربته في حرب اليمن يطلس منها التشاؤم عندما عاتبه على المراره التي بتصينته .

انفجر الآخر منفثا عما يطويه داخله قائلا —

انتم تتصورون ان حربنا في اليمن عبارة عن نزهة عسكرية .. وانها في سبيل القيم العليا .. والاخوة المشتركة .. ولكن المهازل التي قام بها الضباط والجنود المصريون لا يمكن ان تقترب من المثل العليا ابدا .. احراق القرى والقتل الجماعي والتعذيب للأسرى .. لا يمكن ان يكون اخوة مشتركة .. ان التدمير لم يلحق بالشعب اليمني فقط ولكن أيضا بالجيش المصري .. لقد تفتت الجيش بشكل لا يمكن تصوره وتضاربت الأوامر لدرجة اننا نحن ضفار الصف ضباط كنا نعجب من الفوضى غير المحكومة .

ثم اكمل مدلا — هل تتصور سيادتك ان فصيلة مهندسين مثل فصيلتنا هذه تصدر لها الأوامر بالهجوم على نقطة في الجبل كما لو كنا مشاة .. لقد مات نصف جنود الفصيلة لأنهم لم يدربوا على واجبات المشاة .. هل تتصور اننى كونت عصابة من جنود السرية لسرقة التعيين .. لقد أوكلوا الينا مهمة انشاء طريق جديد وتركونا مع معدائنا بدون أى طعام لمدة طويلة كان الضباط يأكلون في ميزات ضباط الوحدات المختلطة القريبة من الطريق على امتداد تقدمه .. ونحن لم يفكر أى منهم في اننا نحتاج لوقود لنعمل اضطربت لسرقة الدقيق والطعام وحفرت حفرة ضخمة تحت الخيمة دفنت فيها المسروق واسسنا مطبخا خاصا لنا .. لاطعام الجنود .. ولم يسألنا أبدا الضباط من أين نأى بطعامنا .

حضر أحد الصف ضباط يستأذن في ايقاف العمل لكي يتناول الجنود ايطارهم الذى وصل لقوته من كتيبة الصاعقة المحققين عليها ناذن لهم .

أكمل الرقيب لصديقنا .. لقد كان اهتمام الضباط .. ثم تردد قليلا وأضاف والصف ضباط والجنود هو أسعار البضائع في سوق الملح .. وأسعار استبدال الدولارات بالريال اليمني .. كان الجندي يأكل ويدخن ويعيش على حساب الجيش وكل « بكشة » (مليم يمنى) يحصل عليها يحولها الى معدات كهربائية أو ملابس أو أى بضائع يستطيع بيعها في مصر بأضعاف ثمنها .

سرح ببصره قليلا ثم اضاف لقد كانت مهزلة .. ثم اصفر وجهه ووقف مرتبكا ناظرا تجاه قول من السيارات الجيب المخصصة للقيادة وهمس بصوت متحشرج قائم الفرقة .

هبط صديقنا من فوق التبة واتجه الى المكان الذى توقفت فيه العربات ليجد عميدا ومعه مجموعة من الضباط .. كان سائق أحد البلدوزرات قد ترك افطاره وقفز الى معدته يديرها .. وحدث هرج بين الجنود الذين يتناولون طعامهم .

وصالح العميد في صديقنا — لماذا لا تعملون — ؟ يبدأ العمل عندها نحضر .

أجاب صديقنا ببرود .

— اننا نعمل من السادسة صباحا .. الآن فترة راحة لتناول الافطار الذى وصل لتوه ..

ثم اضاف بصوت منخفض — لقد أعطيتهم الاوامر بالتوقف .
علق أحد الضباط المتعلقين حول العميد —

— اذا كان الامر هكذا .. فلماذا أمرتهم بالعودة للعمل عندما رأيتنا

رد صديقنا باستفزاز — اننا لم اصغر الاوامر ببده العمل .. انما هو رعب سائق البلدوزر من العربات الجيب .

اقتنع العميد بتسريعه في اللوم واتجه الى الحفر التى اعدتها السرية لتتركب الملاجىء .. ووقف امام احداها وسأل — هل هذا ملجأى .. ؟
رد صديقنا — أنا حضرت أمس فقط وقائد المأمورية يمر على الاعمال الاخرى .

تجاهله العميد وسأل سؤالا آخر — هل المدخل من هنا ؟

صسمت .

— هل هو ملجأ خفيف أم ثقيل .. ؟
وعندها وجد أن الآخر لا يرد عاد الى هياجه .

— أنت شغلتك أياه .

— مهندس .. يا فندم .

رد بضراوة — أنت ولا حصلت حتى عسكرى .. اذهب لاحضار قائد المأمورية ..

تركة مندهشا .. فالمفروض أن يفهم ما معنى حضوره أمس فقط . . وكانت تتبعه تعليقات باقى الضباط عن انحلاله فهو لم يؤد التحية العسكرية ولا يحترم الرتب الأكبر . . وعن جهله أيضا فهو لا يعرف ما فى الموقع .

أنقذه حضور قائد الكتيبة . . الذى قابله العميد شاكيا له من ضابطه الصغير المنحل .

سأله قائد الكتيبة عن قائد المأمورية . .

فرد أنه لا يعرف أين ذهب ؟؟

تعجب القائد — فالآخر يعلم بقدمهم ومع ذلك لم ينتظرهم ولم يلتق الصفيير . .

جلس بعيدا عنهم منزعجا . . يفكر فى الأسباب التى جعلت قائد المأمورية يتصرف على هذا النحو .

اقترب منه الرقيب الشاعر وكان يرقب الأحداث من بعد .

قال مسريا عنه — هكذا هم دائما . . يتصورون القيادة صراخا .
أبتسم صديقنا .

رد الآخر بهجوم لا يتناسب مع الموقف — وستتعلم أيضا أنت هذا . .
لقد كانوا جميعا مثلك عندما حضروا لأول مرة .

وتعلم صديقنا الصراخ بأسرع مما يتوقع شاعرنا .

كان يقف وزميله فوق ربوة يراقبان الشمس فى غروبها وكان كل منهما يقص على الآخر أحداث يومه . . وكان صديقنا ينتقد قائد المأمورية الذى هرب من مواجهة ضباط القيادة لتأخره فى تنفيذ البرنامج فترك ضابطا صغيرا لمواجهة جهله. عندما حضر جندى معه ورقة صغيرة . . عندها قرأها صديقنا ثار غضبا وطواها ثم دسها فى جيبه وأمر الجندى بالانصراف .

كانت الورقة تحتوى على أمر من قائد المأمورية للصغيرين بحفر ثلاثة ملاجئ بالأبعاد المطلوبة ثخيرا وتكسيرا وحفرا . . وكان يقف بعيدا عنهما بمائة متر فقط . . أى يمكنه أن يحدثهما فيما يريد . . وبدون أوراق وأمضاء بالمعلومية وخلافه .

عندما وصل الجندى حتى القائد . . سمع صديقنا صياحه وتوعده للجندى بالضرب فى حالة عدم العودة بالورقة موقعا عليها من الضابطين .

وهنا حقق صديقنا نبوءة الرقيب الشاعر .. لقد صاح في الجندي
العائد بصوت أعلى من قائد المأمورية بل شرع في ضربه تنفيذا عن ضيقه .
في الصباح لم يستيقظ صديقنا في السادسة مثل زميله .. وتركه قائد
المأمورية متد كان يعلم أن القائد سيحضر ثانيا في ذلك اليوم .
وحضر القائد .. واستمع الى شكوى قائد المأمورية من صديقنا .

زاره في خيمته .

— سألته عن سبب تأخره في النوم ..

رد الآخر — مريض .

سألته القائد عن مرضه ..

رد الآخر بخبث — مرض سياسي .

ضحك القائد فلقد كان هذا التعبير شائعا في تلك الايام وبصوت
يتخلله احساس أبوى دافئ خاطب صديقنا .

— يا بنى يجب أن تكون مرنا مثل الشجرة .. تنحني مع العاصفة
لتنقف ثانيا ثابتة لا تكن جامدا فتكسر ولا لنا فتعصر .. كل ما أطلبه منك
المرونة .

ان قائد المأمورية رغم ما يبدو عليه من عنف الا انه طيب .. وماحدث
امس لم يكن ضدك .. لقد كان ضدي أنا .. ولكنه ليست لديه الشجاعة
لواجهتى .. عموما لو لم تعمل معى في الكتيبة ولو لم اعرف قدراتك
لكان لى حساب آخر معك .

يا بنى لا تتصور أن هذا العالم أبيض أو أسود .. هناك رماديات
بدرجات مختلفة وهى الصفة الغالبة علينا جميعا .. ان ما ورطنا فيه
خلال مناقشات قطار العريش .. وردود أفعالك مع سيادة العميد ومع
قائد المأمورية لا تتناسب ابدا مع ذكائك الإجتماعى في التعامل مع الجنود
والصف ضباط . يكتيك ضربة واحدة بما نعلنه معك عقب وشاية المقدم
الأسير .. وسنعطيك فرصة أخرى .. ستعمل منفصلا في تجهيز الموقع
الخلفى وستكون مسئولاً أمامى عن تطور العمل .. على أن ينتهى خلال
شهر واحد .. هل سمعت .. !

كان عليه أن يجهز خلال ساعتين فقط مطالبه ويتنهم مهمته .. ويرحل
الى الموقع الجديد مستقلا عن قائد المأمورية .. قبل أن يرحل قائد الكتيبة

سارع في نشاط تجاه الرقيب الشاعر .. يستشير .. الذى جهز
له كل الطلبات والكشوف .

صدق القائد على الكشوف والطلبات ثم أصطحبه الى الموقع الجديد حدد له المهام المطلوبة منه بدقة وأستبح الى أسئلته .. ثم غادره متنهيا له التوفيق وهكذا فعل تماما قائد الكتيبة عندما أوكل اليه انشاء سد حرض في اليمن فقد ذهب معه الى الموقع .. بقى في خيمته عاريا الا من ملابسه الداخلية لمدة اسبوع يتابع تطور العمل ويناقشه وزميله في المشاكل التي تعترضهما .. ويقترح الحلول .. حتى تأكد من أن العمل يسير في تطوره الطبيعي .. فعاد الى الحديدة ولم يشاهدها بعد ذلك الا اثناء الاحتفال بتحويل المياه .

لقد تولدت بينهما صداقة غريبة من نوع الصداقة التي قامت بين صديقنا ووالده في بداية حياته .. الحب والصراع أو كما يقول الماركسيون الوحدة والصراع .. كان والد صديقنا يقول لقد تعلمت من ابني ما لم اتعلمه من الآخرين .. عندما افتقدت روح العلاقة بيننا وحل محلها صراع دائم .. تسلفت الى حجرته وأستعرت بعضا من كتبه .. ومنها اكتشفت عوالم جديدة .. لم أكن اتصور انها قائمة في واقعنا .. قبل قراءتي في كتبه كنت لا اتخبل أن هناك من هو افضل من طه السباعي ولطفي المنفلوطي وأحمد شوقي .

ولكنني اكتشفت سلامة موسى ومحمد عبد الحليم عبد الله وعلى احمد باكثير ويوسف ادريس ونجيب محفوظ وابليبا أبو ماضي وصلاح عبد الصبور من خلال كتب ابني .. وبعدها اصيحت لنا لغة مشتركة .

وهكذا قال له قائد كتيبته بعد ذلك —

كنت أعرف أن خبرتك محدودة أن لم تكن لا شيء ولكن كان هناك ما يميزك هو علاقتك الطيبة بالصف ضباط والجنود .. وكنت أعرف أنهم يمكنهم تدريبك وأنت لن تتعالى على التعلم منهم .. عندما قرأت كشف الصف ضباط والجنود الذين اخترتهم تأكدت أنك سوف تنجح في أداء العمل، فلقد كانوا في حاجة الى وجوه جديدة ودم جديد يدفع الحماس بينهم في مقابل العنف والبيروقراطية التي كان يدير بهما قائد المأمورية العمل .. وكنت متأكدا أيضا أن المنافسة التي ستقوم بينك وبينه ستجعله يغير من طريقه في الإدارة ويتنازل عن جزء من صلفه حتى لا يفشل في تحقيق معدلاتك .. لقد استفدت منك كثيرا .

صعد صديقنا الى ربوة عالية في الموقع الجديد ليخطط العمل كان معه رفيقان أحدهما تعرفونه أنه الشاعر الناقد لحرب اليمن .. أما الآخر فقد كان المسئول عن تشغيل المعدات .. شارب من بورسعيد ذو شخصية مرحة وحازمة بحيث كانت له سطوة غريبة على الصف ضباط من سائقي المعدات .

كانوا يحترمونهم ويقدرونهم ويخافون منه .. وكان دائما يدافع عنهم وعن حقوقهم أمام الغير حتى ولو كان هذا الغير قائد سرية المعدات .. وويلهم منه اذا اخطأ أحدهم .. كان يديرهم بطريقة رب الصناعة القديم .. وكان كل ما يروجوه أحتراما متبادلا بينه وبين الضباط الذين يقودونه كى يسوس جنوده ويستخرج أقصى طاقة بهم فى العمل .. وكان قد سمع عن صديقنا وأحبه بدون أن يتعامل معه .. وهو الذى أوحى للشاعر بأن يضيف اسمه الى المأبورية حتى يتخلص من ضغط رئيسته .. ويحرجه بمعدل الانتاج التالى الذى قرر أن ينجزه فى الموقع المنفصل .

وهكذا كان لدى ثلاثتهم الحماس والرغبة فى تنفيذ عمل من نوع جديد .

أختار صديقنا مكانا ينصبون فيه خيام الجنود .. ولكن المخضرمين اعترضوا قالا أن هذا المكان سيردم بنتائج الحفر .. مماجاه الريح يجعلها تحمل نواتج النسف والحفر الى الخيام .. واقترحوا مكانا عكس اتجاه الريح والحفر فوافق صديقنا .

وحول الخيام ثرروا خندق لتنصب عليه ادبخانه ميدانية ومكانا لنوم الضباط وخيمة تستخدم كمكتب للإدارة ومخازن للمفرقات ومكانا لتجريح المعدات وصيانتها واصلاحها .

كانت الأملكن التى أختارها الضابط بمقاعدة وهنا اعترض الرقيب الشاعر قائلا :

أن معنى ذلك أننا سنضطر لتنظيم خدمتى حراسة مما سيرهق الجنود ويخفض انتاجهم فى اليوم التالى .

وبذلك قاربوا بين عناصر المعسكر بحيث تستطيع خدمة حراسة واحدة حراستهم ليلا .

واستفروا جميعا فى تنظيم المعسكر والاستحمام وغسيل الملابس حتى نهاية اليوم .

اجتمع بهما فى المساء .

قالا له — نرجوك الا تزعج نفسك بالعمل .. نحن سنقوم به بالكامل ولا حاجة لك للخروج من الخيمة .. « أصل الكلمة الخطوة بتأسر » .

رد عليهم بتواضع حقيقى — ولكننى أريد أن اتعلم فلا نحرمونى من هذه الفرصة .

قال الرقيب الشاعر بخبث — العفو يا فندم بس حضرتك ضابط .

اجاب الآخر متجاهلا خبثه — ضابط حقيتى ولكننى فى حاجة للتعلم ..
وساتعلم منكم جميعا حتى اصفر جندى .

ليلا تجمعوا فى خيمة الصف ضباط بعد يوم مرهق .. وتطرق الحديث
الى المواهب التى اكتشفها صديقنا فى الكتيبة .

وتبرع اكثر من فرد بتعريفه باشخاص لهم مواهب اخرى .. احدهم
يغنى وآخر يتلو التواشيح وثالث يرقص ..

وبدا يستعرض المواهب .. يشجعهم بالبتسامة خفيفة وتصفيق ..
وتجلت المواهب .. حتى العاشرة .

كانوا جميعا سعداء .. ولم يفضبوا حين نهبهم أن ساعة النوم قد
حانت فسيستيقظون مبكرا لبدء العمل .

فى طريقه الى خيمته كان احدهم يتأرن بينه وبين قائد المأمورية الذى
كان يتسلل الى خيامهم ومعه الكشاف لابسا حذاء كاوتش ليتأكد من
استتباب الامن وعدم التهريج فى المأمورية .

استيقظ فى السادسة صباحا ليجد جنديا واقفا امام خيمته .. فتحها
لف المدخل وربطه لثمتلىء بضوء الشمس والهواء النقي .. احضر من
داخلها فوطه وصابونة وجركن مياه .. بدأ يصب الماء على رأسه ليغسل
وجهه ويديه وأثناء تجفيفهما .. احضر من الداخل الافرول وشرابا نظيفا
والحذاء لعله بقطمة من القماش وانتظره حتى حلق ذقنه ثم ساعده فى
ارتداء ملابس .

أخذ ملابس النوم رتبها ثم علقها .

سأله .. من الذى كلفك بهذا العمل ؟

رد .. بأن الرقيب المسئول عن المعدات أرسله لمساعدته .

وجد الرقيب الشاعر قد جمع الجنود وسلمهم معدات التخريم
والتنجير وأن الرقيب الميكانيكى قد جهز الكومبرسور واستعد للعمل وأن
البلدوزر قد بدأ يطلق ايدانا بتسفيله ..

كان الشاعر حليق الذقن يتنسم على غير عادته .

قال لصديقنا بحب — صباح الخير يا قندم لملك استرحت فى النوم ،

اجاب الآخر بود — شكرا — ماذا سنعمل الآن ؟

كان يمكن سماع دقات قلبه من آخر مكان بالمعسكر .. لقد كانت
تجربته الأولى .. أن يكون على قمة هرم المسؤولية .. ولم يكن يعرف من

اين يبدأ كان التحدى يدفعه .. ولكن عدم الخبرة تعرقله .. لقد فكر كثيرا خلال ليلة امس .. ترى ماذا يستطيع ان يفعل .. وتصور بشكل منطقى خطوات العمل تخريم الأرض .. حشوها بالمفرقعات .. تفجير العبوات .. ازالته بالبلاذوزر كان يحاول ان يجهد ذهنه ليتذكر الأبعاد المناسبة بين خرم وآخر وأطولها لتعطى العمق المطلوب من التفجير .. كانت هناك معادلات معقدة تختلف من نوع أرض لأخرى ومن نوع مفرقعات لأخرى ومن طريقة نسف لأخرى .. وتاه .. وتمنى لو أن مهندس المقاولين الذى عليه فى العريش كان معه .

رد الآخر - قلت لسيادتك استرح ونحن سنقوم بكل العمل .. حدد لنا سيادتك مكان الملاجئ والباقي علينا .

وقرر ان يبدأ من حيث انتهوا .. فليتركهم ينفذون العمل بنفس الطرق التى تعودوا عليها .. وخلال العمل قد يستطيع تطويره .

وأصبحت هذه وسيلته للتعرف على الأعمال كلها بدأ من جديد .. الانتظار والمراقبة .. ثم النقد والتطوير .. وهو الأمر الذى لم يظن اليه رغم بساطته كثيرون .

فقد لاحظ بعد ذلك أن أى مسئول أو قائد يتولى قيادة جديدة .. يبدأ بهدم كل ما تم قبله .. ثم يفرض وجهة نظره التى لا تكتمل أبدا اذ يهدمها من يأتى بعده .. قد يكون ذلك بسبب الثقة الزائدة فى النفس والتى افتتدها صديقا فى بداية عمله بالقوات المسلحة .. وقد يكون لاختلاف وجهات النظر السياسية بين قائد وآخر .. وقد يكون احساس المسئول بأن فرصته فى البقاء فى منصبه محدودة وعليه أن يترك بصماته .. ولكن صديقتنا تعلم من مأمورية انشاء الملاجئ بالقسيمة أن يكمل البناء ويطوره بدلا من أن يبدأ التجارب من جديد .

بدأ الأفراد يعملون بحماس خلية النحل .. كما لو كانت خيوط غير مرئية تحركهم .. كل منهم يعرف مهمته جيدا .

الملاجئ يخطط مكانه بواسطة الشرائط والجير .. الأخرام يحدد مكانها بحيث تفجر دائرة قطرها متر .. الخراطيم تتركب فى الكومبرسور .. الشواكيش تتركب فى الطرف الآخر .. جنديان يتبادلان استخدام الشاكوش الواحد فى التخريم .. البنت يتم استبدالها حسب الأعماق المطلوب تخريمها .

تبادل صديقتنا الحديث مع الجنود .. كان يسأل كلا منهم عن طبيعة عمله فيجيب بفهم وكان رقيبهم ينظر اليهم بفخر .

كان الرقيب الميكانيكى منهمكا فى اعطاء التعليمات لسائق البلادوزر .. الذى يرتشف الشاى ويدخن سيجارة ويستمع الى رئيسه باهتمام .

عندما لمح صديقنا رمى سيجارته على الأرض وحياءه بود .
سأله .. هل أرسلت جنديا لخيمتي ؟
رد الآخر — نعم يا فنديم .

— لماذا ؟

ليساعد سيادتك .

— ألم يكن له عمل سيتعطل .

— وهل ستبقى سيادتك من غير مراسلة .

— ولما لا .. ؟؟

— مش ممكن طبعا .. لقد عملت بالقوات المسلحة منذ خمسة عشر
عاما ولم أر أو أسمع أن ضابطا يمكنه أن يعيش بدون مراسلة .. من الذى
سيغسل ملابسك ويحافظ عليها ويرتب سريرك ويصب عليك الماء .
قال الآخر بتردد — لقد تعلمت كل هذا فى الكلية الحربية .
— ميخلصناش يافنديم .. سيادتك واضح انك ابن ناس .. وكلنا
نخدمك بعينينا .

كان ضميره يؤنبه لا يمكن ان يعطل قوة عمل ويحجزها بجواره لكى
يصب عليه الماء صباحا .. وفى نفس الوقت لم يجرؤ على تغيير نمط حياتهم
بشكل مفاجيء .

وجاء الحل من الجندي نفسه .. فقد تطوع ان يساعده صباحا ..
ثم يقوم بدوره مثل باقى الجنود خلال اليوم .

كان يتكلم معهم ويلاحظ الشواكيش والبنط وهى تشق الأرض
لتحفر أسطوانة رفيعة فى الصخر .

اكتشف ان سرعة اختراقها للأرض عالية فى البداية .. ثم تواجهها
مقاومة بعد ذلك فتتخفص السرعة .. وبالتالي فالطبقات الاولى من الأرض
لا تحتاج لتفجير .

وكان يلاحظ البلدوزر وهو يعد أماكن حفر الخيام لقد كانت سرعته
عالية وتصل الى أعماق كبيرة .

عندما نقل ملاحظاته لمساعديه واقتراحه بأن يبدؤوا الحفر بواسطة
البلدوزر حتى الطبقات الصلبة التى يفجرونها بالفرقعات .. لم تلتق
قبولهما .. ولكنها وافقتا على اجراء التجربة أرضاء له .

كلان التخريم يستغرق ثلاث ساعات واعداد الحفرة للنسف تستغرق نصف ساعة وكان النسف والتطهير يستغرق ساعة أخرى .

وكانت الحفرة الواحدة للملجأ تحتاج للنسف على مرتين أى ثمانية ساعات بدأ يجرب طريقته . . استطاع البلدوزر أن يصل الى الأرض الصلبة بعد نصف ساعة . . واستغرق تخريم ونسف وتطهير الجزء المتبقى ثلاث ساعات ونصف . . وبالتالى وصلوا الى نفس النتيجة السابقة فى أربع ساعات . . أى كان بإمكانهم مضاعفة الإنتاجية .

كانت للتجربة الجديدة فعل السحر فى نفوس جميع الأفراد . . لقد كان واضحا الفرق بين الطريقتين .:

كان صديقنا سعيدا أن أصبح له دور فى تقدم العمل . . وكان الرقيبان أكثر سعادة . . لقد وجدوا قيادة تستطيع تطوير العمل . . اما الجنود فلقد اكتشفوا من الوهلة الأولى أن صديقنا ليس بالضابط المؤدب الذى يعاملهم معاملة انسانية فحسب بل أيضا قيادة تستطيع دفع مجلة الانتاج . .

وأحتفلوا جميعا فى المساء بانتصارهم لقد أنجزوا حفر ثلاثة ملاجئ بدلا من ملجأ واحد ونصف . . وهم نصف قوة المأمورية فقط . . انهم لم ينجزوا ابدا بكامل قوتهم أكثر من ملجأين يوميا .

تجمعوا فى خيمة الصف ضباط وبدأوا يضحكون من المواقف التى حدثت خلال اليوم . . كانوا جميعا يتكلمون ببساطة وحب . . حتى فاجأه رقيب السرية بأطباق الطعام التى وصلتهم . . لقد كان فولا بكبة قليلة وعسلا أسود تستطيع هيبز رائحة الحموضة فيه من على بعد .

سأله — هل من الممكن أن يتناول انسان مثل هذا الطعام ؟

ولم يجد صديقنا المبررا لأن يدافع عن القوات المسلحة .

رد — لا .

— هذا هو ما أحضروه لنا كى نأكله .

غلى الدم فى عروق صديقنا . . لقد كانت تجربة جديدة عليه . . كيف يتصرف ؟

لاذ بالصمت . . وعاد الى خيمته ليجد طعامه . . أرزا ولحما وخضارا وفاكهة .

سأل الجندي المتطوع بخدمته من الذى أحضر الطعام . .

رد الآخر - من كتيبة الصاعقة المجاورة فنحن ملحقون عليها .
في الصباح وبعد أن اطمأن على سير العمل .. وبعد أن اكتشف أن افطار
الجنود هو نفس عشاءهم .. تسلل من المكان وذهب الى كتيبة الصاعقة
وقابل قائدها .

وبعد أن شرح له مدى الجهد الذي يبذله جنوده .. ثم قلة الطعام
ورداعته استدعى القائد جندى المراسلة وسأله عن عشاءه وأعطاه ..
فاكتشف أن جنوده قد تناولوا أصنافا أخرى من الطعام .

استدعى رقيب المطبخ .. واجهه بالفارق بين طعام الملحقات (أى
جنود المهندسين) وبين طعام جنوده فتعظم .. ثم قال انها أوامر رئيس
الشئون الإدارية .. وظهر السبب .

لقد كان هناك عجز في عهدة رئيس الشئون الإدارية .. وكان لديه
بعض الأصناف التالفة .. فوجد لها فرصة لتسوية العجز والتخلص من
التالف بإرساله الى جنود الملحقات غير واضح في الاعتبار أن بينهم رقبيا
سرق التعيين في اليمن لأطعام جنوده .. وقائدا رومانسيا يقتله ظلم الإنسان
لأخيه الإنسان كان صراخ قائد الصاعقة يكاد يصل الى القاهرة .. لقد
ضبط متلبسا .

وتم عزل رقيب المطبخ وتأخر أجازة رئيس الشئون الإدارية ..
ودعوة صديقنا للغداء في ميز الضباط .. وتحسن طعام الغداء لجنود
المأهورة ..

على مائدة الغداء بدأ أحدهم بالحديث عن الذبابة التى وشعت في
الشوربة فأخرجها وابتص ما علق بها ثم رماها وتبعه آخر بالحديث عن
الخنفساء عندما تدخل النار وتطرتع مستقيضا في وصف العروق والحنايا
القذرة .

وكاد هو أن يفرغ ما في معدته .. ولكنه لاحظ نظراتهم له وترقبهم
لردود أفعاله وتذكر أن رجال الصاعقة لا هم لهم الا المياهاه بقشرة
احتياهم وأكلهم للشعابين والسحالي .. وقرر أن يفسد خطتهم ..

فتدخل في الحديث ليقص قصة مختلفة عن أحدهم الذى كان عليه
تنظيف مجرور واستفاض في وصف شكل الفضلات ورائحتها .. ثم قال أن
الرجل في هذه الأثناء عطش فشرب من المجرور .

وتعالت الضحكات .. ثم هلق صاحب الذبابة .

- الله يترفك يا أخى .. ده كلام يتقوله على الأكل ..

اعتذر قائد الكتيبة بأن عادتهم مع الضيوف على الأكل أن يكتفوا بقصة
الذبابة ولكن عدم مبالاته وأستبراره في الأكل جعلهم يتمادون .

في المساء كانوا قد اتوا حفر ثلاثة ملاجئ أخرى وأعدوا ملجأين للنسف المبكر صباحا .

كان صوت اسرائيل يذيع أغنية كلماتها يا حبيبي واحشني وروحي نيك وبقائى زمان .. وتنهّد الجالسون حول المذياع وبدأ كل منهم يقص أشجانه ثم غنى العريف سائق البلدوزر بمض التواشيح .. لقد كان مداحا محترفا قبل تجنيده كان له صوت قوى وحساسية فنية ورثها من أجداده قدماء المصريين مباشرة لم يستطع الزمن أن يغيرها هي أو الألحان التى يشدو بها .

في ماريوت عمر الخيام .. كانت نفحات بحيرة البجع تنساب بهدوء اللحن الذى يصاحب ظهور البجعة .. وكاد أن يرى البجعة البيضاء ترعرع عبر النوافذ العالية خوفا على أمرها ومنتذها .. ن أن يستسلم للبجعة السوداء أبنة الساحر .. فتفقد حبيبها وتفقد أملها في الحرية وكانت تجلس أمامه مباشرة على يمينها يسارها أمريكان حضرا لاستكمال دراسة العطاء الجديد الذى سيتقدمون به .

كان أحدهما يتصرف كالتاوموس لقد كان مندوب الشركة الانجليزية التى اشترت الشركة الأمريكية .. ومفاوضا منها بالادارة .. وكانت هي تحاول الاقتراب منه فلقد أصبح مركز السلطة الجديدة .. أما صديقنا فقد كان مستغزا منه لقد دار بينهما حوار منذ دقائق عن الرمل المفسول استغز كلهما .

سأله الانجليزى الأمريكى عن سعر الرمل المفسول في مصر ليضمنه دراسته ورد صديقنا .. بأنهم لا يستخدمون في مصر هذا الرمل المفسول .. بل يستخدمون الرمل الصحراوى .

قال الآخر — ولكن المواصفات تتطلب رملا مفسولا .

رد صديقنا — المواصفات خطأ .

ثار الآخر — حتى لو كانت خطأ أريد أن أعرف سعر الرمل المفسول .

رد الآخر بهدوء — هذه المواصفات جهزت للولايات المتحدة الأمريكية حيث يؤخذ الرمل من مصبات الأنهار أو شواطئ البحر وبالتالي يستلزم غسيله لتثقيته من الشوائب والمواصفات الأمريكية تصر على غسيلة ليلائم الخرسانة أما في مصر فنحن نستخدم رملا صحراويا خاليا من الشوائب وجميع الاساتذة والمعامل توصى بعدم غسيله .

أجاب الانجليزى فارغ المبر — ومع ذلك المطلوب منك السعر دون
فلسفة .

رد الآخر ببأس — اصف للسعر جنيته قينة الفسيل . . ولكن احذر
ستستخدم نصف مليون متر مكعب رمل أى أن سمرك سيزيد عن المنافسين
بنصف مليون جنيهه .

استنزت المناقشة كليهما . . اصبحا كنيكين فى حلبة صراع الديوك . .
كل منهما تفص ريشه وأستعد للهجوم .

وكانت هى ترتبهما بدهشة . . لم تكن تتصور أن هناك مصريا يجرؤ
على مصارعتهم .

حاولت أن تحرز مكسبا من الصراع لصالحها . . أقتربت من الانجليزى
عسى أن يشفع لها أقترابها منه لدى المالك الجديد . . هاجمت صديقنا
ووصفته بضيق الأنق رغم أنه فى الجانب الصحيح . . طلبت منه أن يتعلم
كيف يتعامل معهم .

همست — انظر لى اننى اكاد أن أعمل كخادمة لهم ولكن ذلك لمدة
محدودة هى فترة تواجدهم . . أما بعد رحيلهم فأنا ملكة متوجة لى جميع
السلطات . علينا أن نصبر قليلا ولا داعى للمعجھية الفارغة التى لن
تكسب من ورائها شيئا .

الفصل الثامن

ان لانعكسات اشعة الشمس في مصر سحرا خاصا .. في مراحلها المختلفة من الشروق حتى الغروب .

ولقد تنبه قهماء المصريين لهذا فكانت تصاحب حركة الشمس لديهم طقوس خاصة كانوا يعتقدون أن الشمس تولد مقيمة ثم تكبر وتقوى حتى منتصف النهار لتبدأ في الضعف حتى تموت في المغرب .. لتسقط في المياه المقدسة وترتد لها الحياة في اليوم التالي مع الشروق .

وكانوا يتصورون أن في كل مرحلة من مراحل حياتها القصيرة تتعرض للآلهة الشر تحاول أن تخنقها .. وليقوا الشمس من عدوها كانوا يقومون بحرق البخور وتلاوة الأدعية والسحر خمس مرات في اليوم .

في الفجر والظهر وما بين الظهر والمغرب وفي المغرب وما بعد المغرب حتى يكتمل سقوطها في المياه المقدسة وكان يقوم بهذه الطقوس كهنة متخصصون يرصد بمضهم حركة الآلهان حورس وآمون .. وينادى على زملائه عندما يصل الى المكان المحدد للقيام بالطقوس .. وترسب ذلك الاحترام والحب في نفوس أحفادهم ومنهم صديقنا فقد كان يزاول طقوسا خاصة به لرؤية الشمس والاستمتاع بأشعاعاتها وتأثيرها على الموجودات حوله .. خلاصة في فترة الغروب .

في ذلك اليوم كان رئيس العمليات قد مر عليهم وأندهش من السرعة التي أنجزوا بها العمل .. وأمر بتزويدهم بالملاجئ لكي يركبوا في العنبر المعدة لذلك .

عندما شكر صديقنا .. استدعى الصف ضباط والجنود وأرجع لهم الفضل في تنفيذ المهمة على أكمل وجه .

لم يتعود رئيس العمليات على هذا السلوك فأختلى به في خيمته
بنصحه .

قال - أرجو ألا يكون العناد مع قائد المأمورية أو حتى الرغبة في
النجاح مبررا لتفعل هذا . !!

اندهش صديقنا لقد كان أخر ما يتوقع سماعه .

أكمل الآخر - أن جلوسك يوميا بين الجند وتبسطك معهم والتهريج
يقلل من مكانتك كضابط . اليوم يجلسون معك . باكر ينادونك باسمك
بعد ذلك لا ينفذون أوامرك وتصل في النهاية لضربك .

لا تضحك فهذه تجارب حدثت فعلا في الجيش . أمس مثلا كانت
هناك محاكمة لضابط ورقيب تضاربا .

طظ في الشغل اذا كائن على حساب مكانتك كضابط أرجو أن تتعلم
من قائد المأمورية .

كان كونشرتو الأبوا والأوركسترا لهايدن ينبعث من المذيع . كانت
تذيعه إذاعة لندن . وكان قد استرخى تماما مع النفحات المتتالية المترابطة
للأبوا ردا على اللحن الأساسي الذي عزفته الأوركسترا . وكان يتأمل
الشمس في غروبها وتطن في رأسه كلمات رئيس العمليات . عندما فوجيء
بزميله يهزه . لقد عاد من أجازته وانتزه فرصة انتهاء العمل فاستأن
لزيارته في موثعه . كان يحمل له مفاجأة . كتابا عن الماركسية اسمه
« أصول الفلسفة الماركسية » لقد بحث عنه حتى وجده في مكتبة بوسط
المدينة تسمى « مكتبة الشرق » متخصصة في بيع الكتب الشيوعية .

قال له انه قد التهم الفصل الأول عن المادية الجدلية وانه كلام علمي
يعجب لماذا يخافون منه أو يهاجمونه .

كانت الأبوا لازالت تصارع الأوركسترا وكان واضحا انها قد انتصرت
لقد رقت الى أقصى درجة . ورقمت معها مشاعره حتى انه لم يستطع
التحكم في صموه . كان قلبه ينخلع خلعا . يفتز الى اعلى كما لو كان
يرغب في التوحد مع اللحن أو أن يستبقه الى أقصى درجة يملا أذنيه .

وكان يضغط على عينيه يحاول استيطاب كل لحظة من لحظات العزف
عندما بدأ زميله يلخص له ما قرا .

قال بشكل مفاجيء - كل شيء مرتبط ببعضه تمام الارتباط بمعنى ان كل ما فى الكون من جزئيات مادية او معنوية مرتبط كل منهما بالآخر يؤثر فيه ويتأثر به .. وهو فى حالة حركة مستمرة هذه الحركة سببها تراكبات كمية بطيئة يعقبها تغير نوعى سريع .. وان هذه التراكبات تحدث من خلال صراع الأضداد .. كل شيء يحمل نقيضه بصارعه .. وعن طريق التراكبات الكمية البطيئة لكلا النقيضين يحدث تغير نوعى لتثبيت بداخله التناقضات ثانيا لتتصارع .

بمعنى ان الحياة فى حالة وحدة وصراع .

كانت ثقلة سريعة لم يستمد لها صديقنا .. حاول ان يلتفت انبهاه الى السحر الذى حولهما .. الشمس .. الصحراء .. الأبوا .. والأوركسترا .

ولكن الآخر كان قد شغله اكتشافه عن اى شيء .

كان يتكلم بسرعة - أنظر انه قانون الحياة الحقيقى .. وهو صحيح على المواد الجامدة كما انه صحيح على مستوى الحياة والشكر .

الحركة يا صديقى من خلال الوحدة والصراع .. التراكم الكمى ثم التغير النوعى .. هل تعرف ما معنى هذا خذ مثلا قدرا من الماء فوق النار هناك صراع بين البرودة والحرارة يحدث تراكم حرارى يعقبه تغير نوعى الماء يتحول الى بخار .. يحدث تراكم برودة .. يعقبه تغير نوعى .. الماء يتحول الى ثلج .. وهكذا حياتنا داخل جسم الإنسان هناك صراع بين الموت والحياة .. يحدث تراكم كمى للضعف يعقبه الموت .. يحدث تراكم كمى للقوى يعقبه نمو وانتقال الطفل الى شاب فرجل .. نكهل .. الا ترى كان رد فعل صديقنا فاترا مما خفض حساس زميله ولكنه ترك الكتاب جواره ورحل سريعا .

جاءت الملاجىء وتم تركيبها وتنظيفها بالخيش والردم عليها وتركيب الهوايات والأبواب وأخفاؤها .. فى وقت قياسي .. ولم يغير صديقنا علاقته بجنوده ولم يضر به أحدهم .

وكان لابد من الاعتراف بأنه قد نجح ومجموعة العمل التى يقودها .

كان القائد قد تأكد بأن المقدم الأسير لم يوش بصغيره بعد ..
تناقش معه بطريقته لقد داعب انتهازيته فأفهمه أن الصغير قريب لعدد من
اللواءات المهيمن بالقوات المسلحة .. أو بمعنى آخر ليس كل الطير من
يؤكل لحمه .. وبأنه قد عاقبه بإرساله الى القسسية .. وأقنعه بأن يترك
الامر له ليعيد تربيته .. وكان القائد لا يخفى إعجابه بصغيرنا .. بل
ينقده لذلك فلقد أعاده الى مقر الكتبية توطئة لأن يقوم بأجازته الميدانية .

قطار الحرب يقوم من محطة الأبطال في السادسة صباحا وكان
عليهم أن يسافروا من مقر الكتبية في الثانية صباحا حتى يستطيعوا اللحاق
به . كان الضباط والجنود يحملون لفافات كثيرة أشتروها من غزوة ورفح ..
أطقم صيني خلاطات .. ملابس مختلفة .. علب كيبوت أناناس ..
ثياب شب زنوبة أشياء غريبة يهتم بها كل منهم حسب امكانياته المادية ولم
يكن مع صاحبنا الا حقيبة بها ملابس متسخة سبيلي بها والختة .

كان بجواره ضابط مهندس تصادف انه كان قائد الرقيب الشاعر
في اليمن حاولا قضاء الوقت بالمناقشة .. بدأت بمأمرية القسسية ثم
ثم انتقلت للرقيب الشاعر . قال الضابط — ان الرقيب الشاعر ممتاز
ومشط .. ولكن عيبه لسانه انه يتكلم كثيرا .. ويحرض الجنود على
السرقة .. لقد سرقوا في اليمن معزة .. وصفيحة سمن وشوال رز
وشوال حقيق .. وجعل موقفهم سيئا للغاية .. وكاد أن يحاكمه قائد
اللواء .. وبدلا من أن يعتذر تبجح قائلا :

« المساك جعانه نعمل ايه غير اننا نسرق . »

كاد صديقنا ينجر من لسانه .. لكنه تذكر درس الاجازة السابقة.
ولكنه لم يمنع نفسه من التفكير .. ماذا كان يفعل وهو يرى جنوده
جوعى ؟ لقد قال عمر بن الخطاب .. لا حد على سارق في مجاعة .. !!
انه لم يسرق الا اكل هو وجنوده .. لم تعجبه سجادة مثلا في مدخل
ميز الضباط في ص .. اء فلها ووضعها في عربته وركب بها الطائرة ليسافر
الى مصر لولا انه لحقوا به في اخر لحظة كما فعل زميل لهما مشهورة
قصته ومحروم من الذهب اللين كجزاء .

كان الآخر قد استرخى في الكرسي المريح واستسلم لتكيف الهواء
فنام . وكان هنا ضابط يقرأ مجلة جنسية تنشر الصور العارية وتتحدث
عن فضائح ممثلات السينما .. ظل يذم صورة الغلاف لمثلة عارية ..
وبفكر ترى كم من الجنهات تنكسبها هذه العاريات لثاء حياة لغريزة دافئة .
وكم من الملايم يكسبها رقيب أو جندي في الجيش لقاء حصة مهلكة وأكل

عن . ووجد نفسه يتقاد في استنتاجاته . له حق الرتيب يسرق الخبز والضابط يسرق المسجدة ومدير الاسكان يأخذ الرشوة . هناك قانون عجيب يحكم هذه الحياة .

كان هناك شجار بين مفتش الجمارك وأحد الضباط الذى أحضر معه خمسين شرابا (كروان دويل استيك) المفتش يريد جمراتها والضابط يصبر على انها للاستعمال الشخصى .

استيقظ زميله على الشجار . وتعجب عندما عرف القصة . . لماذا لم يفرقها على الجنود ثم يلماها منهم بعد مضي المفتش .

وأرتبك الضباط كل منهم يحاول أن يخفى ممتلكاته وعاد النقاش بين مفتش الجمرات وضابط آخر يدعى انه يحمل نصف طقم أطباق صينى والمفتش يصبر على انه طقم كامل .

عندما فتح حقيبة ملابس صديقنا . . ولم يجد فيها الا ملابس مستخدمة أندھش . . نظر اليه بشك . . لقد كان شاذا بينهم وانقلب المقاييس كما لو كان الطبيعى ان يحمل كل منهم بضائع يحاول تهريبها والشذوذ هو ان يحمل ملابسهم فقط وهكذا الحال دائما مع صديقنا فهو الشاذ رغم ان سلوكه فى الغالب المفترض أن يكون طبيعيا .

فى القنطرة تغير المنظر قليلا . . اولاد وينات فى السادسة عشر تقريبا يجرون فى القطار وكل منهم يحمل شوالا مبتلئا باللب . . يهربونه من القنطرة شرق الى القنطرة غرب . . كان الكمسارى ينظر لهم بخوف . . لقد ماتت عروبس فى عبر الورد امس وهى تتنز من القطار . . غلابة .

بعد الاسماعيلية كانت المناجاة . . معلمة ضخمة ترتدى كية هائلة من الذهب حول ساعديها وعنقها . . تمر فى القطار وخلفها رجلان معها كيسلان كبيران وهى تتنادى . . اشترى زنابيب . . اشترى شرابيات . . سجائر بلاطى غزة يا جدعان من جنيه لية . . مين عايز فلوس . . فلوس . . فلوس . . فلوس يارجالا . . فلوس .

هل استمعت الى السيوفونية ؟ لو تسارت . . ان صديقنا يعشقها بنفس القدر الذى احبها به الاخوان رجبانى فاستعاروا لحنها الرئيسى لاغنية من أغاني فيروز . . ولكنه كلما استمع لها لم يستطع ان يمتع نفسه من امرين . . اولهما ان يردد كلمات اغنية فيروز مع اللحن . . والثانى ان يذكر ان بمصر مائتين وخمسين الفا من المليونيرات . . منهم خمسون يمتلكون أكثر من ألف مليون جنيه .

كانت أصوات السيوفونية تآنى من بعد رقيقة تهدده وكان يستعد لان يردد كلمات الاغنية معها فى داخله — فهو لا يستطيع ان يفنى وضيف ندوة الغرفة التجارية الامريكية بتكلم — عندهم أوقفت الارقام المسزعة

استعادة الكلمات كان الآخر يقول ان حجم الدين الرسمي على مصر قد
تغز في سنوات مفعودة من عشرة مليارات جنيه الى عشرين مليارا .. وأن
السبب في ذلك (الدعم) ذلك المراث المرعب الذي تركه لنا الحكم المطلق

كان يقول انه لابد من اعتقال النزيه .. واعادة الأمور الى نصابها
لقد كان المتكلم مصريا مسئولا - لابد من الانتهاء من ما يسمى بمكاسب
العمال ..

فلنتركونا نتعامل مع عمالنا حسب قانون العرض والطلب ..
وبالتأكيد سيكون هذا أفضل لهم .. ان مليونين من المصريين يعملون في
السعودية والكويت وباقى الدول العربية ولا تظلمهم قوانين المكاسب العمالية
وهم سعداء . لابد من التخلص من اعباء الدعم .. ومجانية التعليم
التي أوصلتنا الى هذا الحد المرعب من تخريج ائلاف المتعلمين .

لابد من التخلص من القطاع العام فلقد ثبت عجزه عن خوض معركة
الانتاج وأغرقتنا ببضائع غالية الثمن منخفضة المستوى .

ان اول خطوات التقدم الاعتراف بالخطايا الماضية وفشل سياسة
الشمولية . بعد ان أصبحت الأحزاب جتيقة، ما الداعي لنسب العمال
والفلاحين في المجالس النيلية .. نحن في حاجة الى أفضل العناصر
المثقة لتقود سياستنا الخارجية والداخلية . كان يتكلم بلغة انجليزية
واضحة وكان المستمعون حوله في قاعة عابدة يهزون رؤوسهم اعجابا ..
وكان صديقنا قد أمابته التشهير .. كيف يحدث هذا ؟؟ ان اخواننا
العمال والفلاحين سيتفهمون هذا جيدا .. ان مصلحتهم مرتبطة بتقدم
بلدنا .. ولن يحدث التقدم الا اذا وثق الغرب في امتدادنا

علينا ان نعوم الجنيه المصرى لتصبح قيمته في السوق هي القيمة
الحيثية ولا دأى لدفن الرؤوس في التراب .

كان هناك اكثر من مسئول يستمعون اليه .. وكانت السيمفونية
٤٠ في نهايتها تكرر لحن أغنية فيروز الشهر .

وكانت تجلس الى جوار صديقنا تدفعه في ساقه ليستوعب ما يقوله
كاهنها كانت سعيدة .. انه يتأذى بمبادئها .. ما الذي يفهمه هؤلاء
العمال والفلاحون لكى يصبحوا أعضاء لمجلس الشعب .

وكان هناك امريكى يناقشه .. ولكن هل تعتقد ان العمال والفلاحين
سينتازلون عن حقوقهم بسهولة ام انك تدعو لوسيلة اخرى للتغيير ؟؟

ونهم المتحدث تصده — قال نحن مجتمع يؤمن بالتغيير السلمى ..
وفى يوم ما تغيرت سياستنا سلميا الى الاشتراكية او ما يسمونه اشتراكية
ومثلوا والآن علينا أن نغير سياستنا سلميا الى الرأسمالية الرشيـدة
لنصبح أكثر تمدنا وأكثر قدرة على مواكبة العصر .

قال له سائق البلدوزر الذى كان يدربه على قيادته أثناء مأمورية
التسيمة :

— لا تضغط مشغل الوقود حتى لا تحرق التيل .

سأله متعجبا وكيف أحرق التيل ؟!

— بالتحميل الأكثر من اللازم .. ثم أرفف لأمؤخذه نحن نحرق التيل
لقائد المأمورية مرة كل اسبوع .. بيشغلنا كالبهائم .. ونحن بشر ..
نريد أن نرتاح .. نحمل البابور على الآخر .. نتحرق التيل نأخذ اجازة
بومين ثلاثة حتى يحضروا مجموعة أخرى .

الفصل التاسع

عندما عاد صديقنا من أجازته .. كان قد قرأ الكتاب الذى أعطاه له زميله وهما يستمعان الى كونشرتو الأبوا والاوركسترا لهايندز .

وكان قد فطن به .. وخاصة بالمادية التاريخية وهى محاولة ماركس لتطبيق نظريته على التاريخ .

وكان قد بدأ مزاوله هواية غريبة .. وهى تحليل كل الظواهر المحيطة به سواء العقلية أو الاقتصادية أو الفنية أو المادية من خلال اكتشافه الغريب — المادية الجدلية والمادية التاريخية — وكان يتشوقا لرؤية زميله ليودعه سره بنفس الشوق الذى كان عليه الاخر يوم فاجاه على الربوه يتطلع للشمس فى غروبها . كان قائد الكتيبة قد كلف ضباطا آخرين بتولى مهام التوجيه المعنوى والأمن والشئون الاجتماعية .

ولم يبق له الا وظيفة قائد الاستطلاع .. وكان صديقنا سعيدا بعودته لرجاله .. كانت تجربة الشهر السابق قد أثرت فيه .. وكانوا لازالوا يتحدثون عن الانجاز الذى قام به مجربين باقى أفراد المجموعة من حقهم فى التكريم . استدعاه رئيس العمليات واوكل اليه مهمة الاشراف على كائنتين الوحدة .. ظهر الامتعاض على وجهه .. بعد كل دراساته هذه سيتحول الى بقال .. شعر الرجل بما يدور فى ذهنه فطمأنه .

هذه خدمة عامة يتولاها جميع الضباط بالدور والكائتين شئ خيوى فى الوحدة لخدمة الجنود وتلبية احتياجاتهم مع مكسب قليل يستخدم فى شراء الترفيه او مواد لتحسين الطعام .. وافراض اخرى كثيرة ستعربها عندما تزاول المهمة .

سال احد المصف ضباط الذين يثق فيهم عن طريقة ادرة اللنتين .
فلجاب — استبدل الجندى الذى يعمل به حاليا وسيتحسن الموقف . ولم
يعلق اكثر من ذلك تركه ليكتشف بنفسه .

استلم العمل من الضابط المكلف به فى الشهر السابق بعض اصناف
لم تبع من الشهور السابقة . . ونفود . . واذن بشراء بضائع بمائتى
جنيه بالاجل من المؤسسة الاقتصادية بالعريش .

سحب الجندى الذى يعمل بالكائنين الى العريش لشراء البضائع . .
أوصاه الجندى بشراء كميات كبيرة من السكر والشاي والسجائر لأنها
تدر أرباحا عالية . . ثم الجينة البيضاء وعدم شراء الحلاوة الحمصية
والسمسمية فلقد كان لديهما مخزون منها . . ثم المعليات وبعض البرتقال
والطاطم والبصل الأخضر الطازج .

فى الطريق اشتروى صديقنا من العريش صاج كثافة وآخر بقلاوة
من محل يحبره احد معارفه بسعر مخفض .

وسهر صديقنا فى ميز الجنود طول الليل يراقب حركة البيع . . كان
هناك اقبالا شديد على الكثافة والبلاوة .

وكان هناك أيضا ظاهرة غريبة هو انهدهاش الجنود من انخفاض
اسعار المبيعات رغم انه التزم بكشف الاسعار الذى سله له الضابط
السابق .

بدا يكتشف الحقيقة ويفهم تحذير الصف ضابط الذى طلب نصيحته
لقد كان الجندى يبيع بأسعار أعلى من التى حددتها قيادة الكتيبة وبالتالى
يتبقى لديه مائتى . . وهو يشتري سجائر لحسابه ويبيعها بأسعار أعلى
فيعترك لديه مائتى آخر . . بمعنى ان طاقة بيع السجائر فى الكتيبة مثلا
خمسون خرطوشة . . يشترون عشرين رسميا وثلاثين يبيعونها لحسابهم .

اكتشف أيضا ان كيلو السكر وباكوا الشاي يمكن ان ينتج منهما
ثلاثين كوبا من الشاي وهم يحاسبون الادارة على انها ينتج عشرين
كوبا فقط .

وبحسبة بسيطة يمكن تصور ان اكثر من نصف مكسب الكائنين
لا يتم تسليمه للادارة .

جمع صديقنا أطلته وشهوده وذهب الى قائد الكتيبة .

توتر قلبا . . ثم حقق في الأمر . . وتوالت الجرائم . . لقد كان الصف ضابط المسئول عن التعيين يبيع صفائح الجبن في الكانتين لحسابه .

وكان هناك عصابة من الصف ضباط تقنسم العائد الشهرى . . فلقد كان الضباط لكسلهم عادة ما يوكلون لهم ادارة الكانتين بدلا من الاشراف عليه .

وبدأت الفضائح تتسع . . لقد زجوا بضابط شرف ايضا فى المسئولية وكان نتيجة ذلك وهو الأمر الذى أدهش صديقنا أن القائد أوقف التحقيقات ولم يعاقب الا الجندى البائع بالسجن لمدة خمسة عشر يوما وتغييره .

شعر الجنود بما حدث فالأسعار انخفضت والجندى البائع نفير . . وزاد حماس صديقنا . . فانتهاز أول فرصة لسفر الضباط الى غزة . . وكانت بالدور حيث يحضر التوبيس من قيادة الفرقة ويمصطحب ضابطين فقط من كل وحدة كل يوم جمعة لشراء متطلباتهم التى أملتها عليهم زوجاتهم والتى عادة ما تستكمل بواسطة الخطابات .

وسافر صديقنا معهم . . لم تكن الكشوف التى يحملها تحتوى على أطعم برلون أو أركوبال أو ريكوردرات . . أو أوعية طهى بالبخار أو روائح أو مستحضرات تجميل . . أو ملابس داخلية . . وأما كانت زنايب وشبابشب كاوتشى وكعبوت وشرايات كراون وبعض الاقمشة التى تصلح للطرح السوداء وحجارة البطاريات . . أشياء يهتم بها الجنود ويشترونها من العريش بأسعار مرتفعة . . فقد كان الجنود والصف ضباط ممنوعين من الذهاب فى هذه الرحلات .

أخذ كل الحصيلة المتبيرة من الكانتين وعاد معه بضائع غريبة لم تبع فى كانتين وحدة من قبل . . وبالطبع بأسعار أقل من أسعارها فى العريش .

فى نهاية الشهر حقق الكانتين ثلاثة أضعاف ما يحققه شهريا .

وكانت الفرصة لقائد الكتيبة لتطين صغیرنا درساً جديداً .

قال — ما لم يفهمه زملاؤك أن الجندى هو الجيش ورعايته هى مهمتنا الرئيسية أنهم يطلبون الاوضاع يتصورون أن الجنود مهمتهم خدمة

الضباط ولذلك ترى جيش المراسلات في الميز والمطبخ وفي كل مكان يوجد به ضابط .. هذه بقايا الجيش الأرستقراطي القديم الذي لازالت قيمة تحكنا حتى اليوم .

جيش ما قبل ثورة ٥٢ والتي قامت للقضاء على قيمة وأفكاره .
لقد ألغت الثورة نظام البذل النقدي ونظام المراسلة وأصبح قانون التجنيد مطبقا على جميع أبناء مصر .

الا انه عمليا لا يحضر هنا الا أفقر فقراء مصر .. ولازلنا نعاملهم كما كان الإبراء يعاملون عبيدهم في الجيوش الأرستقراطية المناظرة للمجتمعات الاقطاعية رغم انتهاء الاقطاع .. الا تجد من ينادى، الآخر بلقب بك وباشا رغم إلغاء الألقاب .

ان التغييرات لا تتم بقوانين ومراسيم ولكن لابد من تغيير البناء التحتي اى نظم وعلاقات وطرق الانتاج ثم تغيير طبقا لها بعد ذلك الإبنية القوية التقاليد والعادات والقوانين والفن .

لقد سعدت بما فعلت في نوبة توليك الاشراف على الكانتين كما سعدت من قبل بما أنجزته في كل الاعمال التى أوكلت اليك .
وبالمناسبة لم أجد من هو أفضل منك لحضور دورة تدريب على التوجيه المعنوى في القاهرة لمدة شهرين .

سلمته خطابا من صاحب الشركة الأمريكى .. كان يبدى فيه استياءه للطريقة التى تعامل بها صديقنا مع المنعوب الانجليزى المفوض بإدارة شركتهم وكان الخطاب حادا خاليا من الذوق .. لقد كتب له أنه لم يتم بواجبه بتقديم المعلومات الكافية لندوبيهم وهو الأمر الذى يدفعون له من أجله مرتبه وأنه يود أن يجده متعاوننا بعد ذلك .

وكانت هى تكاد أن تعصف به فلقد أغضبهم .

لقد تجاوز المحذور .. وكان الآخر يبتسم .

فهو الذى وافق .. وهو الذى يقبض ،

وتبادت في تانيبه .. ألم أقل لك .. ماذا تستفيد من طريقتك في التعامل معهم انهم الأقوى بعلمهم وحضارتهم ونقودهم .. وهم قادرون على سحقنا ومسترى .

صاح فيها .. انهم لن يحصلوا على عمل بعد ذلك وهذا المعجوز المتصابى نصاب ولن يسمح له بأن يوقعه رئيسة لنصبه .

اندهشت تماما ان يكون هذا رايه في ولى نعمتهما .

اكمل بهدوء .. انه يشارك في هذه الشركة بنقود نصفها لشترى شركته الانجليزى والنصف الآخر بنقود صديقنا نفسه .. حقا هو دين عليه ولكنه سيسدده في يوم ما .. بالتالى فأى خسارة سيتحملها طرفان غير عجوزها المتصابى الذى لا يهتم الا بتخدير مندوب المالك الانجليزى .

كانت تعجب من منطقته نهى لا تراه الا مفلسا من بلد مفلسة غكيف تتصور ان صاحب الشركة المليونير الأمريكى يمكنه ان يستغل هذا المفلس كما كيف تتصور أيضا ان أمريكا يمكنها ان تستغل بلدها المفلسة .

ولم يجد جدوى من حوارها .. انتظر حتى حضر عجوزها وشرح له ما حدث وفل على صدق كلامه بوقفهم في العطاء لقد كانوا آخر الشركات المتقدمة كان سعرهم ضعف السعر الذى قبلهم ناهيا .

وتراجع المعجوز .. امتنر ولكنه لم يتخل عن طريقته الأمريكية عايره بانخفاض قدراته معددا ان مشاركى الشركات الاجنبية في مصر من مصريين هم من ذوى النفوذ والسلطة مثل - ابناء واخوة العبادات - ابناء سيد مرعى - ابناء حسن علام ابناء عثمان أحمد عثمان - ابناء محمود يونس - ابناء عدلى أيوب - ابناء عبد المنعم الصاوى .. وانهم بذلك يستطيعون توفير أعمال دائمة لمشاركيهم وكأنه يقول له (ابن مين انت في مصر حتى تناقشنا .. يكتيك مشاركتنا) .

ولكنه لم يقل هذا لقد كان اكثر فطنة .

استطرد قائلا - انه كان يمكنه مشاركة أحدهم أو من يماثله ولكنه فضل صديقنا لأنه يريد شريكا ذا فاعلية وليس ذا نفوذ فقط .

حقا لقد قضت الثورة على الاقطاع والرأسمالية واصبح الطريق مفتوحا امام الجميع للتنافس كل حسب قدرته وليس كل حسب اصوله .. ولكن حتى في الأيام الاولى للثورة حل ذوو الثقة محل ذوى الكفاءة .

ومع الانفتاح تزوج ابناء الحرس القديم مع ارسنقراطية ما قبل الثورة مع اثرياء الانتاح ليكونوا طبقة جديدة صعبة الاختراق .. مهيا حاول صديقنا أو من يشبهه .

الفصل المباشر

كان يشرف على الدورة مجموعة من شباب الضباط أصروا على أن تحقق أهدافها وعلى الالتزام بتنفيذ البرامج المعدة مسبقاً بجدية أدهشت صديقنا . لم تكن مأهولة بحضور الدورة نزهة أو مكافأة للراحة . . لقد كانت عملاً شاقاً حضور محاضرات وندوات ومناقشات مستمرة من التاسعة صباحاً وحتى الثالثة ظهراً حتى أن الدارسين تناقص عددهم بمرور الوقت ليصل إلى النصف . كان الهدف من الدورة إعداد قادة سياسيين لديهم قدر من القناعة يولد القدرة على الاقتناع .

واستعانوا لذلك بمجموعة من أساتذة الجامعات المتخصصين ليحاضروا في الاشتراكية العربية والديمقراطية والحرية وعلم النفس وطرق التوجه لأفراد القوات المسلحة .

في جو من الحرية غير المحدودة والتي أدهشت صديقنا دارت حوارات لا يمكن تصور حدوثها في القوات المسلحة قبيل النكسة .

سأل صديقنا الحاضر عن الاشتراكية العلمية وعلاقتها بالاشتراكية العربية وكان لازال متأثراً بها قرأه في كتاب صديقه .

وأجاب الآخر - بأنه لا يوجد اشتراكية علمية وأخرى غير علمية بل توجد صور مختلفة من الاشتراكيات تتناسب مع واقع وظروف كل قطر فالاشتراكية في السويد أو إنجلترا تختلف عن الاتحاد السوفيتي الذي يختلف عن الصين وأن الاشتراكية العربية تتميز بإيمانها وبإحلالها للنحالف محل الصراع وهما الاعتراضان الأساسيان على الماركسية إذا كنا نقصد بها الاشتراكية العلمية .

ولم يقتنع صديقنا . . ظهر ذلك على ملامحه دون أن يفصح فتجربة قطار العريش كانت لا تزال ماثلة أمامه .

ولكن الضابط الذى يدير الندوة شجعه لئلا يسأله بشكل مخفف .

ولكن فى حالة عدم الاعتراف بالصراع ماذا سيكون الموقف مع اعداء الثورة السابقين والحاليين والمستجدين الذين ينتظرون أول فرصة للتفرز على مكاسب تحالف قوى الشعب العاملة .. ؟

اجاب الضابط ان العزل السياسى ومحاصرة قوى الثورة المضادة عليه ان يكون هدفا لكل القوى الوطنية وعلى رأسها القوات المسلحة .. ان وظيفة القوات المسلحة ليس فقط حماية الوطن من الاخطار الخارجية بل وحماية مكاسبه الثورية .

اى ان الضابط اعترف بوجود الصراع ولكن لم يحدد كيف يمكن ادارته انه مجرد شعار لم يحدد ولم يفتبر فى الواقع اليومى .

فى الديمقراطية ركز المحاضر على نقد الديمقراطية الغربية وبين مدى زيفها فالأحزاب الغربية عبارة عن تنويعات على نفمة واحدة وهى سيطرة أصحاب رؤوس الأموال على مقدرات الشعوب .. أما الديمقراطية العربية فسلاحتها تحرير لقمة العيش وتوفير عمل شريف لكل قادر ومعايش مناسبة لغير القادر .

وان قوانين الحد الأدنى للأجور والمكاسب العمالية والتأمين الصحى والتأمينات الاجتماعية ومجانية التعليم والدمم للسلع الأساسية هى وسائل الثورة لأصلاح الهيكل الاجتماعى المختل منذ عصور الاقطاع عندما كان نصف باللائة من الشعب المصرى يتحكمون فى اقتصاده وينعمون بنصف أرضه وحقله .

ان تحالف قوى الشعب العاملة من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين ورأسمالية وطنية قادر على أرساء أسس ديمقراطية جديدة تستطيع الدفاع عن مصالحه وان نسبة الخمسين باللائة من العمال والفلاحين الواجب توفرها فى كل المجالس النيابية تعبر حقيقى عن توزيع القوى فى مصر .

فى هذه المرة كان المعارض ضابطا آخر افسح بوضوح عن وجهة نظره انه يستقبل العمال والفلاحين فى وحدته وهو يرى أن الامية والتخلف تجعلهم غير مؤهلين للدفاع عن وجهة نظرهم ومصالحهم .. بل بالعكس ان التجربة خلال المدة السابقة أفرزت طبقة جديدة هلامية من ملاهى

وعمال مجلس الشعب الذين انسلخوا عن طبقتهم واصبحوا يمثلون
ارستقراطية جاهله . وكان المحاضر كان ينتظر هذا السؤال . . لم ينجأ
به . . قال انا معك الى حد ما . . أن العمل النيابي عمل شاق ويحتاج
لمهارات وثقافات يجب اكتسابها وهذا لن يحدث الا بمرور الزمن . .
فالصلاح أو العاقل عديم الخبرة هذا يستطيع الدفاع جيدا عن مصالحه
ومصالح زملائه في المجالس المحلية الصغرى حيث الممثل السياسى
يؤتى نتائج مباشرة ويسهل مراقبته . . وفي هذه المجالس يستطيع
مجموعة من الناخبين تقويم وتدريب مندوبهم الذى يستطيع بعد تجربته
في المجالس الصغرى أن ينشط تجربته ويفنيها في المجالس المركزية . .
انه الزمن ومدى رغبة وقدرة المثقفين على التخلّى عن انانيهم وثمورهم
بالتفوق وتدريب كوادر حلفاتهم .

كانت المناقشات دائما ساخنة . . وكان جو الحرية في التعبير
والاعتراض يزيد بها سخونة وصحة جعلت صديقنا يراجع مواقف الشهور
السابقة .

لقد كان هناك انفصام حاد بين القيادة السياسية والقيادات
التنفيذية ان مجرد ذكر اسم لطفى الخولى اثار الدنيا واتعدها وذكر ماركس
والاتحاد السوفيتى والشيوعية هنا يطرح بكل بساطة وثقة .

ان القيادة السياسية فعلا في حاجة الى تنظيم مؤمن ينقل افكارها
ويناقشها في جو من الحرية الصحية وهو الامر الذى لم يملؤه الاتحاد
الاشتراكى الذى ضم بعض العناصر الانتهازية التى لا هدف لها الا
الاستفادة من الاقتراب من السلطة .

عندما عاد صديقنا الى كتيبه كان قد اقتنع بأهمية الحوار والحرية
وكان يشعر بانتعاش ناتج عن القناعة ببلىدى الثورة وخطها . . بل
كان يشمر بأن عليه دورا هاما وهو نقل هذه القناعة الى الآخرين رغم
جيوش الظلام التى تحاصر الثورة وتعطل انتفاعها .

ولكن هذا الحماس تبدد بعد مقابلته لتأيد كتيبه .

لقد سألته باهتمام عن الموضوعات التى درسها . . ناقشه فيها . .
علق على الأحداث ثم قال له ببرود :

انه ورغم التقرير المشرف الذى ارسلوه عنك ورغم انهم يوصون
بانك تصلح لتكون ضابط توجيه معنوى على مستوى الفرقة . . الا اننى لن
اعينك في هذه الوظيفة ثانيا .

صيت تليلا ثم اكمل (لقد سالوني في ادارة السلاح عن اخبار الضابط الشيوعي ؟)

ولم بجرؤ صديقنا على سؤاله عن رده فتد كان واضحا .

ثم اصدر له التعليمات باعداد نفسه للسفر الى ابى عجيبة للمساعدة في التجهيز الهندسى هناك .

صدر القانون رقم ٤٣ لعام ١٩٧٤ بعد الحرب مباشرة كان هدفه تشجيع المال العربى والاجنبى على الاستثمار فى مصر لانعاش الاقتصاد القومى بعد حروب عديدة .

فى هذا الوقت كان العرب قد استخدموا سلاح البترول فى مواجهة العدوان وارتفع سعر البرميل الخام الى ارقام خرافية فتجمع ثائض من اموال لديهم لم يحدث مثله فى التاريخ .

كانوا يستثمرونه فى الدول الغريبة . . وكان هدف القانون اجتذاب هذا المال عن طريق بعض الاعفاءات والتسهيلات . . كالاغفاء من الضرائب لمدة خمس سنوات والسماح بدخول وخروج العملة الصعبة والاعفاء من قوانين العمالة . . ولكن لم تشجع هذه التسهيلات تدفق الاموال .

لذلك تم تعديل القانون الاول بقانون آخر فى عام ١٩٧٧ برقم ٣٢ .

ومنذ ذلك الوقت بدأت شركات برؤوس اموال مصرية واجنبية تتكون تحت مظلته فى عام ٧٨ وصلت الى واحد وستين وفى عام ٨٢ اصبحت مائة وثلاث عشرة وفى نهاية ٨٣ ارتفعت الى مائة وخمسة وخمسين شركة .

لماذا اندفعت الشركات الاجنبية لتكوين شركات استثمار فى مصر .

لقد كانت أوروبا وأمريكا تمر بأزمة اقتصادية . . وبطالة عالية لم تحدث منذ الأزمة التى سبقت الحرب العالمية الثانية .

لقد صاحب التطور التكنولوجى من التشغيل عن بعد واستخدام الريموت (الانسان الآلى) ما يسمى بالنسج نطيقا . . زيادة فى الانتاج واحتياج اقل من العمالة . . وبالتالي استهلاك منخفض .

لقد زار صديقنا مصنعا على مساحة مائة فدان يعمل لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا ولا يديره اربعة افراد لمدة ست ساعات .. وباقى ساعات اليوم يعمل بدون اى مساعدة انبية .. وبدون احتياج الى اضاءة :

في المسانيا مثلا كانت هناك أزمة الائتراك .. الذين استوردوهم في الستينات واصبحوا عبئا عليهم بعد ذلك مليونان من الائتراك كانوا يسعون الى طردهم ليخففوا من أزمة البطالة في انجلترا .. كانت أزمة الهندود والباكستان .. في فرنسا أزمة الجزائريين وسكان شمال افريقيا .. في امريكا أزمة البورتوريكيين وجنوب شرق آسيا .

وهكذا حاولت أوروبا حل أزمتها الاقتصادية على حساب دول العالم الثالث كما حدث أيام الخديوى توفيق والخديوى اسماعيل .

وكما حدث أيام الخديويين حدث في عصر الانفتاح .. آلاف من المغامرين البيض قدموا الى مصر لاستنزاف ثرواتها واستنزاف اموال القروض التي منحتها دول أمريكا وأوروبا لمصر .. ثلاثون مليارا من الدولارات .. اشترطت الدول المقرضة أن تتفق بواسطة شركاتها ومواطنيها أى يعود كل دولار أو استرليني أو مارك الى أمريكى أو انجليزى أو الملتانى .

وغرق السوق بالسمع الاستهلاكية الجيد منها والخبيث .. سجاثر .. شابو .. صبغة شعر .. صابون .. نيكولاتة .. لسان .. أحذية .. ملابس .. روائح .. سيارات .. أجهزة تكييف .. ثلاجات .. لحوم محفوظة .. فراخ .. بيض حتى المياه استوردوها .. حتى العيش استوردوه .

كانت مائة وخمسة وخمسون شركة انتاحية تعمل في أعمال السمرة والانتاج الاستهلاكى بنوك — نفاقق — شركات تأمين — شركات مياه غازية — مستحضرات تجميل — مواد — بناء — مقارلات .

سمحت العولة للمصرى بان يتعامل بالدولار رسميا وفي السوق السوداء وارتفع سعره من أربعين قرشا الى ستين الى سبعين الى ثمانين الى مائة وخمسة وعشرين ومع ارتفاع سعر الدولار ينخفض الجنيه المصرى وتنخفض قيمته الشرائية .

وزادت المضاربات .. وارتفعت أسعار الأراشى .. بل هجر التلاحون الزراعة وجروا الأرض ليصنعوا منها الطوب الأحمر .. وتحول الريف الى

مجتمع مستهلك بدلا من مجتمع منتج وتزايد عدد الوكلاء التجاريين بشكل لم يسبق له مثيل وهاجر كل قادر على العمل للخارج .. ومن بقى أصابته لومة الاستهلاك .

.. كانت السلع المعروضة في المجال التجارية تزيد الصرع .. التلفزيون الملون الفيديو - العطور .. وكان ضيق ذات اليد يدفع البائعين .. ممن لم يهاجر أو يبيع قوة عمله في الدول العربية أو يعمل وكيلا تجاريا أو مندوبا سياحيا أو موظفا بشركة استثمار .. إلى أن يبيع بضاعة أخرى .. النفوذ .. والنفوذ كما يقول صديقنا يبدأ من جندي المرور حتى الذي يصدر على مشروع بهئات الملايين من الجنيهات .

وانتشرت الرشوة واستغلال النفوذ بشكل لا يمكن تصنيفه الا في بلاد العالم الثالث .. كذلك انتشر المهر وعم جميع الطبقات .. فكل واحدة لها زيونها الخاص .. الطبقات الدنيا للعرب .. والناطقات للانجليزية والفرنسية لرسل الانفتاح .

وتحولت القيم .. فمن الممكن أن يروج احدهم رسائل من الفراح الفاسدة أو الجبن الفاسد .. أو المخدرات .. ويموت العشرات .. وتلف حياة آلاف ويرتفع عدد المليونيرات يوما .. بعد يوم .. حتى يصل الى ربع مليون مليونير متهرب معظمهم من أداء الضرائب .

وامتلات القصور والمنازل والعشش بأفلام الجنس وحفلاته .. ولم يعد غريبا أن يقدم احدهم زوجته لذي منفعة .. بل لم يعد غريبا أن تدفع زوجة زوجها للرشوة واستغلال النفوذ .

.. لم يكن ذلك من أجل لقمة العيش ولكن من أجل للصرع الاستهلاكى . الجنيات والفواكه والمعلبات والبسكويت والكفير والسلعون المتخن .. وسهرة في الأندية الليلية وبلايس لا تستخدم الا مرات قليلة .

.. وارتفع مستوى المعيشة تضاعفت الاسعار عشرون مرة على الأقل .. ونشب غول الانفتاح مخالفه في كل قلب .. وفي كل بيت ..

وتغير صديقنا لما إذا ينجو من غول الانفتاح .. لا

تغيرت ملباسه .. إلا ما كان التي يرتلدها .. البشر الذين يتعامل معهم العزبة التي يقودها .. أهدافه .. حتى مفردات لفتته امتلات بكلمات

انجليزية . . لقد صار يقرأ الأدب الأمريكى ويشاهد الأفلام الأمريكية ويمضى أكثر وقته مع السيدة التى قادته خلال دروب الغابة المتشابكة .

كانت تقول له ان فرصة الحياة تانى مرة واحدة . . وان هناك مئات يحسدونه على حظه الباسم لاختيار الأمريكين له ولكن للأسف هو جامد . . اقل ليونة غير قادر على التكيف مع الوضع الجديد . . فى الحياة ثانون واحد . . ان لم تكن ذئبا اكلتك الفئاب . . وعليه ان يستخدم الى أقصى درجة كل ما وهبته الطبيعة من قدرات ومواهب لينتهاز الفرصة ويستثمرها .

كان الأمريكيون قد مضوا . . واصبحت ملكة متوجة فى شركتها . . وكانت تبحث عن تسليّة تستلبد منها .

سألته - لو اننا اتحدنا نستطيع ان نفعل ما نشاء . . نمتلك ما نشاء . . نسافر الى جزر اليهاما فى يخت خاص بنا . . نعيش فى أوروبا فوق جبال الالب . . نخالط أفضل البشر . . نصبح مليونيرات .

اقتربت منه . . شعر بحرارة انفاسها ورائحة عرقها المزوج بأنضل عطور باريس . . وشفتيها الملتهتين . . وغابا فى قبلة طويلة .

استقبلوه فى أبى عجيلة . . كانوا يعيدون تجهيزها هندسيا . . يتولون ان ابو عجيلة هى مركز سيناء ولقد استغرق لاحتلالها من الاسرائيليين اسبوعا فى عام ٥٦ وكانوا يعدونها لاحتلال حصار لا يقل عن شهرين .

كل بندقية فى الموقع لها دشمة خرسانية . . كل معدة عسكرية محصنة جيدا المياه فى خزانات تحت الأرض وكذلك الوقود والطعام . . كان العمل يجرى على قدم وساق .

وكانت سرية من كتيبته ملحقة على سرية اللواء الذى يحتل المنطقة تعمل فى هذا المكان منذ ثلاثة شهور .

وكان زميله الآخر الذى قدم معه لأول مرة يعمل فى هذه السرية منذ بدء تعيينه . . حيث علم منه ان دمنعهم قد تم توقيتها الى نقيب .

كان الواجب المكلفة به سريتهم هو ازالة حقول الألغام القديمة ورص بدلا منها على مسافة خمسمائة متر . . وكان عليه ان ينضم للعمل اعتبارا من اليوم التالى . . وكانت هذه تجربته الأولى مع الألغام وما يصاحبها من خوف تقليدى .

سألهم عن تسجيلات الحقول المطلوب ازالتها فقالوا ان التسجيلات ضاعت وفي نفس الوقت لا قيمة لها لان السيول جرفت الحقول وفيرت امكانها لقد أصبحت مأمورية اخطر مما توقع .. ان الحقول تحتوى على الالفام مضادة للديابات واخرى مضادة للأفراد ومعنى جرف السيول لها انهم قد يحتاجهم لقم مضاد للأفراد حيث لا يتوقعون .. وبالتالي تعريض عدد منهم للخطر .

امام الحقول التى كان واجبه ازالة الالفامها بطول كيلومترين وقف يتأمل .

ان ازالة الالفام البكيت المضادة للديابات عملية سهلة .. حتى لو رقد او خطا عليها احدهم .

ولكن المشكلة ازالة الالفام الشراييل المضادة للأفراد كان معهم مكتشف الالفام - جهاز يصدر اصواتا تنبئ بوجود معدن - .

وبدا رقيب العميلة فى استخدام المكتشف والتعامل مع الالفام المضادة للأفراد وباتى الجنود فى ازالة الالفام المضادة للديابات .. كانوا يعملون بحذر . ومع ازالة جزء من الحقل زادت جراتهم ... ثم تضاعف سرعتهم .

ثم اكتشفوا الطريقة التى رصت بها لقد كانت بدائية وساذجة .. وزادت جراءة صديقنا أصبح فى وسط الحقل بين جنوده .. عندما مر عليه قائد المأمورية أنه .. قال له ان اول غلطة فى المفرقات هى آخر غلطة وما يفعله هو تهوؤ وعليه أن يكون حذرا ويراعى تعليمات الأمن .

وهكذا صديقنا .. ينتقل بسهولة شديدة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار دون أى انذار .. لم تكن هذه طبيعته فقط ولكنها سمة من سمات طبيعته تتعامل بحذر شديد وخوف مع الأمور التى لا تتقنها ثم بالدفاع وتهوؤ بعد أن تتعلم .. وهو السر الذى جعل اغلب افراد طبقتة يتحولون من الاشتراكية العربية الى الرأسمالية الانتاحية فى مدة قصيرة .. !!

انتهوا من ازالة حقول الالفام وبدأوا فى رص الحقول الجديدة .. كان العمل يسير برتابة .. وكان قد بدأ يمل .. حتى مر عليهم قائد اللواء .. شجعه سلكه عن مهنته .. عندما عرف انه معمارى وينتم فى الحيكور طلب من قائد السرية أن يصطحبه معه الى مزر قيادة اللواء مساء ليناقشه فى موضوع هام .

أحضر لهما شيكولاتة من دولابه الخاص .. وطلب لهما قهوة .. ثم بدأ يناقشهما في سبب استدعائه لهما .

— أنا أحضرت من اليمن ثبوية بوية .. وعلايز أدهن الفيلا .. مش عارف إذا كانت الكمية ستكنى أم لا .. كذلك الألوان والذوق .. عليه رايك باباشمهندس (وليس يا سيادة النقيب) نمر على في مصر .

ثم سألته — انت أجازتك امتى ؟ .

رد الآخر — حضرت منذ أسبوع .

علاق القائد — طيب كويس انا أجازتى الأسبوع القادم يبقى سيادة النقيب يسمح لك وتنزل بدرى ثبوية وثبوت على في مصر تتخرج على البوية وتختار الألوان وتعرفنا بنقاش كويس وأبن حلال كدة مش شمات .. معندكش في الكمية نقاش كويس .

رد قائد السرية — عندنا يافندم بس مش من النوع اللى يصلح لفيلا سياطتك .

أجاب الآخر باستسلام — معلش .. الفالى برضه تنه نيه .. ثم اكمل خلاص خلتنا نشوفك باباشمهندس .. ابقي تعالى اتفدى معانا هنا في ميز الضباط كل يوم ثم نظر الى قائد السرية كما لو كان قد تذكر شيئاً هاماً وقال إلا حقيقى ليه بتبعتوا تاخدوا اكلكم في السرية أحسن ناكل كلنا مع بعض .

أجاب قائد السرية — ان شاء الله يافندم .

وهكذا أصبح صديقنا محل تكريم وترحيب في طول اللواء وعرضه نفى اليوم التالى عندهما ذهب للنفاء في ميز قيادة اللواء .. تام قائد اللواء من مكانه وسلم عليه وقال له ازيك باباشمهندس .

وبالطبع لم يمنع هذا أحدهم أن يهمس في أذنه :

حاسب على نفسك .. العميد حيموت ويجوز بنته لضابط مهندس .

الحر أصبح لا يطاق .. الشمس لا تمل من سكب طاقتها على أرض أبو عجيلة التى بدورها تعكسها على وجوههم وظهورهم حرارة .. فتتفصد الأجساد عرقا .. وفي وسط الصحراء ينبت حقل شعير أنضجت الشمس لها أصبحت سنبلة صفراء وحن قطافها .. أصحاب الحقل بأعلى الجبل يراقبون .. لقد كان عليه زرع حقل الغام في هذا المكان .. أمانة الحياة .. وبذر الدمار وتجزرت فيه رومانسيته القديمة .. ملأت عينيه بالدموع ولم يستطع أن يقف للاستدار ليجلس في العربة .. لحقه رقيب السرية .

قال له عندما سأله عن سبب تبعه .. فى وسط هذا الموت .. هذا الجفاف نبضت الحياة .. وأصبحت شسعرها هو أمل هؤلاء المراقبين ونحن نتقلعه لنحرهم منه .. بل ونحرهم من الأمل فى زراعة أخرى .

ضحك الرجل ثم اكتست وجهه لحة حزن عميقة .

قال — أبال لو حضرت حرب ٥٦ كنت عملت ايه .. كنا لا نجد الوقت لدفن اعز اصحتائنا .

استرسل — كنت فى هذه الكتيبة كان اسمها الاى السادس للمهندسين وكنا فى رفح .. انسحبت القوات .. ثم يصدرنا لثا الاوامر .. ولم نشعر الا والاسرائيليون فوق رؤوسنا — جرينا — مشيت على قدمي مائتى كيلو حتى وصلت الى القتال .. كان اءلطيارين يطاردوننا واحدا واحدا .. وكان العربان هؤلاء الذين تحزن من اجلهم يبيعون شربة الماء بالبندقية او الساعة او الجزمة وكم شاهدنا من جثث عفنة بطونها مفتوحة والحد ياكلها .

سكت قليلا ثم اكمل بحكمة — عموما لا تحزن باكرا سينزلون من فوق الجبل ويجمعونه انهم يراقبوننا ليعرفوا طريقة الرص .. وسوف يؤمنون الانعام .. ويوصلوا المشاعل حتى اسرائيل .. حقل الانعام بدون حراسة لا قيمة له .

وقفوا يراقبون الرص .. كانوا مجموعة قيادة الجيش ومعهم قائد اللواء ورئيس اركانه وقائد سرية المهندسين وصديقنا وزميله .. جاءوا للتفتيش على التحصينات الجديدة .. كان من بينهم مقدم مهندس .. عندما تعرف على صديقنا وزميله سألنا عن طريقة رصهم لحقول الانعام واماكنها .. ثم انفعل بدون مناسبة صائحا .. كل هذا كلام نارغ ان الطريقة التى يجهزون بها أبو عجيبة تعتبر مهزلة .

ضحك صديقنا وزميله .. مما زاده انفعالا .

قال — فى ٥٦ كانت التحصينات بنفس الشكل وهذا المر قالوا انه غير صالح لروور العربات .. ثم اشار الى المر واستكمل كلامه .

المر ده واصل حتى اسرائيل ورغم وعورته حضرت منه القوات فى ٥٦ .. والآن يعيدون نفس المنطق مع تأمينه بحقل الغام .. ما قيمة هذا الحقل لا اعرف !!

نضحك صديقنا انه نفس ما قاله رفيق السرية .

غضب الآخر ونظر الية معاتبا .

— ايه المستوى السيء ده .. القادة بتوعكم بيعلموكم ايه .. لماذا لا تتراون التاريخ .. يا بني اللي ميعرفش التاريخ لا يمكن أن يفهم اليوم ..
أو باكر خبيرة الحزب شهنها دم وأرواح .

سأله الضابط الصغير — وايه اللي ممكن يتعمل احسن من كده ..
ترك الركب كله وجلس على الأرض وبدأ يرسم خريطة لسيناء فوق
الرمل ..

— هنا مضايق التمدد والكونفلا وتمادة والحصنة .. على خط واحد .
— وهنا مضايق الجفجافة ومثلة وسدر على خط آخر .. لو أنسبنا
اهتمنا بالتحصينات والدفاع على طول هذين الخطين وتركنا سيناء كلها
بدون قوات الا نقط انذار واستطلاع وبعض الموانع الصناعتية اشكالا
للموانع الطبيعية فان النقط الحصينة التي ستنشأ عند المضايق ستنبع. تقدم
اي قوات لحين قيام قوات أخرى احتياطية بالاندفاع لعمل هجوم مضاد .

ما قيمة الأرض في المخرج .. لا قيمة لها .. القيمة الحقيقية
للانسان والمعدات .

ان النقط الحصينة ودوريات الاستطلاع سكتشف القوات المفرة وقد
تستطيع تعطيلها .. فاذا كان لدينا قوات موحدة سهلة الحركة نستطيع ان
ندفع بها في اتجاه المعركة الحقيقية .. وثمن هجوم مضاد واسترداد
الأرض ..

كان يشير الى الخريطة ويقول يمكن ان يكون هنا في الكيلو ١٦١ أو
العريش احتياطي تكتيكي .. ويمكن ان نضع هنا احتياطي تمبوي أو خلف
المضايق ان تفرقة القوات بهذا الشكل الكلاسيكي لا معنى له .. انه يربط
القوات بالأرض ويجعلها غنية سهلة التدمير .. أيا القوات المتجمعة في
احتياطات فيمكن بسهولة المناورة بها .

يئس من تعاطفها معه فكيف غابت هذه الافكار عن جهاز الاستراتيجي
والتكتيك في الجيش .

وتشعر هو بها يدور بخلد هيا فتال .. تعلمش هذا كلام للتاريخ لو
حدثت حرب أخرى فستكون نفس خطة آه لأنها لازالت صالحة مع هذه
الدفاعات الورقية .

ابتسم لهما وقل . . ستكونون الوثود لهذه الترهات وعليكما أن تقهما
ثم تركهما وعاد الى عربته غاضبا .

وصدقت نبوءة المقدم لقد استخدم الاسرائيليون نفس خطة ٥٦ . .
وسقطت الدفاعات الورقية في أيام قلائل . . وكان زملاء صديقنا وتودها . .
والاعجب أن اسرائيليين بعد احتلالهم لسيناء نفذوا خطته في الدفاع عنها
بعد زيادة الطرق الطولية والعرضية للمناورة .

في الغذاء بميز قيادة اللواء اختلى به رئيس الأركان لأمر هام جلس
صديقنا على طرف كرسيه كي يستمع الى ما يريد ويسرع بالخروج فلقد
كان معه قادة الجيش القادمون للتنشيش على التجهيزات والجلوس مع الرتب
الكبيرة عادة ما يكون محفونا بالأخطار .

كان احدهم يسأله عن نتيجة الدواء الجديد .

وكان رئيس الأركان له أسلوب مميز في الحديث فرد بخفة دم . :

انا يا بيه اخذت الابرتين من هنا وبقيت الالاي وأقول ياللى تجيب لى
الجماعة وانجروا جميعا فى الضحك . . علق —

ولاد الكلب دول متقدمين جدا فى مسائل الطب دى وانت عارف اخوك
مؤمن ومش بتاع هلس .

رد الآخر — اطلع من دول بتى بزمك م لافتش عليك واحدة كدة
ولا كدة .

تنبهوا، بعد هذا السؤال ان مهم ضابطا صغيرا . . فعلق صاحب
السؤال :

— همرك شفت يا شمهندس ناس عواجيز زينا بيقولوا الكلام ده .

تلعثم الآخر واحمر وجهه خجلا ولم تخرج الكلمات من فمه .

انقذه رئيس الأركان — يا أخى فى روسيا الضبط والربط مخالف تمام .

آخر انحلال لكن فى نفس الوقت اعلى ضبط وربط — وبدأ يقص مشهدا
لغت نظره :

— كما طالعين مناورة . . وكنت مرافقا لقائد لواء روسى . . كان الموعد
السادسة وصلنا قبل الموعد بربع ساعة لم نجد السائق . . اننا افكرت
زى عندنا . . ضربت له كلاكس عدة مرات لم يرد .

سألت قائد اللواء عن السائق .

نقال - زمانه جئى .. وتحت الحاحى نظر الى جندى يقف مسقدا على
الصور فى لا مبالاة يدخن وأشار له .. اى تعالى .. هز الجندى اكتافه
وقال : انتهت ورحيتى قتال له قائد اللواء .

— اريك رد الجندى بضيق .

— شىء هام ثم حضر .

سأله القائد — أين السائق ؟ .

امتمض الجندى ورد — سيأتى فى ميعاده .

ولم ينته الكلام حتى وجفنا السائق قد حضر وخطب على الكاوتش
للتأكد من نفخه وفتح الكابود تأكد من وجود المساء فى الرديراتير وقاس الزيت
وفتش على البنزين ثم ركب العربة وأدار المفتاح للتسخين .. فى السادسة
تماما بدأ التحرك فى اتجاهنا .. ثم علق :

شىء غريب رغم مظاهر عدم الضبط والربط بمفهومنا الا انه اعلى ضبط
وربط بمفهوم العمل .

عم الصمت لثوان قاطعه أحدهم قائلا .

— مش زى البهائم اللى عنقنا .

ومال العميد رئيس الأركان على صديقنا قائلا :

— والنبي يا بنى لما توصل كتيتك ابقى وصى الجزمجى بناكم يخلص
لى جوز البوت الجديد لانه اتأخر عنده وعاليز واسطة .

الفصل الحادى عشر

انتهى تجهيز الخط الدفاعى الاول وعادوا جميعا الى مقر الكتيبة .
والاول مرة تكتمل القوة (العدد) وكان العام التدريبى قد انتهى دون تدريب
السرايا جميعها كانت تؤدي اعمالا فى تجهيز الخط الدفاعى سواء فى التسيمة
أو أبو عجيله .

عقد قائد الكتيبة مؤتمرا للضباط .. ثم بدء فى عرض خطته للتدريب
تائلا : انتهى الوقت الذى كان يمكننا ان نتدرب فيه ولكننا استغفنا ايضا
نائناء العمل تعلم الجندى حفر ملجا وتركيبه ورص حقل الغام وازالة آخر
وبذلك نستطيع ان نعتد على ان الفترة السابقة قد غطت مهام التدريب
الابتدائى .

الذى ينقصنا اليوم بغض النظر عن تفتيش هيئة التدريب هو ان نتدرب
على واجب الحرب .. وما هو واجب الحرب لكتيبتنا .. عمل مفرزة تأمين
تحرك .. عمل مفرزة موانع متحركة .. فاذا تدربنا على مهام المفرزين على
مستوى الفصيلة وعلى مستوى السرية نكون بذلك قد استوعبنا الواجب الذى
ستقوم به الكتيبة فى المعركة .

كانت خطة القائد مادام الوقت قد ضاع فى انشاء خطوط الدفاع ..
فلنتدرب عمليا على واجبنا .

وهو بتدريبه للفصائل والسرايا سيطمئن على ان كل جندى قد ادى
مهمته على الاقل مرتين مرة فى تدريب الفصيلة واخرى فى تدريب السرية ..
وانه سيشاهد زملاءه يؤدون نفس المهمة اربع مرات اخرى .

ثم حدد أهدافا للسرايا والفصائل كما لو كانت فى المعركة .

تحولت الكتيبة الى خلية نحل .. تلمت كل فصيلة باداء المهمة التى حددت لها وكذا كل سرية وفي نهاية الشهر كان بمقدوره أن ينام مرتاح البال الى ان كل رجاله قد نهموا وتعبوا على واجبههم .. ويستطيعون القيام به اذا قامت الحرب .

انتقلت بعد ذلك الفرقة لدهشور بها فى ذلك كتيبة صحيحنا .. والاول مرة منذ بدء مفارقه بالسفر الى اسكان ومرافق سيناء يستقر فى القاهرة يمشى فيها بانتظام يتحول الى موظف يستقيظ صباحا ليحلق فتنه ويرتدى ملابسه وينتظر العربة التى تنقله الى مكان المعسكر .. حيث يجد مكتبه نظيفاً ومرشوشاً بالسء والفليت بواسطة المراسلة .. يبدل ملابسه يرتدى الامرول .. ويحضر طايرور الصباح يتمم ببضع كلمات محفوظة بملل .

— سرية صفا .

— سرية انتباه .

— تشكيل ملتوح مارش .

— اقلع الطاقية .

ويتحرك بين الطوابير يفتش على الجنود .

— شعرك طويل ليه تقيف .

— ذنك طويلة ليه حرمان خبيس وجمعة .

— ده منظر جندى بالقوات المسلحة .

— اوفرولك وسخ ومقطع ليه .

ولا ينتظر سباع التبرير أو الرد فهو يعرف انهم يستحقون صرف دفعة ملابس جديدة ولم تعرف بعد .

— البس الطاقية .

— تشكيل منضم مارش .

— سرية صفا .

— سرية انتباه ... عايز صوت الخطوة يهز المكاتب .

— سرية صفا انتباه .

— ويقف امام السرية منتظرا صوت رئيس العمليات .

ككتيبة صفها .. ككتيبة انتباه ... دور للتعليم فيلفتت الى رقيب أول السرية ويقول دور للتعلم .. ويتجه الى المكاتب .

وهناك حتماً يجد ضابطاً حزيناً أو سعيداً وتبدأ المناقشات حول حزنه أو سعادته وتتطرق لمغامرات اليوم السابق ويتحسّس أحدهم فينادي على المراسلة ياوادي فلان .. دور شاي (أي شاي للجميع) .

وبعد نصف ساعة يجلبه آخر ياوادي فلان دور تهوّة .

ويدخل صف ضابط حاملاً اليومية وكشوف الاجازات والتصاريح وتدور المناقشات .

— لا ياسيدي الوادي ده نزل الاسبوع الماضي .

— اصل امه ماتت .

— هي امه حتموت كام مرة .

— السرية محبوسة لغاية مينضفوا خيامهم .

— سيادة المقدم عايز سيافتك .

— مضيت دفتر النوباتجيات .

— هو كل يوم نوباتجية .

— عملت برنالهج التدريب .

— والبننت بعد م قرصتها عملت ايه .

— العسكري ميقدريش يتحكم في نفسه ببيول وهو واقف .

— وليه مشركهوش في القومسيون .

— لو كان له كوسة كان خرج بدون سبب .

وهكذا تصبح الساعة الثانية الا ربعا فيدخل جيش المراسلات لتنظيف الاحذية واخراج البذل وتعليق الاوغرولات .. وانتظار المعربات التي ستعود بهم .

وانقطعت الصلة بين الضباط والجنود الا فيما ندر .

المعسكر مقرر يملؤه الذباب .. الجنود بدون تدريب .. حلقات الكلام لا تنتهي وينتقل من الكتيبة عدد من الضباط وينضم لها عدد آخر .. ويستقبل احد زميليه لدراسة الدكتوراه في الاتحاد السوفيتي فتقبل استقالته .. وفجأة تنب الحياة في الكتيبة .. تفتش هيئة التدريب .. وتبدأ المؤتمرات .

فى مصر التفتيش مخالف لسيناء هنا يجب الاهتمام بوثائق وفصول
وميادين التدريب .. ويجب تلقين الجنود كما هائلا من المعلومات النظرية .

وتم توزيع المهام بينهم .. بالطبع عرفتم ما هى مهام صديقنا .

فصول التدريب واللوح .. ونظافة المعسكر واصلاحه وبناء بوابة
و .. وهو القريب التوجيه المعنوى .

فى ذلك اليوم استدعاه القائد أغلق عليهما الباب بنفسه ثم اشار الى
شانون قائلا - فى هذا الشانون خطاب من قيادة الفرقة موقع بواسطة
القائد نفسه يصدر فيه لى أمرا بتسليمك مهام ضابط توجيه معنوى ..
الكتيبة سنزولى هذا العمل مع احتفاظى بهذه الورقة لتأمينى فى وقت
الحاجة .

وكان سبب هذه التعليمات أن ضابط توجيه معنوى الفرقة عندما
حضر للتفتيش على ضابط الكتيبة وجده يقرأ للجنود من كتاب التدريب
وانقبطت ورقتان بدلا من واحدة فأستمر فى القراءة دون أن يشعر بفارق .

وسهر الرجال لىالى طويلة يرسمون ويحبرون ويخططون بالجبر
ويدهنون بالبوية .. وتم تجهيز كل شىء حتى من المكلف منهم بأعضار
المربطات والثلج والجاتوه والشاى واللبن .. وأنظروا لجنة هيئة التدريب
عندما استدعاهم قائد الكتيبة لاجتماع عاجل .

اكتسب وجه القائد بجدية من سيصدر أمرا بالقاء قنبلة ذرية ..
وظل يتأمل وجوههم .. ثم أمر جندى المراسلة بقتل الباب ومنع أى فرد
من الاقتراب وبدأ يتكلم بعد أن ضمن اهتمام الجميع وتشوقهم لسماع
ما سيقول .

قال : كلنا سمعنا خطبة الرئيس واللى قال فيها انه سيضرب مراكز
العدوان فى السمودية .. لقد كان الرئيس جادا بعدما استنفذ كل الطرق
السلمية كى لا يشتبك عربى بأخيه العربى .

ولكن ارواحنا أهم من أى اعتبار أخوى والحرب هى الحرب لذلك
عندما صرح بأنه سيقضى على قواعد العدوان كان ذلك هو الحل الوحيد ..
وعليه ستتحرك فرقتنا لتعزيز قواتنا باليمن .. لم يحدد لها مهمة قتالية
ولكنه أمر انذارى بالتحرك .. ومهما كانت وجهة نظرنا الشخصية فى حرب

اليمن . أقول هذا لبعض منكم محددين .. فسنؤدي دورنا هناك بدون
تراخ . (ارفع صوته ودق على المنضدة) .. ولن أسمح بقطرة دم واحدة
تضيع هباء بسبب إهمال ضابط من الضباط ولهذا .

فها هي أمامكم الفرصة .. من يقبل أن يحضر معنا على هذا الشرط
— بشرى لن انتازل أو أرحم — فاهلا .. ومن لا يريد .. فهناك قوائم
لن يطلبون السفر . كل ما أريده أن أعرف من يريد أن يسافر ومن لا يريد
وبدا يسألهم واحدا واحدا وافق الجميع عدا ضابطين حتى وصل الى
صديقنا الذي قال .. لا .

اجاب الآخر باستغزاز .. بالذات أنت ستذهب سواء وافقت أم
أبيت .. لأنني أعرف سبب رفضك .

كانوا قد توتروا .. فقد أخفى الخبر عن الجميع حتى رئيس غنياته
فوجيء به .. وكان قد قدمه بشكل درامي لم يتح لهم الفرصة للتفكير .

في نهاية الاجتماع سأله أحدهم والتفتيش يا قندم .

اجاب — مستمر وان كانت الأسبوعية الأولى للأعداد للسفر .

نظر بعد ذلك لصديقنا وطلب منه الاجتماع بالصف والجنود .

انتشر الخبر سريعا بين الصف والضباط والجنود .. التمسوا حول
صديقنا يسألونه .. الذي كان يجيب بقدر معرفته .. وانفضوا من حوله
حتى لم يبق منهم الا الرقيب اللذان ساعدها في مأمورية التسمية وصف
ضابطين آخرين تبعوه الى داخل مكتبه .

قال الرقيب الشاعر .. أرجو أن تعفيني من السفر لقد سافرت من
تبل ومن نقود اليمن اشتريت منزلا في الزقازيق حوله حديقة زرعها بنفسى
وأريد أن أستمتع بها قبل أن أموت .

قال الرقيب الميكانيكى — أنا أريد أن أسافر .. أريد أن أشتري
قطعة أرض في المطرية ، ابنى عليها منزلا ملكا ولا الحاجة للإيجار .

قال الصف ضابط — المطرية لقد أصبحت مستعمرة عسكرية مؤقتة
على ضباط الصف العائدين من اليمن .

ضحك آخر قائلا — نعلا اذا مررت هناك ستجد الفوط الكساكى

معلقة ومنشورة بجوار الأومرولات والشرابات وصنادل الجيش التى يلبسها هناك النساء والأطفال .

علق الميكانيكى — لكن تفكر حضرتك بدل السفر حيكنى .. الواحد يتعد قد آيه هناك علشان بينى بيت .

وتغير روتين الحياة فى المنطقة التى تحتلها الفرقة .. تم نقل الضابطيين الرافضين وحل محلهم آخرا . . أحدهما رئيس عمليات جديد للكتيبة .. واستكملت الكتيبة قوتها — بحيث أصبحت كاملة مقلما درسوا فى كتب التكتيك — بالراغبين فى السفر .. وتم تطعيمهم .. وأعدوا كشوفات بالأفراد والسلاح واستعدوا للسفر .

فى اليوم السابق للسفر تماما وكانوا قد سمحوا للجنود بيوم اذارى اى يستحمون ويفسلون ملابسهم ويطلقون شعورهم .. دخل الكتيبة ميكروباس غريب .. كان به السكرتير العسكرى لقائد الفرقة وطاقم من ادارة التوجيه المعنوى .

استدعوا صديقنا .. تعرف عليهم .. اعتذر له السكرتير العسكرى بانه لم يكن مخططا المرور عليهم ولكن سيادة اللواء امر بالمرور عليهم ليشاهد مندوبو الادارة فصل التوجيه المعنوى الذى أعده صديقنا .

علق احد افراد الطاقم .. ليس الفصل فقط ولكن أيضا للتعرف على تجربتكم فى التوجيه المعنوى .

اعتذر صديقنا بأن الجنود يستعدون للسفر ولذلك فسيجدهم فى الحمام أو يفسلون ملابسهم .

أصر الآخر ثم نادى على بعض الجنود دون ترتيب كيفما اتفق .. حضروا بملابسهم الداخلية أو بأجزاء من أومرولاتهم .

وقف بينهم يخطب .. احنا دلوقت مسافرين لليمن .. كل واحد حياخذ بدل سفر .. ماذا سنعمل بالنفود .. ؟؟

رد أحد الجنود — سأشتري بقرة أو أشارك على فعل .

— كويس .

رد آخر — سأشتري قطعة أرض صغيرة لو كانت النفود كادية .

—

ساضعها في البوسطة .

—

— سارسل أمي وأبي للحجاز .

—

— حففت محل بقالة في بلدنا .

— عظيم جدا يعني مش حتشرب حشيش — مش حتجوز واحدة
تانية .. مش .

وهنا رفع أحد الجنود يده معترضا .

— تسبح يا فتى احنا رايعين اليمن علشان نؤدى واجب علينا
مش علشان الفلوس .

— ضحك المنتش وكانها تذكر نجاة انهم في اليمن لاداء واجب .

ثم غلق — عظيم هذه هي الأجوبة التي أريدها .. ثم كرر عظيم
متشكرين يا سيادة الفقيب بالتوفيق انشاء الله .

هبطت الطائرة في مطار الغردقة .. حملا حقيبتيهما ووضعاهما أمام
الأتوبيس الذي سيحملهما إلى القرية .. لقد كانا في طريقهما إلى مجاويش
لغضاء أربعة أيام لقد سقط في حبائلها .. أطبقت كنيها عليه .: اتحدا على
حد قولها .. وكانت رحلتها لمجاويش الخطوة التي تبدأ بها رحلة الألف
ميل إلى جزر البلهائيا والريفيرا . وحياة أصحاب الملايين .. لقد خططت
لكل شيء .. كانت في حاجة إلى شخص منى تثق فيه ويرتبط بها ..
وأجته .. فهم لن يقبلوها لأنها سكرتيرتهم .. و .. وهم لن يعترفوا بها.

وكان هو .. لهذا اكتسب ثقتهم في بداية تعامله معهم بعد أن أعد
دراسة العطاء الذي تعرفوا عن طريقه به .. وضخمت هـ دورته حتى
لقد تصوروا انهم لن يستطيعوا الاستمرار في السوق المصرية الا اذا تحالف
معهم .. وهى التى أوصلت العلاقة بينهم وبين الشريك المصرى السابق
إلى أسوأ حالاتها .: ثم هى التى رفضته لهم .. وبدون أن يشعروا انها
تدفعهم في اتجاهه .. وهى التى سهلت التعاقد معه .: لقد قالت لصديقتها
ولماذا فعلت بالأغنياء ؟ لقد حاولوا فشك .. اختر شابا طموحا يرضى
بالتقليل .. ثم بعد ذلك هى التى سميت الآبار خلفه .. لقد نفذت في النار
حتى توهجت المناقشات بينه وبين الإنجليزي ذى التنبؤ على الشركة

الأمريكية .. كانت تريد أن يعتمد عليها منفردة وأن يقطع كل صلاته بالآخرين إلا من خلالها لتتحكم في العلاقة وهي التي أوحى لصاحب الشركة بإرسال خطابه الحاد له .

لقد أصبح عجينة طيبة بين يديها الآن .. استخدمت طريقة ذهب المعز وسينه أنه سيخاف على دخله وسيهتم بمستقبله .. سيخاف .. سيلجأ لها .. وكانت اللحظة المناسبة لداعية عواطفه .. لقد ظلمها طليقها لقد طفنها مبكرا .. لقد عبث بنقائها .. ثم أمنت غمرته .. فهو يعلم أنها صديقه العجوز الأمريكي وهو يعرف أيضا أنها كانت صديقة لأكثر من أمريكي أو أوروبي مروا عليها . وغرق صديقتنا في بحيرة وحل الانفتاح .. إلى آخر شعرة في رأسه .

إن الصراع الاستهلاكي والدور الذي أوحى إليه به أجهزة الدعاية جعله في حاجة دائمة لدخل متزايد .. وهي بوابة الجنة .. لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة للدخول بدونها حتى لو عرف ماضيها وحاضرها وأيضاً مستقبلها . تحرك الانوبيس تجاه القرية السيلاحية .. استقبلوهم بالتهليل مجاويش .. مجاويش .. عشرات من الشباب والشابات في ملابس غريبة والحرية تنفخ من عيونهم .. كان للمكان محر خاص على شرفي لا يعرف إلا الكبت والخوف .

كان محير القرية .. يقول هنا جزيرة الحرية .. هنا تستطيع أن تفعل ما تشاء اخلعوا ملابسكم ومشاكلكم .. وساعدونا على أن نجعلكم تسنتمون .

كانت تحتضنه قبله بعينيها .. نصفط على ظهره بصدرها .. وهما متجهان إلى عشتهما .

لقد أعدت كل شيء .. لقد استسلم لضغوطها .. لقد قال لها أحبك .. لقد اكتشفت أن تجربته مع النساء مسطحة .. أنها قاهرة على تحريكه وفق هواها أنها تشع به وبسذاجته وهو يقبلها وكانت تتعبد أن تعلمه مع كل قبلة جديداً وكانت تدين إثارة اللوب في فمه وجسده .. ثم تركه ليتعذب ولتتقر موافقاته . لقد اتفق معها على أن يفرك لها إدارة دفء علاقته مع أولاد العم سام ستتحدث باسمه .. وستتناوض أيضاً بأسمه .

لقد اتفق على أن يتحالف معها .. على أن يصبح البديل لاصدقاتها

اثناء غيابهم وأن يصبح زميلها أو رئيسها أو شريكها حسب الموقف اثناء وجودهم وكانت تخطط لأولى ضرباتها عندما قادتة لهذا المكان .

ان مجاويش تبدو كما لو كانت قد اعدت لعلا لهذا الغرض . . لافواء فرد ما الآخر ،

كانت تقف معه في حوض الاستحمام الضيق وهما عريان تدلك له جسده بشابو خاص بالاستحمام . . وتضغط على أماكن محددة من جسده تعرف جيدا يداها الطرق اليها وتعرف أيضا تأثيرها عليه .

رقد على السرير عاريا على وجهه . . كانت تدلكه بلسيون مخصص للساج وتغطي أجزاء من جسده بكريمات مخصصة لترطيب الجلد الجاف .

وتسللت ثغافها تعبر من رقبته لصدرة لبطنه حتى اكملت ملامح نيلم بورنو من الافلام الشائع مشاهعتها في العصر الانفتاحي .

واصبح عبدا لها . . سطرت عليه الحاجة والانتهازية والشهوة لقد أصبح ناضجا للخطوة التالية .

ما رأيك . . هناك بضائع تم اخفائها لمصر معنفاة من الجمارك لاستخدامها في مشروعاتنا . . !!

لو أننا بعناها في السوق المحلي فيمكننا ان نكسب حوالى المائة الف .

لقد اعدلت كل شيء . . المواد تم استهلاكها ورتبنا وتم تجنيبها ولكننى لا أعرف لمن ابيعها . . انها أول مائة ألف في أو لمليون يا حبيبى .

الفصل الثانى عشر

القطار يتحرك بهم .. على الجانبين ارض خضراء مزروعة بمحاصيل لا يستطيع تمييزها .. الشمس تبيل للغروب .. ولكنها لم تغرب بعد .

اشعتها التى فقدت حرارتها تطفى بظلال على النخيل العالى .

بخلفية الصورة بقراوات قرعى فى سلام .. فلاح ينظر للقطار المحبل بالجنود ويرنع ذراعيه الاعلى بالدعاء .

.. وهاجمته أغنية يا حيايىب بالسلامة .. رجتم ورجعتم لنا بالسلامة ..
يا حيايىب بالسلامة .. يا حيايىب بالسلامة .

كان يهرب بالحلم (كما هى عادته) من الحقيقة عندما يجد نفسه فى موقف لا يستطيع مقاومته .. كانت الأغنية توحى له بأنه ذهب الى هناك وعاد . لقد كان مسافرا مضطرا لأن قائدده أمره بذلك من خلال الوحدة والصراع الدائمين بينهما .. كان يحاول أن يبدو أمام نفسه كما لو كان ضحية .. وظهرت على قشرة شعوره كلمات والده .. قد تستطيع أن تضحك على العالم كله ما عدا نفسك فعلا ليس بتنفيذ أمر قائدده فقط الذى جعله جالسا فى هذا القطار المتحرك الى الأديبية .. انها شهوة المعرفة التجربة .. المغامرة .. التى لا يمل منها أبدا لقد استسلم لأنه يريد أن يخوض التجربة .. حتى ولو كان سينزع حياته ثمنا لها .. أن موته شئ قائم .. وموتهم جميعا قائم أيضا .. انها مجرد روضة مجهولة يطلتها يبنى غيور على حرية وطنه وهو مقتنع انه يقف الى جانب الحق والمعدل والشرف .. أن موتهم جميعا قائم .. أن موتهم جميعا قائم .. وظل يتأمل الوجوه المبتسمة والضحكة .. أن هناك قوة أخرى أهمتهم عن الحقيقة المعلقة فوق رؤوسهم .. المال والسلع الاستهلاكية .. وفردة الزوجة

والاطفال .. وصار يظن « يايتها الذين امنوا ان من ازواجكم واولادكم عدوا
لكم فأحذروه » ... وهكذا ذائبا الانثى هى السبب .. هى التى أخرجتهم
من الجنة .. وهى الناقصة عقلا ودينسا .. وهى التى تدفعهم للصرع
الاستهلاكي .. وتنبيه الى انه لم تكن له علاقة ما يأنش حتى ذلك الوقت
لا صديقة ولا حبيبة ولا زوجة .. انها أمه .. وأخته فقط .

ان أخته لا يمكن ان تكون ناقصة العقل .. ولا يمكن ان تكون عدوة
له .. انه حياتها .. حبها .. وشعر بالخوف عليها .. وود لو عاد ليوذعها
ثانيا لئلا كانت تبكى وهو يستعد للسفر .. كانت تخاف عليه .. ماذا
ستفعل لو مات .. وبكى .

الشمس اخفت لم يلحظ اختفاءها .. ولكنه شعر بانقباض يملأ نفسه
وعقله وألمحت عليه الأغنية .. يا حبايبنا بالسلامة .. رحتم ورجعتم لنا
بالسلامة .

وكان الجنود فى العربات الخلفية يغنون .. ولا حائط رجلى فى المياه
الا ومعايا عدوية .. وانتقلوا من القطار الى الباخرة .. وتحركت الى
وسط البحر .. الأرض تباعد .. تخفى وهو يجلس فوق كرسي بحر
يراقبها ... وبكى .

قد يهون العمر الا ساعة .. وتهون الأرض الا موضعا .. وهمس
لنفسه .. يا حبيبتي يا مصر .

زميل يناديه .. لقد وزعوا عليهم علب سجائر .. يأخذ علبته منه ..
يسأله وماذا ستفعل بعلميتك .. انت لا نخن .

يرد الآخر ببساطة — ساندن اعتبارا من اليوم .

يبتسم صديقا — لقد بدأت التغييرات .

الجنود يتساجرون على ظهر المركب .

رقيب أول جديد على الكتيبة يقول ان أحد الجنود أضاع سونكى .

ضابط آخر يجمع الجنود ويثم على سلاحهم .

ضابط من الضباط الجدد يعنف الجندي — اسرق واحد بداله يابن
الكلب .. انت عيل .

نوضى شديدة فوق الباخرة .. كما لو كانوا فى رحلة الى القناطر
الخرية .

لا يمكن أن يكونوا متقدمة الفرقة الذاهبة لتدعيم القوات لضرب مراكز
العدوان بالسعودية أنهم في حرب .. وهناك احتمال لقصف الباقية ..
سواء بالطائرات أو التدمير أو زوارق الطوربيد .. أن أعداءهم كثيرون .
السعودية واليمن وإسرائيل .. وتدعمهم أمريكا .

يقولون أن هناك خبراء بلجيكي وفرنسيين وهولنديين وإسرائيليين
يوجهون القوات اليمنية ويحاربون معهم .. ولم يرعبه إلا عجزه عن
النيابة

أن فرصة نجاته ضعيفة .. واستسلم للتضاء .. لقد قال لهم
المقدم الذي قبله في سجناء .. « أنتم الوقتود » .. الكابينة شديدة الحرارة
ولا يستطيع أن ينام بقات الجرس تعلن عن العشاء .. عشاء فآخر ..
والجنود يوزعون عليهم الطعام في أذانات .. ينامون على سطح المركب
الحر يزداد .. يتخفون من ملابسهم .. في البداية الجنود العائدون من
أجاراتهم .. ثم يقتلهم الآخرون بعضهم سافر أربع وخمس مرات .

فالمضباط يسافرون بالطائرة والجنود بالمركب .. نصف الإجازة
تضيع في السفر يحاول أن يستريح .. أن يستمتع بالبحر .. فقد تكون
آخر فرصة له للراحة .

يقرا كتابا .. يتأمل الأمواج .

في الصالون برتينة بوكر .. يلعبون على السجائر فالنقود لا تستخدم
في هذا المكان افطار - غذاء - عشاء - حر - نوم .. مشاكل الجنود ..
الحديث لا ينتهي عن بضائع اليمن .. خاصة مع المخضرمين .. هل معك
دولارات .. هل معك السقيليني ما هو الأفضل .. ؟؟ ما هو آخر سعر
لها .. المعدات الكهربائية السجاد رخيص جدا .

باخرة تبحر جوارهم .. البحارة يحيونها بأشارات خاصة .. ضابط
بحري صغير يفسر له .. لابد من تحيتها بالمفروض أننا باخرة مدنية وليست
عسكرية .. يكملان حديثهما .

سافر إلى إنجلترا وهولندا وإيطاليا والهند واليابان .. رحلته
التالية إلى أستراليا وأمريكا .

ويشعر بالحسد تجاهه .. أنها شهوة المعرفة التي تقوده دائما ..

وهو قد يعيش ويموت ولا يرى هذه البلاد .. نفى وطنه اجراءات السفر
في منتهى الصعوبة وتحويل العملة اكثر صعوبة وبالنسبة للعسكريين تصل
الامور الى درجة الاستحالة .

حياتهم لذيذة .. لغير المتزوج .. في كل ميناء يجد عددا من الزوجات
في استقباله يختار منهن من يشاء .

يحب بنت في مدرسة الليسيه .. يحضر لها من كل ميناء هدية ..
الستات خائنين .. لابد ان تثق فيهن قبل ان ترتبط بهن خصوصا في مهنتنا
اكثر من الضباط .

البنت المودرن هي اكثر بنت تثق فيها .. لانها جربت وعرفت وفهمت
واختارت وهي تحكم عقلها وتلبها .. لا يمكن الضحك عليها .. البنت
التقليدية سهلة الانحراف .. يمكن اغواءها بسهولة .

البحارة يتفنون اليوكر .. لنا اساطير معه .. احاول ان اقرا ..
احضر من كل بلد كتابا واسطوانة ولوحة وعروسة .

اخلق الفرس لكى ازور المتاحف .. بعض المدن عبارة عن متحف
روما وقلورنسا وتنى صديقنا ان يكون بحارا .. كان ينظر له باعجاب ..
جعل الآخر يسترسل البحر الاحمر هادئ .. لاحظ سمك القرش .. لا يخاف
الا من الدرافيل يلتف حول المراكب ليعيش على الفضلات آه لو واحد
سقط بينها .

وتنبه صديقنا على كوابيسه بخصوص ضرب الباخرة .. سسيتحول
جسده الى غذاء يكون عضلات هذه القرش .

وصلوا الحديدية .. الباخرة تناور للدخول للميناء .. الصفارات
ترحب بهم لقد اصبحوا في المين ..

خرجنا من البحر .. كان يجرى خلفها محاولا اللحاق بها .. وكانت
ترتدى مايوه بكيني بلون جلد الثور .. خلعت نصفه الاملى تشبها بالاوربيات
حولها تبرز ثدياها المتكوران الاسمران بتجاوئيهما الخفيفة التي بدأت
ترحف عليهما مع الزمن .

رقد بجوارها بدون تجفيف الماء العالق بجسده .. سحبت البشكير
المعلق ثم بدأت في ازالة قطرات الماء .. ودهن جسده بالزيت .

كان يستمتع بلمسات أصابعها الباردة لجسده الملتهب ويكبح خيالاته
التي كانت تتعجل رجوعهما الى عشهما .

قالت بلبونة .. ها .. ما رايك يا بابا .. !!

كان قد نسي حديث البارحة .. أو تناسله .

فسألها .. راى فى ايه .. !!

ردت بحزم لا يتناسب مع التدليل الذى تدلله له .

فى البضائع .

سكت قليلا .. ثم اجاب مترددا خوفا على طرده من جننها .

— احنا حنشتغل حرامية على اخر الزمن .

ردت باستخفاف — مين قال اننا حنسرق .. انا متفقة معاها ..
المواد قيمتها نصف مليون جنيهه بثون جيارك .. باضافة الجيارك والرسوم
ستصبح مليوننا اذا قدرنا نبيعها بسبعمئة وخمسين الفا .. فسيكون نصيبنا
مائة الف .

سألها : وهل يعرفون اننى سأشترك معك ؟

ردت بخبت — لا .. ثم أردفت .. حتى الآن .

كان من الواضح ان الامر يتصل بسرقة الحكومة المصرية بعد ان كان
متصورا انها سبسرقتان الأمريكيتين والمصريين .

— ولكن غير مسموح ببيع بضائع مستوردة لحساب مشروع معنى
جبركيا فى السوق المحلى .

ردت باستهزاء — واذا كان مسموحا لما فائدتنا .. ليه ندفع للحكومة
هى بتعمل لنا ايه .. شوارع مكسرة .. وتليفونات تلفانة .. وقذارة ..
وهم نفسهم بترشوا . .. كان ممكن الأمريكان يدفعوا الميت الف دى نفسها
لهم وبأخذوا شهادة اخراج جبركى سليمة مية فى المية لكن انا الى عرضت
عليهم اهى نواية تسند زير .

كان يعجب من منطقها .. فهو له فلسفته المتكاملة ولكن من أين لها
بهذه الأمثلة والتعابير .

حاول مداعبتها — ياد دى انت بقينى بلدى توتى .. ايه النواية دى .. !!
ردت المداعبة بمثلها — البركة فى مسلسلات التليفزيون .

تصورت انها قد اتنعتته وانتهى دورها ولم تعاود سؤاله .. الصقت
صدرها العارى فى ظهره وتركت الأجساد تكمل الحديث .

كان قائد الكتيبة في انتظارهم بالميناء .. لقد سائر بالطائرة توليرا
للوقت وللأعداد لاستقبالهم .

كان يرتدى ثورت وقبصا نصف، كم بدون يافنة كاكى وصنفل جلد
بنى مثل الآخرين الذين يحيطونه .. تجمع الجنود في صفوف .. بأسلحتهم
كاملة بعد أن عوضوا السونكى الضائع .. الضابط قائد المقدمة يحى قائد
الكتيبة معلنا أن الجنود والسلاح كامل .. فيما يقال عنه (تمام)

قائد الكتيبة يعانق الضباط .. صديقتنا يركب بجواره عوبته الجيب للتي
يتودها بنفسه .. يشرح له ملاحظاته .

استلطنا مكان كتيبة المهندسين السابقة .. معسكر كتيب يبعد عن
البحر حوالى نصف كيلو متر .. ثم يهمس سأحاول أن ننقل الى معسكر
على شاطئ البحر مباشرة .. اذا كان لابد ان نعيش هنا فليكن فى مكان
مناسب .

يتحركون على طريق ممتاز .. يعلق القائد لقد انشاه الصينيون .
ثم يهمس — عندما ذهب المهندس يطلب من الامام قيمته امر هامدايه
قائلا :

لقد سومت ارض الله يا كاهن .. !

عندما تصور ان صديقنا لم يصدقته .. اكمل : ولقد انشأوا له نصبا
تذكاريا على الطريق ..

الوجوه سمراء .. اقرب الى السواد .. الأجساد هزيلة .. وهم
يرتدون الجلباب الابيض وحفاة ويضعون فوق رؤوسهم طربوش قش
مخروطى وأكثر ارتفاعا من الطربوش العادى مبنائى من دورين أو ثلاثة لها
طابع مخالف لباقى الأماكن المحيطة .. انها مساكن الروس .

يلحق قائد الكتيبة .. لقد تنازلوا لنا عن عمارتين منها لقيادة الفرقة .
الحر شديد والرطوبة عالية يشعر ان الأمرول يخفقه .. عربات ذبل
جديدة تتبعهم بها الجنود .

ضباط كتيبة المهندسين الذين سيستلمون منهم المعسكر يرحبون بهم .

قائدهم فى صنعاء ينلقى أوامر الانتقال .

أسماء كثيرة وضباط كثيرون .. بنادى بعضهم بعضا يرتبهم ووظائفهم .

أحدهم كون علاقة سريعة بصديقنا لقد كان وودا مرحبا .

— سألهم هنا حتى الصباح .. سأطير بلاكى الى قفل حرض .

كان يتكلم كما لو كانت قفل حرض هذه لندن او باريس يجب ان يعرفها الآخرون عندما تنبه الى ان صديقنا مستجد .. بدأ يشرح له .

نحن نتحرك على محورين .. احدهما حوله معظم المشاكل وهو طريق الحديد صناعاء ويخترق وسط اليمن .. والآخر الساحلى يبدأ من الحديد وينتهى فى مبدى على حدود السعودية مارا بوادى مور ووادى عيسى وحرض ويمدى هذه المنطقة هائلة الا فى جزء واحد وحول الحديد نفسها طريق الحديد صناعاء أسفلتى ممتاز وغريب .. تبدأه لابسا ثورت وقيصا نصف كم وتنتهى لابسا أنمزل وفائلة ضرب نار وبالطو .. يتراوح بين جهنم والقطب .. اما الساحل الشمالى فهو طريق ترابى مزعج .. لذلك ننضل السفر بالطائرة .

ثم قام وأحضر وعاء اسطوانيا بلاستيك غريب تدمه لصديقنا مداعبا ..
تفكر ايه ده .. !!

احتار الآخر .

ضحك بطنولة وشقاوة ثم قال : ترموس .. اتبنوا بقه ... وبدأ يحلم .

الواحد يبلؤه ثلجا .. ومعه الراديو والريكوردر الترانسبور ويرتد تحت الشمسية فى السويس يقرأ الجرايد والمجلات .

ثم علق بود .

انا من السويس يا عمى .. الواحد عابز يتجوز ينام فى حضن العروسة ويعرض أيام الشقاوة .. كان يقول هذا ويضرب بقضته دولابا صاجا بجواره .

— وما الذى يمتنعك .. !!

— لا يريدون الاستفتاء عنى .. ثم همس .. أصل أخوك فتان فى البوبى تراب .

اهتم صديقنا بفهم معنى الكلمة .

— نحن اى المخابرات وانا نصنع شراكا خداعية على هيئة طرود —
زيمية ألعاب كمبيوتر — فلم خبر — طبة شيكولاته .. يأخذها العملاء ويتركونها فى السعودية وهناك تنفجر باسم هيئة تحرير الشعب السعودى .
هذا ايضا ما نقوم به فى عدن .. المركزان اللى يتتود منهما المخابرات

العملية وبنجهر فيهما الأثران هما مبدى وحرص .. وأنا يا سيدى مسئول
حرص .

كان يتكلم ببساطة غريبة عن طرود الموت وبنفس الطريقة التى يتكلم
بها عن العروس والشمسية والريكوردر .

ولم يحتمل صديقنا استمرار مناقشته أو النظر اليه .. ان الامر
بالنسبة له عمل وبالنسبة لصديقنا أطفال وسيدات ومدنيون يقتلون
ويشوهون .. !!

احتقلوا بقدمهم فخبوا معزة .. وتناولوا الغذاء على دفعتين فتة
بالخل والثوم مع لحم مسلوق ومحمّر .. ثم ارتدى كل منهم مايوه .. والى
البحر .

عندما توقفت العربة ونزل من صندوقها الخلفى .. وقف مشدوها ..
لقد كان على البلاج مجموعة من الحوريات البيضاوات ذوات الشعر
الأصفر .. يلعبن فى الماء وعلى الشاطئ كرة طائرة ويصحن بأصوات
غريبة .

ضحك أحد الغدامي ثم لكزه .. انه بلاج الروس .. بعد ذلك حذره
من التعامل معهم أو الاقتراب .. هذه تعليمات المخابرات .

ثم أرفق لينصحه : فأخذ الصف ضباط نزل خلفهن الى الماء وعض
واحدة منهن قبضوا عليه وسلموه للقيادة .. ورغم ان الروسية تنازلت عن
الشكوى .. وقبلت اعتذاره الا أنه عزل الى رتبة عريف وتم ترحيله من
اليمن .

الماء ممتلئ بالأملاح وغير مستسماغ والكيبوت يزيد العطش
وحديثنا يصاب بمغص واسهال حاد .

الطبيب يطمئنه: لا تخف مجرد تسهم .. لكن بكرة معدتك ستعود على
أكل اليمن .. تتناول ٤ حبات أنتروفيغوروم و٤ حبات سلفا .

عندما أعترض على الجرعة

ضحك الآخر قائلا : يا باشمهندس أنا عارف اليمن .. كل حاجة هنا
بتقلب نصحه بأن يغطى نفسه ليلا رغم الحرارة الشديدة والا سيتعرض
للرطوبة .

فى لاهية اليوم تسلم خمسة عشر ريالاً سلفة من بدل السفر .
استلموا متر الكتيبة ومهماتا ومعداتها وعرباتها من ضباط الكتيبة
الراحلة بعد عشاء ومنارات وسخانات وصلت الى حد النصب فى بعض
الأحيان .

فقد كان الآخرون معذورين فعليهم تسوية عهدتهم قبل سفرهم
والا ستخصص من مرتباتهم .

كان احدهم يقول لن يرى النقص في المهدة الا آخر واحد يسلم
الجيش ويضحك مبررا العجز في بعض الاصناف والمهمات .

وسعى قائد الكتيبة لدى قائد ورئيس اركان الفرقة حتى صرحا له
بانشاء معسكر جديد لكتيبته على البحر بجوار شاطئ الروس . وبالطبع
اصبح صديقنا المسئول عن اقامته وتجهيزه .

اعد صديقنا رسما تخطيطيا للمعسكر . . مكان لخيام الجنود في طرفه
الجنوبى . . وآخر لخيام الضباط في طرفه الشمالى . . ومطبخ مبنى للجنود
وأخر للضباط وخيمتان متصلتان في وسط البحر تستخدمان كمطعم للضباط
بحيث يتناولون طعامهم وحولهم الماء من كل جانب . . ثم مكاتب الضباط
وأرض التدريب بها . خيمة هندي ضخمة وسور له بوابة ثم عبر الطريق
مكان للمعدات والحملة أبعد منا يمكن عن البحر .

رسم سسطين اثنين مقترحين . . اختار القائد واحدا منهما . صدق
عليه قائد الفرقة وبدأ التنفيذ .

توجهوا للموقع صديقنا والبلدوزر ومجموعة جنود معهم ادوات حفر
كواريك وإزم وتجلى ورقيب سباك .

سعى القائد لدى الاشتغال حتى حصل على ادبانات جديدة . .
صرفوها وشونوها في الموقع . . وفشل في الحصول على زوايا حديد وأسلاك
لتسوير الكتيبة سوى البلدوزر الموقع . . حفروا أماكن دورات المياه
والمطابخ .

كانت الحرارة تزداد كلما توغلوا في النهار . . وشعر الرقيب السباك
بدوخة كان رقبيا متطوعا كبير السن له زوجتان وعشرة أبناء . . وكان في
مصر يعمل في تركيب أطقم الصحن وسبلكة العمارات الجديدة بعد الظهر . .
وكان يأمل أن يكفيه بدل السفر عن العمل بعد المواعيد الرسمية ولكن ضربة
الشمس اللعينة جعلته يخرف . . فأرسله صديقنا الى المستشفى للعلاج . .
الذي جعله يتناول أقراصا من الملح . . لتعويض الفائد منه من العرق
الغزير .

في المساء طلبه القائد فقال له انه انشاء تجواله وجد سورا حديديا يحيط
أرض فراغ كانت ستستخدم كمعسكر لتدريب الجنود المستجدين ولكن ألفت

الفكرة وبقي السور بدون صاحب .. وطلب منه ارسال نصيلة من الاولاد
الجذعان لفك السور وسرقة وتركيبه حول المتر الجديد .

ونعلا في المساء ازالا جانبيين من السور وركباهما حول المعسكر ..
احتاجوا بعد ذلك لمعد قليل اضافي .. عندما ذهب عريف لاحضارها قبض
عليه جنود كتيبة المدرعات المجاورة للمكان وارسلوا لهم اشارة لاستلام
اللس .

سلمه القائد الاشارة موبخا اياه لانه ارسل عريضا لخدمة سيجعلهم
يواجهون س و ج .

في الصباح ذهب صديقنا لكتيبة المدرعات وكانت منشأة في مكان قريب
من البحر .. كانت واسعة ونظيفة ولها طابع مميز اذ لصقوا كل خيمتين معا
ومرشوها الواح خشبية .. وكونوا ميز الضباط من اربع خيام منصوبة
اعلى من منسوب الأرض الطبيعية .. واسفلها منافذ مغطاة بشارش
نظيفة وثلاجة ابيدال ١٠ قدم ومبرد مياه .

كانوا يتناولون انطازهم بيضا وبسطرمة ومربة بالزبدة والعشدة ..
وقول مهندس لونه احمر يتصاعد منه البخار ومحاط بكمية كبيرة من الزيت
والليجون وانواع من المخللات في علب جروبي .

مكان جميل وطعام شهى معد بنوق .. كان حول المساندة مجموعة
من الشباب خليقي للثقون بملابسهم المدنية بحيث يصعب تمييز رتبهم ..
كانهم يقضون اجازتهم على شاطئ المعمورة .. كانت تنوح في المكان رائحة
الأولد سبائيس وعلى منافذ صغيرة محاطة بكراسي فوتي كانت مجلات
الشبكة والمود .

في ركن آخر كراسي بلاج ملونة واكثر من شمسية شاطئ مغلقة .

استقبله قائد الكتيبة بالتمسامة مرحبة .. اهلا يا بلاتشهندس ..
ولازم فطر نيرة فطر ياولد .. اتم جيقم امتي .. الحمد لله على السلامة ..
وهل حصلتم على تصديق بالانشاء معسكر على البحر .. احنا دخنا على
بال م وافقوا لنا على مكان معسكرنا .. ومش على البحر زيكم .

الحياة حلوة هنا بس العرق والحر .. تصور الواحد بيعرق تحت
الدش ها .. ها ثم احضروا التمر هندي المطح .

جاللم صديقنا : كتيبة متميزة واضح ان رئيس الشؤون الادارية
شاطر .

فهيوأ جبيما .. لا يا سيدى المدرعات طول عمرها كدة .

— لنا والله يا فندم عريف عنكم .

— أيوه يا سيدى جينه للجد .. أولا السور ده سور الأشغال ..
أنا حقيقى مش مسلمينه لكن متحفظين عليه من طرفهم .. لاحظنا أمس
أن السور نقص فعلنا كميناً وقع فيه عريفكم .. فى الحقيقة أنا خفنا
ليكونوا يمين علشان كدة بلغنا المخابرات .. لكن مادام فى بيتها .. سيادتك
بس تحضر ورقة صغيرة من الأشغال بالسماح لكم بأخذ السور وتضيقه
على عهدكم وتنتهى المشكلة رد صدينا : متشكر قوى يا فندم .. على
الفتار العظيم وعلى الذوق .. الحقيقة الكتيبة مش معقولة .. الكتاب
يبان من عنوانه يا فندم .. ممكن ولو فيها رذالة أخذ العريف بتاعنا .

— بالطبع .. بالطبع تحت أمرك .. يا ولاد وصل الباشمهندس لغاية
السجن وطلعوا العريف وخليه يستلمه .. مع السلامة .. مع السلامة
يا باشمهندس .

أصبح صديقنا فى موقف لا يحسد عليه لقد سرقوا السور فعلا ويمكن
محاكمتهم والأمر متوقف على موافقة سيادة الرائد الباشمهندس مدير
الأشغال .. وهو ذو سطوة غربية فهو المتحكم فى الأسوار والادبختات
وغناطيس المياه والثلاجات والمراوح والأهم من ذلك أجهزة التكيف ..
وإصلاحها .

والقادة يعاملون باحترام مبالغ فيه ليضمن لهم على الأقل ألا يمر يوم
بدون تكيف .. إذا عطل الجهاز .

وثرر أن يخوض التجربة .

— صباح الخير يا فندم .

— الآخر لا يرد .

جلس واضعاً ساقاً فوق الأخرى .. ثم سأل برزالة .

— أنا شفت سيادتك مين قبل كدة .

رفع الآخر رأسه وتوقف عن قراءة الأوراق التى أمامه .

— سيادتك عايز حاجة .

— أنا نقيب مهندس من الكتيبة الجديدة .

مشى القائد بقاءكم الأسير الطويل ده .

— اه يا فنعم ولقد طلب من سيادتك سورا لم يكن متوفرا في المخازن ولكننا وجدنا سورا حول منطقة العزل فأخذنا ضلعين منه وأنشأنا سور الكتيبة .

سكت لقوانى ثم اكمل .

هذا بلاغ لسيادتك للعلم لتعرف اين ذهب السور .

ووقف ليستأنن .. ثار الآخر .

— هو شغل فتونة .. ايه يا فندى الى يخليبك تسرق السور انا حبلى قائد القوات .

— اولا اتا مش افندى .. اسى الفقيپ .. ثم احنا مسرقناش .. بدليل اننى ابلغك .. وبعدين احنا مش حرامية علشان نتول تشرق . كل الحكاية حولت سور غير مستخدم لسور مستخدم .

رق صوت مهندس الأنفال بعد أن تصور أنه فى ورطة .. كان همه تقفيل مستندات المهدة .

— والحل .. سيادتك تستلم السور كله .. ويضاف لمعهدك ثم تأخذ الجزء المطلوب وتعيد الزائد .. ننزله من معهدك كارتجاع عاوى .. والا حبلى المخبرات .. تفكوا السور وتنقلوه برجالكم وعرياتكم .

كاد قلبه ان يقفز فرحا .. لقد بلغ الآخر الطعم .

— حاضر يا فيم .. احنا تحت امر سيادتك .. اننا جاي انفذ الاوامر جعيت لسيادتك رئيس الشئون الادارية ومعه المستندات .. بس سيادتك تكتب لى ورقة صغيرة بالسماح لنا بأخذ السور .

— اتفضل يا سيدى وادى الورقة .. انت تقرب لسيادة اللواء قائد القوات .

— آه من قال لسيادتك (وكان يكذب بالطبع) .

— الشبه واضح .

ثم وقف ليودعه .. ومع السلامة يا باشمهندس .

أخذ التصريح وجرى الى المخبرات .. ولم يحجم الا عرينا يلبس ملابس مدنية كان يعرفه فقد عمل معه فى مكتب امن الفرقة منما كان صديقنا ضابط امن وحدته .

رحب به .. وعندما قرأ النعريح وعرف الموضوع شطب على الإشارة
قبل أن يعرضها وانتهت القضية .

عندما قص ما حدث على قائد الكتية علق :

— برافو .. خلاص متسالحس في بتاع الأشغال .. احظا نلم السور
ونركبه فى الكتية .. وهو يجرى ورائنا علقان المستندات وبالمره فآخذ
مقابلها شيئا .

الفصل الثالث عشر

انطلقت موسيقى « الديسكو كلاسيك » بانفتاحية السيمفونية الخامسة لبيتهوفن .. ثم أعقبها دقات وارتام متتالية .

فتنبه كل الموجودين بالقاعة الواسعة .. كان معناها ان خبرا ما او لعبة ما ستحدث .

كان يلعبان اسكرايل .. وكان رصيده أعلى من رصيدها ان ذلك يضايقها نهى أقوى منه في اللغة الانجليزية .. وهى متربة على اللعب مع اصديقاتها الأمريكيتين .. ووجدتها فرصة لى تتخلص من هزيمة نهائية واضحة أبعدت اللوحة .. ثم نظرت تجاه المسرح .

تضايق .. فهو لم يتخلص من عادة ان يكون الأول دائما .. شعرت بذلك فحاولت أن تراضيه لعبت في شهر رأسه .. كانت تعلم نقاط ضعفه جيدا وكيف كان يستسلم لأصابع والدته وهى تداعب فروة رأسه بعد خروجه من الحمام .

جنبتة من يده ليقتا امام المسرح يتلعبان لعبة جديدة .

كانت ترتدى بنطلون اسود مستان وبلوزة بيضاء تظهر صدرها وعنقها وتظهرها الذى تزينه بعقد لؤلؤ أبيض .

كانت متسقة تماما مع الجو المحيط فمعظم الرواد أوريبيون قادمون من أنحاء شتى لقضاء أسبوع على ضفاف البحر الأحمر .. أو مصريون .. تخلصوا من جلدهم ولبسوا جلودا مستوردة .

كانت اللغة السائدة الفرنسية أو الانجليزية .. وكانت تد بدات حوارا مع أمريكى شاب تساله عما فعلتهما من اللعبة .

ودوت مقدمة السيمفونية الخامسة تانيسا .. أعلن المذيع ان موعد العشاء قد حان .

وتدفقوا الى المطعم .. كان العاملون الاجانب قد جهزوا لهم مفاجاة ارتدوا ملابس من العصور الوسطى .. ووثقوا يرحبون بهم .

جلسا حول مائدة مستديرة وشاركهما خمس آخرون .. الامريكى الذى بدأت معه الحوار وزوجته وثلاثة فرنسيين رجل وسيدتان .

كانت تتكلم الانجليزية والفرنسية .. وتناقشهم عن بلادهم وتصف بعض الاماكن لو كانت قد عاشت فيها لفترات طويلة .. وانتهت زجاجة النبيذ . وانتهت زجاجة اخرى .. كانت تحاول اشراكه فى الحديث .. لقد كانت محترفة .. تدربت على جذب انتباه الآخرين .. الاجانب .

انتهى بهما الامر على كرسيين حول حمام السباحة .. كانت الدقات السريعة لموسيقى فرقة جنكيز خان تصلهم عبر الصالة المستديرة .. وكانت ومضات الضوء وانعكاساتها على الراقصين .. تجعلهم يشعرون انهم يراقبون عملا من أعمال فلليني .. تبعه صوت مايكل جاكسون والسخونة تزداد بين الراقصين . ثم فريق البيجيز .. كانت تلتقط التغيير فى اللحن مباشرة .. وتلفت انتباهه هذه الفرقة اسمها بوليس .. وهذه دى بيرل .. ثم تضحك من طريقة نطقه للفرنسية .

خفت الاضائة لتسلم الموسيقى الى صوت ممرى ماتيو .. ثم باربارا ستراساند وعندما بدأت شيرلى باس تقول احبك اكركك .. احبك اكركك .. شدته من ساعده ليرقصا .. التصقت به عندما بدأ خوليو اجليسيوس .. ثم تبلمته مع فريق الابا وانسحبوا ليرقدا متجاورين خلف حمام السباحة .

القمر بدر ونسمة هواء باردة تنعشهما .. وكان قد بدأ يثقل .

سألها بدون مقدمات - ولكن هل مصرح لاي فرد بالاتجار .. ؟

ثم رد على نفسه - لابد من ترخيص .. ولابد من تحديد مصدر البضائع وسعرها ولابد من تحديد هل دفع رسوم عليها ام لا .. ثم هناك قانون يحدد نسبة الارباح بحيث لا تزيد عن خمسة عشر بالمائة .

نظرت اليه بخيبة امل .. ثم اجابت :

اذا كانت الامور تسير بهذه الطريقة فكيف اصبح هؤلاء مليونيرات .

ثم مدت كفيها الى مراكن الضعف فى رأسه وبدأت تغالغ تردده .

— هذه العملية بسيطة .. المهم العملية الأخرى .

قاطعها كما لو كان قد وجد قشة يتعلق بها .

— أنا بقول أنهم يدفعوا القرشين دول لبتوع الجمارك ويخلصوا على البضاعة ونبقى صح أحسن .

نارت أصبحت كالنمرة .. لقد لمر كل تعبها بضعفه .

— أنت ايه .. ظلمت لك لازم نثبت لهم أننا بقدر نعمل من شىء .

انت فاكرك أنهم نايمين فى أمريكا .. دول عارفين كل حاجة .. ويعرفوا أكثر منك عن بلدك .. ولو م أثبتش أنك قد المسئولية حيندوروا على واحد تالتى أديك شفقت عد لك بكلم « ابن » آخر مرة أفكرك ابن عثمان وابن حسن علام وابن على أيوب وابن يونس .

أسكتها بيده حاول تقبيلها .. ولكنها تملصت منه .. وقتت بعيدا عنه قالت مش حطمتنى أو تقرب منى إلا لما تبقى زى م أنا عايزة .. ثم بدلال أنا عايزة مصلحتك .. مصلحتنا .

عندما أخذوا الميرالات السلفة .. ذهبوا الى سوق الحديد لشراء بعض احتياجاتهم .

السوق يجمع بالرجال ذوى الشورنات والقمصان الصيفى الكاكى .. وعربات الجيش المختلفة .. جنود وصف ضباط وصغار الضباط حتى المقدمين والمعتداء .. عربات جيب قيادة وجيب صغيرة وعربات بصندوق .. خفيفة وثقيلة .. الجميع يحملون كسوفيا باحتياجات موصفة لهم بدقة .. تميص نوم برلون أزرق فاتح — كيتشن ماشين مولينكس بها عجان .. شيشوار به فرشاة شعر برتقالي .. وهكذا .. حتى مستوى الصابون ومعجون الإنسان والكولونيا .

وكان السوق ينقسم الى قسمين .. الجديد منه أقيم خصيصا بعد وصول القوات المصرية ويحتله تجار عدنيون وهم تجار بالنطرة بغناطون ويخلفون أيما كاذبة ويستقطبون الزبائن بكل الحيل ويجهلون السلعة .

وهؤلاء كانوا يتعاملون أساسا مع الضباط يبهرونهم بكل جديد فى الاسواق العالمية .

والقسم الآخر القديم أو السوق الاصلى فيتاجر فيه البنيون .. يجلس التاجر امام دكانه مسهرا يلوك نباتا أخضر فى فيه وكل يضع دقائق ييمص

بجواره عصر اللقات .. وفى هذه الحالة يسمى الرجل مخزنا .. أى يخزن
القاتل فى فبه إذا اقتربت مئة لشراء بضاعته .. لا يرد عليك ثم يشير بأصبعه
لتعطل وتأخذ ما تريد .. ثم تعود لتمطيه الفتود يقلبها فى يده وإذا وافق وضعها
بكسل فى جيبه وإذا لم يوافق يردها لك بقرف ويخطف البضاعة منك ويقذفها
لتستقر بجوار زميلاتها فى اكوام غير مرتبة .

والسوق الثانى رائحة مميزة تجمع بين القراب والعفن والعرق والابخرة
رائحة نفاذة غير محببة .

فى هذا السوق تشاهد الصينيين بملابسهم المعقدة المركبة وعلى رؤوسهم
غطاء يشبه العمة المصرية بلافيف كثيرة .. وكل منهم يحيط وسطه خزام
جلدى عريض يتوسطه خنجر يختلف قيمته وطوله باختلاف مقام الرجل ..
وهو غال قد يصل سعر خنجر متوسط الى اربعمئة ريال اليمنى أى حوالى
مائة وخمسين جنيها .

فى هذا السوق يسكن أن يقترب منك ولد صغير ويهمس « بتريد تخنس »
أى هل تريد أن تراول الجنس .. فإذا كنت قد فقدت عقلك يمكنك الذهاب
معه معرضا نفسك للسرقة والقتل وأيضا للإبراض الجنسية المعروفة وغير
المعروفة فمنى اليمن حرية جنسية غريبة والأمراض الجنسية ظاهرة عادية
ولا تعالج .

كان تجار السوق الجديد يعرفون الضباط القدامى .. ويرحبون بهم ..
اشترى أحدهم ماكينة لاعداد الجيلاتى بعد وضعتها فى الفريزر وتوصيلها
بالكهرباء واشترى آخر ماكينة حلاقة بالكهرباء .. وثالث ورابع .. واشترى
صديقنا بريالاته المحدودة نظارة وولاعة .

بدل أحدهم الدولارات واسترلينى الى جنيهات مصرية وشرح غلسفته
تائلا :

أى جهاز من الذى أنت شايهم يوجد فى مصر ولكن بزيادة من ٢٠٪ الى
٣٠٪ بالمائة مرق العملة يوازى من ١٢٠ الى ١٥٠ بالمائة .. ايها أرخص
مبدل الشراء والنقل والحمل والغلبة دى .. أحول الدولارات لمصرى بمكسب
ثم أشتري من مصر .

آخرون اشترى سبائر كيلوباترا بستة قروش أو خمسة قروش
بكيات كبيرة لقد كان هذا السعر نصف سعرها فى مصر .. وفى حالة بيعها
يحققون مكاسب مناسبة .

كانت المهمات الخاصة بالادبيات قد اكملت .. وركبت وصبيت
الخرسالة العادية أسفلها .. وركب الرقيب السباك فناطيس المياه والمواسير
والحنفيات وطلبة رافعة .. وانتهى البلوزير من تسوية الموقع .. وتم
تركيب السور المبروق والبوابة .. واستعدوا للعودة .

ركب صديقنا في كابينة العرببة .. ثم دعى الجنود والصف ضباط
للركوب في الصندوق المكشوف .. وجد الرقيب السباك يربط رأسه بمنديل
ويحاول على نفسه ليصعد الى الصندوق .. سبح له بالركوب جواره ..
فأصبح كلاهما في الكابينة بجوار السائق .

كان القائد يقف أمام خيمته عندما شاهد العرببة وبكابينتها صديقنا
والسباك غضب .. طلبه الى مكتبه .

— يا سيادة الرقيب أنا قلت بيت مرة لا تصح هذه التصرفات .

— ماذا حدث يا فندم (محاولا كسب بعض الوقت) .

— ليه السباك يركب بجوارك .

— يا فندم كان (قاطعه) .

— انت مش عارف ان ممنوع يركب اثنان بجوار السائق واتنى عاقبت
ضابطين ركبا بجوار السائق .

— يا فندم اصل (قاطعه) .

— لا اقبل أعذار .. هذا انحلال .. يجب ان يكون لك برستيدج
الضباط الضابط .. ضابط .. والجندي .. جندي .. تكلمه .. تعتنى به ..
تحافظ عليه لكن لازم تجمع بين الحب والخوف والاحترام .. يحبك ويحترمك
ويخاف منك .. افضل .

غضب صديقنا وقاطع الغذاء الجماعي ثلاثة ايام .. كان يطلب غذاءه
منفصلا ولا يجلس معهم عصرا .. ولا يذهب ليلاج الزوس .

وانتقلت الكتيبة الى الموقع الجديد .. ووصل من مصر باقى أفرادها
بقيادة رئيس العمليات الجديد وقائد سرية جديد أيضا .

في ليلة اليوم الثالث .. جاءت اشارة من المخابرات سلبها الجندي
لرئيس العمليات .. ذهب الى صديقنا ايقظه من نومه وطلب منه ارتداء
ملابسه .

قال له انه جاءتهم اشارة من المخابرات بانفجار متنبلة يدوية ويطلبون
احد المهندسين للكشف عن قنابل لم تنفجر بعد .

— طيب وأنا مالى .

— ستذهب أنت .

— ولماذا أنا .. أنا لا أنهم فى القنابل اليدوية .

سكت الآخر قليلا فلقد تصور انه ضابط مفضوب عليه من التصاد
لانه لا يتناول غذاءه معهم لذلك فلقد أوكل له هذه المهمة القاتلة .. ثم تنبه
مع ردود صديقتنا الى انه ينصرف بطريقة خاطئة .
استكمل حديثه :

— طيب دور على سيادة المقدم فى الحديدية وقول له يتصرف .

— حاضرا .

— اوعى تفكر حاجة انا معرفكوش ومطلوب منى ان اتصرف .

ذهب لقائد الكتيبة .. لقد كان يعرف دائما أين يجده .. وجده يركب
عربيته .. قدم له الاشارة .. وضع الآخر ساعده حول كتف صديقتنا
وناقشه بود :

— مين تالك تيجى هنا .

— سيادة الرائد .

— هل كان يعرف مكانى .

— لا ولكنى اعرف أين ستكون .. فهنا لا يوجد كباريه أو سينا .

ضحك الآخر .. ثم اركبه معه عربيته وذهبا الى المخابرات .

قال لهم — هذه ليست وظيفتنا : . انها مهمة التسليح ومن فضلكم
نرجوا الا تخطئوا بعد ذلك بين مهامنا .. اتفضلوا الاشارة .. سلام عليكم .

قدم لصديقتنا سيجارة .. اشعل له سيجارته بولاعته الجديدة ..
اخذاها منه وبعدا يقلبها بين كفيه .. كانت رائحة الويسكى واضحة .

— مئين دى .

— اشتريتها .

— واشتريت ايه كمان .

— نظارة بيمسوك .

عظيم .. عظيم .. ابتدينا .. كنت فلكرت اصلب من كده .

كانت العرببة قد وصلت الى مقر الكتيبة .. نزل منها واتجه الى خيمته
والآخر يتبعه .

طلب من الجندي المراسلة أن يضع كرسيين على شاطئ البحر .
ثم طالب منه فنجائين كهوة ثقيلة وحياة أبوه .
جلسا متقابلين .. حرارة الجو أصبحت أقل .. نسيمات رطبة تهب
من البحر مباشرة .

سأله — قوللى يا باشمهندس أيه هي الشيوعية ؟
نوجيء صديقنا بالسؤال .. آخر ما يتوقع سماعه .

أجاب — الشيوعية .. الشيوعية بذهب اقتصادى اجتماعى سياسى
وينقسم الى قسمين .. النظرى وضع أسسه كارل ماركس وإنجلز ..
والعملى طبقة لينين وملاو لكن سيادتك بتسأل ليه .. ؟؟

أجاب الآخر : أكمل .. عايز اتعلم .. انت شريكى .

— بدأ التطبيق العملى فى الاتحاد السوفيتى .

— ولكن هل الاتحاد السوفيتى نجح فى تطبيق الشيوعية ؟؟ . —

— الاتحاد السوفيتى نفسه لا يدعى هذا .. انهم لازالوا دولة
استراكية .

الشيوعية تحتاج لأجيال .. ولها مقومات لم تتوفر بعد .. ولم توجد
بعد الدولة الشيوعية .

— طيب وما هو الجانب النظرى :

— نقصد سيادتك المادية الجدلية والتاريخية .

— عفالم عليك .

وهنا اكتشف صديقنا أن قائده قد درس الشيوعية .. وبدأ يردد ..
ثم يسرد بعض المعلومات المشوشة .

وأخيرا قال — انيا التراكم الكمى البطيء الذى يمتبه تغسير نوعى
سريع .

أجاب الآخر — اذا فهو تراكم كمى بطيء .. يعنى فى البداية نظارة
بيرسول وولاعة رونسون .. ثم بوتالجاز المصانع لا يصلح .. الفرنسى
انزل .. ثم اثلاجة الايديال صغيرة وستجهاوس اكبر .. والشقة ضيقة
على الاولاد فيلا تناسبهم .. ويعكوكة صغيرة بدل زحمة الأتوبيس .. ثم

تكبير وتكبر التطلعات التى لا نهاية لها ويحدث التغير النوعى فتبيع روحك وجهك ومبادئك .. و .. حتى بلدك .

وكان دشًا باردًا سقط على الرأس المتهبة .. ضحك القائد المنتشى ثم سحبه من يده لداخل الخيمة .. غير ملابسه .. ارتدى جلبابًا أبيض .. غسل رأسه جفف وجهه وأخرج مشربياته ليربها لصديقنا .

أندهش أكثر .. اتسعت عيناه ... ما الذى يريده ؟؟

تكلم الآخر كما لو كان منوما .

— عندما كنت فى سنك .. كنا فى الطبيعة الوعديّة .. وهى شباب يسار الوفد كنت متحمسًا جدًا .. ويا ما فخلت معارك مع الأخوة .. (الإخوان بالطبع) (وهم غدارين) .. انتظرونى فى الظلام وأخذت مطوّة فى نخدى .. علامتها لازالت هنا .. ولكن .. ولكنى تغيرت الآن .. أنا غير مستعد لأى مشاكل .. مرتبى منزلى .. عائلتى .. احنا جيل انتهى .. ضربونا بالكرياج .. أتلّفونا ولكن أنتم ما عذركم .. تصبح على خير يا باشمهندس .

كان عائداً لخيمته .. كلام القائد يضغط على رأسه .

فى البدء ولاعة .. وفى النهاية تغير نوعى .

قابله رئيس العمليات سألّه ماذا فعل .

لم يرد عليه .. اتجه الى سريره .. كان ينظر الى الدولاب الذى وضع فيه ملابسه وأشيائه برعب كما لو كان بداخله قنابل زمنية قابلة للانفجار .

الفصل الرابع عشر

كانت ليلتهما الأخيرة في القرية .. مرت الأيام بسرعة غريبة .. كان كل منهما قد اكتشف زميله وتصور أنه فهمه .

لقد وصل الى قناعة نهائية بانها خطر عليه .. تطلعاتها اكبر من طاقته وامكانياته .. انها من نوع النساء الذى يهوى بالرجال الى الحضيض كالملاك الأزرق .. وكارمن ..

لو أنه استمر في علاقته بها فكيف يستطيع ان يواجه والده او قائده بنواياها لقد تعلم من حريق القاهرة انه لا يحق له ان يغتم لنفسه من خلال خراب بلده .. انهم يفلونها ويقلونه .. انه يضحي برأس والده المرفوعة وعزة نفسه يوم أن رفض الاقتراب من رأس السلطة رغم صداقته بهما .

لقد كشفت أوراقها بالكامل عما هي الا كوميديا دور يعمل بإشارة من اسياده وبتيه على مواطنيه بالفتات التي حصل عليها منهم .. وهو يرفض هذه الوظيفة وعادته رومانسيته .. لقد قرر اللجوء الى قوة الاستغناء انها وسيلته دائما لمواجهة مثل هذه المواقف سيستغنى عنها وعنهم وعنه .

وعادته احلام الحرية التي كان يحلم بها في طفولته .. عليه ان يختار .. هكذا قال سارتر .. ان الانسان يتحدد ماهيته باختياراته .

لقد تصور انهم في حاجة الى عليه .. وتجربته وشرفه .. ولكن اتضح انهم بحاجة الى مقلب تط يلتقط لهم ولها الثمرات الناضجة من الاثون .

وقرر ان يخسر العالم كله ويكسب نفسه .. سيستقبل ويبيع اسميه ويسترد كميالته وهم الخاسرون لن يكون كوميديا دورا .

وكانت تتصور انها مهمته .. انه جبان محدود الطموح .. ولكنه
أصبح عجينة طيبة في يدها تستخدمها بالطريقة التي تريدها .. ستجربه
في العملية الأولى انها في حاجة الى اتصالاته وفكائه ومعرفته بهذا الواقع
المتشابك .. وبعد ذلك ستحدد موقفها .

كان الليل قد انتصف .. وكنا قد عادا لعشهما بعد أن شربنا حتى
أصبحت في حالة سكر بين .

خلعت ملابسها .. ارتدت مايو بكيني أسود .. ربطت كل المناشير
والإشاريات التي معها حول وسطها .. ثم لبست جميع العقود والخرز
والؤلؤ حول رقبتها وصدرها .. وبدأت ترقص بلديا وتطشوح .. كانت
تحاول أن تجدد حتى لا يمل وكان رائدا على السرير يراقبها ويحاول أن
يجعلها تتصور أنه منجذب لها .. لم يكن قد حان الوقت بعد لمبارحتها
بموقفه .. أو هو يرتشف الكأس حتى الثمالة .

عندما تعبنا من الرقص .. رقدت جواره وهي تداعب شعره الأسود
الكث الفاحم وتقبله كما لو كانت ستأكله .. قالت في محاولة لاستعادته :
العملية التي قلت لك عليها سرية جدا .. وحياتي تظاهر أنك لا تعرفها
لقد قابلوا أمريكا يعمل في مصر وله صلات واسعة .. لقد شاهدوا صورة
مع أكثر من مسئول .. وعدهم أنه سيحيل اليهم مدينة سكنية كاملة .

لقد راوا اللوحات والمواصفات أخذ منهم عشرين ألفا حتى الآن ..
كمصاريف ولكمهم سيحصلون عليها .. تصور ماذا سيكون نصيبنا من هذه
العملية .

كان يستمع اليها وهو صامت .. عندما أنهت كلامها علق :

لا يمكن هذا نصب .. لا يمكن إحالة مدينة سكنية لشركة مهما كانت
بالأمر المباشر لابد من عمل عطاء .. انتم لن تفهموا السوق المصري أبدا .

حتى في حالة التواطؤ فالأمر يتم بإجراءات قانونية مائة بالمائة ..
كل ما يحدث أنهم يتيحون للتواطؤ معه فرصة أفضل .. تصل لدرجة
تغيير المستندات بعد فتح العطاءات .. أو التجسس على المنافسين أو إخفاء
بعض المعلومات عنهم .. لكن هذه الطريقة نصب .. كلهم تنصون .. ثم
استدار ونام .

— ما رأيك لو أنصلت أنت بالمستولين وحصلت لهم على العملية ..
ستكون عمولتنا كبيرة لدرجة تستحق التعب من أجل المشروع ..

ضحك ثم قال - رينا يسهل .

عندما استدعوا قائد الكتيبة للمقابلة في رئاسة الفرقة .. كان قد اخرج كرسيًا أمام خيمته وجلس يقرأ كتابًا في الاقتصاد السياسى .. كان الكاتب يتكلم عن الملكية الخاصة ونشأتها مع المجتمع الزراعى .. والتطورات التى أحدثتها على العلاقات البشرية اقترب منه رئيس العمليات الجسديد بحذر وترقب خوفا من رد فعل مماثل لتصرفه فى الليلة السابقة .. لقد تصور انه فى مواجهة شخصية غريبة ذلك الذى يمكنه مقاطعة قائد الكتيبة وفى نفس الوقت يقضى معه ساعات يتناقشان منفردين .. وكان يخاف ان يكون صديقنا قد اكتشف سبب اختياره له للقيام بمهمة الأمس الخطرة .

- صباح الخير يا سيادة النقيب .

- صباح الخير يا فندم ..

(قالها دون أن يرفع رأسه عن كتابه) ..

- عملت ايه امبارح ؟ ..

- سيادة المقدم قال لهم انه ليس اختصاصنا .

- ولقيت المقدم فلين ؟

- انا دائما أعرف أين أجده .

حاول الآخر إطالة الحديث .. فهو يريد أن يحدد شخصية قائد الكتيبة على الأقل ان لم يكن شخصيتهما .. وهذه دائما طريقة أى قائد ثان جديد .

- أوع تكون زعلت منى انا جديد ولا أعرفكم واخترتك بصفتك ضابط استطلاع وأقدم ضابط عائش فى الكتيبة .. وتوسمت فيك أنك ملحق وحتتصرف .

- شكرا .. اننا مش زعلان يا فندم .. كان لازم واحد يتصرف .

فى هذا الوقت ظهرت عربة القائد وهى تجتاز البوابة .. فتركه سريعا ليكتشف أسباب استدعاء القائد .

جلس كلاهما فى خيمة مكتب القائد ثم استدعيا قائد السرية الجديد . وبعد قائد السرية الذى تعلم الترخين لأنهم يزودونهم بالمجائر مجانا .

بعد قليل اقترب أحدهما من صديقنا .

تحب تطلع مأمورية .. انا شايف أنك متوتر هنا .

— وليه لا .

— مطلوب سرية في مأمورية خاصة .

— هذا سبب استدعاء القائد ؟

— آه ..

— أكون قائدها .. لن أذهب ومعى قائد سرية .

— ليسه .

— لاننى اكبر من ان اكون قائد نصيلة .. ولاننى منذ بداية عملى هنا
وانا اعلم منفردا ولاننى لا احترم قادة السرايا .. فأى شخص طلب نقله
لكتيبة مسافرة اليهن مخصوص فى نظرى انتهازى ولا اثق فيه .

— ولكن قائد السرية الجديد شخص ممتاز وحييحبك .

— رد الآخر بحزم الذى لا يقبل مناقشة — مع احترامى لفيك ..
فان لك نظيرة مخالفة لنظرتى للحياة .. أرجوك اذا كانوا مسد أرسلوك
لسؤالى .. فردى لا اليس معه قادة نصائل .. !! ولا ابتدئنا نلقح مأموريات
على بعض .

كان رد صديقنا حاداً ومحدداً .. انه لا يجالنع من القيام بأى مأمورية
.. ولكنه لا يثق فى انتهازية من طلب سيغره لليمن من أجل مكاسبها ..
انه يعادى بذلك نصف ضباط الكتيبة بادئا برئيس عملياتها .. لقد رده
حوار الأمس مع قائده الى أقصى اليسار .. ألم أقل لكم انها سبة
طبقتة .

استدعاهم قائد الكتيبة .. رئيس العمليات وقائد السرية الجديد
وصديقنا . دون أن يتيح لاحدهم الكلام لبس قناع الجدية .. وأصدر
تعليماته —

الموضوع الذى حثكلم فيه موضوع حساس وهام .. وهو أول
عمل تكلف به الكتيبة وقد تكون الفرقة فى اليمن .. نستطيع أن نعتبره
أمراً على المستوى الاستراتيجى صدر من القيادة السياسية لقيادة القوات
لقيادة الفرقة التى كلمت كتيبتنا بتنفيذه ثم همس — انها أوامر الرئيس
بنفسه .

فى حرض على حدود السعودية .. المدينة التى عقدوا فيها مؤتمر
السلام الأخير يوجد وادى .. هذا الوادى جاف الآن .. ولكن بعد

شهرين ستسقط الأمطار وتملؤه .. وستذهب المياه الى السعودية
حيث تروى عشرة آلاف فدان .

في نهاية الوادى وقرب الحدود السعودية يوجد مضيق كان عليه
سد ترابى يحجز هذه الكمية من الماء .. ويروى حوالى من خمسة الى
ثمانية الاف فدان بالثمن تبعم هذا السد .. وهاجر اليمنى من ارضهم
الى الأرض التى يروىها المجرى المائى فى السعودية .. وهؤلاء هم سبب
المشكلة .. فالسعودية تستخدمهم فى حملات الاغارة والنسل .. لذلك
قررت القيادة السياسية .. اعادة انشاء السد لتمنع المياه عن السعودية
وتروى بها أرض يمنية .. وتصبح المنطقة الحدودية منطقة محروقة ..
اى لا يوجد بها سكان فيسهل مراقبتها والتحرك من خلالها كما ذكرت
موسم الامطار بعد شهرين .. والتقارير المبدئية حددت ان انشاء السد
يحتاج الى سرية لمدة اربعة شهور .. كما ترون المهمة صعبة وموق
الطاقة خصوصا لو تصورنا ردود فعل السعوديين .. وما ستفعله مع
انشاء السد الغام وشراك خداعية .. وقد يصل الأمر الى اغارة
بالقنصات .

يوجد فى المنطقة لواء مشاة واخر للمدفعية غير مجموعة القوات
الخاصة وبالطبع فى الاحتياط باتى الفرقة فى الخلف بمعنى ان هناك قنصات
للحماية صمت قليلا ليراقب ردود انفعالهم ثم اكمل —

اخترت السرية الاولى بقيادة سيادة النقيب وتدعيم سيادة النقيب ..
(وأتسار اليهما) رغم معرفتى بمعارضة كليهما للاختيار .

أصدهما يقول — أنه لا يصح ان يحضر معه ضابط لا يربط ان
يتعاون . وأتسار الى قائد السرية .

والثانى يقول — أنا لا اعرفه وقد كبرت على ان اكون قائد فصيلة
(وأشار لصديقنا) لذلك وحلا لهذه المشكلة نستطيع ان نسمى السرية الاولى
بأمورية عمل لها قائد وهاد ثان .. لماذا أخذت هذا الشكل .

لأن قائد المأمورية يمتلك خبرة المهندس المعنى وخبرة التنفيذ ولكنه
جديد على الكتيبة وعلى أفرادها ولا يعقل أن يخرج قائد بأمراد لا يعرفهم
بأمورية لأول مرة . والعكس القائد الثانى يعرف أفراد الكتيبة بالفرد
ويربطه بهم علاقات انسانية ولكنه أقل حذراً وأكثر انفعالا خصوصا
عندما يقتنع بفكرة ما مثل العلاقات الانسانية مع اليمنيين .

• سندعم السرية ببلدوزرين على كاوتش .. على قائد المأمورية
التجهيز للسفر بأخذ رأى رئيس العمليا متوالقائد الثانى .. وله الحق فى
استخدام جميع امكانيات الكتبية .. نمام الاستعدادات الماشرة صباح باكر
وسأنتش على المأمورية بنفسى .. نسكرا وحظا مرفقا للمأمورية
والكتبية .. وتفضلوا .

لم يتح لى منبنا مناقشة الموضوع .. لقد تنهم الموقف جيدا . تنهم
وجهة نظر جميع معاونين ثم أصدر أمر قتال كما يدرس تماما فى الكلية
الحربية ومدرسة المهندسين والمنارات .
لقد كان قائدا قويا .. ذكيا .. متفهما تماما مهله وكانت أوامره
مدروسة تدعو للثقة .. لقد طرح عليهم كل الحقائق .. بصراحة مناسبة
للموقف .

حذريهم من المخاطر بشكل واضح حدد خطته .. وكان عليهم ان
يصنلوا ويهتوء لذلك لم يعترض صديقنا بل أصبح أكثر تجاوبا ورغبة فى
التعاون .. ألم أقل لكم انه ينتقل بسهولة من أقصى اليس الى أقصى
اليسار .

الغريب منه قائد المأمورية اعطاه كتابا ثم علق —

خذ ياباشههندس اقرا ما بين الصفحتين المطويتين .. كان الموضوع
عن تصميم وانشاء السدود الترابية .

تعجب صديقنا من أين أتى بهذا الكتاب .. ثم عرف بعد ذلك انه
يستعد لتقديم دبلوم فى الاساسات وميكانيكا التربة وأنه أحضر معه كُتبه
ليذاكر أثناء تواجده بالذين كما تصرف قائد المأمورية ايضا ناجحا وعلى
مستوى الموقف لقد استطاع ان يبدا علاقتهم بالثقة .. فلقد زادت ثقة
صديقنا فى معلوماته الهندسية .. وزادت ثقته بنفسه بعد ان قرأ الورقة
المطويات .. كانت كل الظواهر تشير الى انهم سيبدأون عملا ناجحا .

اختاروا الصف ضباط وسائقى المعدات واستلموا البلدوزرين الملحقين
عليهم . كانوا يتحركان على كاوتش .. عندما اعترض صديقنا .. رد قائد
المأمورية بأن الطريق لحرض ترابى ولا يتحمل جرارا بهتطورة يحمل بلدوزر
على كائفة لذلك زودوهم بأخرى تتحرك على عجل لتستطيع الوصول .

حملوا خمس عربات بالجنود والمعدات الخاصة بالاعاشة — الخيام
— غناطيس المياه ادبخانات — سراير للضباط فقط .. للجنود والصف

ينامون على الأرض حتى في الحديدة على البحر .. وبعض شكاير الاسمنت ومعدات الحفر اليدوية وجراكن مياه بمقلاة وتمييز تتحرك والسلاح الشخصي للجنود وصناديق ذخيرة ووصف الطريق .. قسرون على هذا المدق حتى وأدى مور .. ثم تعبرونه الى عيس .. ثم منها الى قتل حوض انه المدق الوحيد وستجدون نقط مرور ترشدكم . في تمام العاشرة نقش قائد الكتيبة على القبول ثم استدعاهم لخيته —

— احثا بندرس تكتيك وتاريخ ليه .. !! .. علشان منستخدمنوش وكل مرة نتعلم من أول وجسديد .

المنظر بتاعكم ده .. معناه انكم قررتم الانتحار وقتل جنودكم قبل وصولكم لحرض المهمات تبالا العربيات والجنود فوقها .. ثم كمين وطلقات نار من كل اتجاه ويقتل ويقتل ويقتل من يقفز ليذبح على الأرض .

الحل لو كنا عايزين نتعلم من خبرة الدماء المسفوكة .. الجنود من جانبي العربية . وجوههم للخارج كل منهم معه بنقطة وبها خزينة الطلقات معدة للضرب .

نرد معه رشاش في مقدمة العربية . كل جندي اوصف ضابط على راسه الخوذة حدث كمين تفتح العربيات سرعتها على الآخر .. الجنود تشتبك من فوق العربيات البلدوزرات امانك سرعتها نفس سرعتكم لتستطيعوا حمايتها .

اصطف انقل بالاشكل الذي اتسار به القائد ثم اطلقت البلدوزرات صارتها التي تشبه سراين البوليس واحتضنهم زملاؤهم ثم تجمعوا حول السور يلوحون لهم ويبكون فقد كانوا جميعا مثلكين انها سرية انتحارية ذهبت لتسوت .

ضفط القائد على كمة ثم همس بحب . فقتى بك كبيرة خللى بالك من نفسك . تحرك القبول في الطريق الذي يتصل بمعسكرات وحدات الفرقة المختلفة وكثائبها وهو يطن عن نفسه بساينة البلدوزرات وخرج الضباط والجنود يودعونهم ويلوحون لهم . يرمعون ايديهم المتعاسكة الاعلى فلقد كانوا المأمورية الاولى للفرقة .

كان يوعى فائلة بيضاء بنصف كهم وشورت ابيض قصير وصندل .. ويملق على تكتمه نظارة ميدان ويضع النظارة البيرسول الجديدة .. ويجلس في العربية الانجيرة فلقد كان قائد المأمورية في أول عربية .. وهو في آخر عربية ليحكها السيطرة على القبول الذي ترك الحديدة وبدأ يتحرك على المدق

حركة العربيات تتسبب في تكوين سحابة من التراب خلفها يتعذر معها الرؤية الجنود بأعلى الصندوق وجوههم للخارج .. أحدهم يثأر فوق بندقيته .. قد تنطلق رصاصة خاطئة من أحدهم تتسبب في مشاكل لا يعلم مداها .

كان يشعر بأهمية البقعة .. وأهمية أن يصلوا سالمين بعد تلقين قائد الكتيبة إما هم فلم يحدثهم أحد .

ان الطريق بالنسبة لهم عذاب للوضع الشاذ الذي يجلسون به .. وكأنها تنبه فجأة الى انه أصبح في حماية هؤلاء الجنود وان سلامته وسلامتهم متوقفة على مدى يقظتهم وتحملهم المسؤولية .

ونجاة توقف القول .. ووجد قائد المأمورية يهرول فاحيته .. ياسيلادة النقيب من فضلك قبل أن نتقدم أريد أن اتكلم مع الجنود .

ونزل الجنود من عرباتهم .. وتوقفوا في صفوف أمامهم ضباط الصف وتكلم قائد المأمورية -

يا رجاله احنا رايعين في مأورية هامة جدا .. ومأثيين في وسط أعدائنا حياتنا ملهاش لازمة لكن الهدف إلى احنا رايعينه هو المهم .. لازم نوصل وبأى شكل .. نتجوا عنكم .. اى مخالفة للضبط والريط ساقابلها بأقصى جزاء مفهوم ثم استدار لصديقنا وقال هل تريد سيادتك أن تقول لهم شيئا .. ؟؟

قال صديقنا - اه من فضلك .. سيادة النقيب قال إلى عايز أقوله لكن عايز أوضح شيئا ان حياتنا لها لازمة ولها أهمية كبيرة لأنفسنا ولأهاليها ولبلدنا ولأزم نحافظ عليها مش نحافظ عليها الا بالانتباه الشديد والضبط والريط .

الى . يخالف مش حيتسبب في اذى نفسه نقط يل في اذى زملائه ووطنه أيضا وقد لاحظت . ان التراب الناتج من كل عربة يمين الرؤية للعربة التى خلفها ..

بعد اخذ قائد المأمورية .. يتحرك السائقون خلف خلافا .. يعنى ما نمشيش خلف بعضنا .. نتحرك في طابورين .. أول على اليمين والثانى على الشمال . وهكذا . كان يعجب كيف توصل كلاهما لنفس النتيجة في نفس الوقت .. ان المواقف هى التى تصنع الأفكار .. ليس كذلك .. ؟؟ يعنى هذا انك اذا وضعت مجموعة من الأفراد في ظرف معين بنفس

القدر .. فاعقد انهم سيصلون الى نتائج متقاربة ليس هذا ما تفعله البيثة
والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الاممرد .. ليس هذا
ما تفعله اجهزة الاعلام — الجريدة .. الاذاعة والتلفزيون .

الطريق ممتد .. غير مستو .. الصحراء تحيطه من اليمين واليسار ..
في بعض الاحيان يضطر القول للانحراف خارج المدق الذي يستحيل
السرفيه .. عثشس مقناثرة على هيئة اكواخ ذات اطراف مدببة .. شكلها
مألوف ليه .. ولكنه لايتذكر اين راها .. بتكرارها .. يتذكر .. في كتبنا ريوخ
العبارة انها مثال حتى لاكواخ عصر ما قبل التاريخ .. ويضحك .. لقد كانوا
يصنعونها من البوص بان يجففوا الاعواد ثم يغطونها من الداخل والخارج
بالطين لتتماسك النساء يلعبن بنطلونات واسعة معقودة من اعلى بواسطة
قطعة قماش ولدى القديمين تشبه ملابس الف ليلة .

الرجال بالعكس يرتدون الجلباب .. اطفال يتجمعون حول عربات
التسول ... قذرين جدا .. عرايا تها .. اغلبهم تطل من اعينهم نظرات
نكاء فطرى وحيوية رغم ضعفهم الواضح ينادون نداء غير مسبوع .

يفتح الزجاج ليسمعهم .. كانوا يقولون باسكو .. باسكو .. ماذا
يريدون ؟ يسأل أحد الجنود — يرد بانهم يريدون البسكويت الذي يأكلونه
ضمن تعيين التحريك .

عند نقطة مرور يقفون للاستراحة .. يردد صديقنا على الأرض في
ظل عربته قائد الممورية يقترب منه يجلس بجواره يعطيه ورقة مطوية
بفنها يجدها سلطة الجزاءات المنوحة له والعقوبات النى يستطيع توقيعها
على الصف والجنود بصفتة قائد مأمورية .. يعيدها له بدون تعليق .

الأخر يعلق — انها سلطاتك أيضا فمن حقت استخدامها مثلها
بالمنااسبة التعليق الى قلته للجنود كان مناسباً تهايا مدافع الحياة اقوى من
دافع الموت . ينظر للصف ضابط وهم يتحركون في حرية ويناقشون جنود
البوليس الحربي في نقطة المرور ثم يعلق —

شايف .. شايف الصف ضباط بيعملوا ايه مش معقول الغوضى دى .

ثم لصديقنا .. متزعزعلش منى انا جشدد عليهم شوية .. ويتف بصيح —

اركب كل الناس .. ثم يجع الصف ضباط .

سيادة النقيب يقول انكم احسن صف ضباط الكلية ومع ذلك انتم
ناس منحلين انما لن ارحم في الجزاءات ممنوع حد منكم ينزل من عربيته ..
الوقتة دى علشان نريح العربات ونزود المية .

رجع الصف ضباط منحلين فلم يتعودوا على مثل هذه المعاملة ..
خصوصا وهم متمسرون انهم فى مأمورية مع صديقنا .

القول يتوغل فى ارض اليمن .. الاعصاب مشدودة .. يخترقون
قرية .. لها نفس ملابس القرية المصرية .. الاطفال حفاة السيدات
فى سداخل اكواخهن يغسج . شوارع بيع الخضر .. الطيور تجرى امام
العربات .. الرجال ينظرون للجنود بمل .. الكل يندھش من شكل وصوت
البلدوزرات .. الحيوانات ترعى او مربوطة بحبل امام الكوخ ولكنها هزيلة
.. كلب مستلق يلهث من الحرارة .. كليات هائلة من الذباب تتجمع
حولها .. الاطفال يصيحون باسكو .. باسكو .. الجنود يقنفونهم
بالبسكويت .. الشبان يطرقون زجاج العربات ويطلبون بولوبيف او
سردين او علب خضار .. ولد صغير يطلب سيجارة .. لقد تعودوا
على ثروات الجيش .. الرجال يرغبون امام اكواخهم يضيفون القات ..
يلبسون الطرابيش الخوص .. ينظرون لهم بملل وتبلد .. يسرعون
بالخروج من القرية .

ويتكرر هذا المشهد عدة مرات .. وتنتهى الدهشة الاولى .. فيفرق
كل منهم داخل نفسه .. فى عالم خاص به .. حتى يصلوا فى الخابية الى
وادي مور ويقرروا ان يقضوا ليلتهم فى هذا المكان .. فهو منطقة تسون ادارية
اللاواء الذى يحتل المنطقة وبها قوات مصرية وفصيلة مهندسين كبارى
مسئولة عن انشاء مخاضات لتعبر عليها القوات .

العربات تنتشر .. الجنود تعد خيامها الصغيرة (هيكات) لتستخدمها فى
النوم .. يضع مرتبته تحت عربة من العربات .. كل منهم يستخدم جزءا
من تعيين التحرك لتناول عشاءه .

الصف ضباط يحيطون بصديقنا ليشكوا له من قائد المأمورية ..
جنديان يههسان ثم يتجهان فى اتجاه محد .. يهردان بعد فترة يشحكان
ويتغامزان .

آخر يذهب في نفس الاتجاه .. يتبعه صديقنا ليجد ينيا يجلس على
مسطبة أيام كوخ . معه ثلاث فتيات بيضاوات .. الجندي يميل عليه
بحديثه يسير لوحدة منهم ثم يدخلان الى الكوخ .

يقص ملاحظاته علي قائد المأورية .. يطلبان من الصف ضباط مراقبة
الجنود حتى لا يصاب احدهم بمرض .

ضابط غريب يطلب من صديقنا مصاحبتهم صباحا خلال رحلتهم ..
ثم يتحدث معه .. كان مهندسا زراعييا .. لذلك فهو يتنقل بين الوحدات
المختلفة ليهتم بمزارعها .. كان خفيف الظل ويتعامل مع اصعب المواقف
بحرح .. ويعلق على الحرب فيقول -

هنا لا تعرف الفرق بين الجمهوري والملكي .. كلهم جمهوريون ..
وكلهم ملكيون ولا تحكمهم اى قوانين .. ان وحدات كاملة من الجيش
الجمهوري بعد ان يتم تسليحها تنضم الى القوات الملكية .. ثم يضحك
وهو يقص قصة احد قادة فصائل الدبابات اليمينية الذي حاول عبور
الوادي بدبابته فغرزت .. احضر اخرى ليخرج بها الاولى فغرزت الثانية
واندمست الاولى لمعق النجى وغرقت .. فأخذ الدبابة الثالثة الخاصة
بالفضيلة وانضم بهنك للملكيين .

زعماء القبائل هنا لهم مرتبات .. بعد ان يصرفها يطرقع كإم وصاصة
.. فيزيبون له الرتب .. فيسكت .. ليه سبكت متعرفش .. ليه ضرب
برضه متعرفش .

الحياة هنا مخالفة تماما لكل معلوماتنا .. اليهنيون لايعرفون الفارق
بين النظامين الجمهوري والملكي .. توجد فقط قبائل متمردة .. هناك في
اعلى الجبل في منطقة اسمها الطور .. لذلك في طويتنا سنسلك طريقا
اخر لا يمر اسفلهم فقد تكون الفزالة شغالة ويطحونا .. هم حقيقى معاهم
بنادق من ايام سيدنا نوح من التي تضرب رصاصا ثم تحشوها لتضرب
اخرى لكن الرصاصه برجل خصوصا لو كان دم .. دم .

دم .. دم يا سيدى رصاص ينفجر على مرتين لذلك يصدر صوتين دم
ويمسكين ثم اخري نسموه الجنود دم .. دم .. وهو رصاص محرم لأن
الرصاصه بعد الاصابة الاولى تنفجر داخل الجسم .. ثم يضحك .

أوعى رجالك تروح لابو فتحية .. احسن بناته عندهن زهرى ..
تصور الرجل مسرح مراته وبناته بعلم الخضار والبولوبيف يخرب بيته
هذى نصفنا نساكر الجيش المضرى .

الشمس يلاً ضوءها المكان بعض الجنود يسبحون في مجرى الوادى ..
وبعضهم يصنع الشاي في علب صفيح على عيدان حطب .. وجسد صديقنا
أصبح مفكوكا كل جزء منه يعمل منفصلا من الرطوبة .

قائد المأمورية يصيح ليعيد الجنود مهماتهم الى العربيات .. يصدر
تعليماته سفتحرك بعد نصف ساعة .

يجلس فوق صندوق يطلق دفته بالسترخاء .. يشمر بختين لمصر ..
يريد أن يرقد تحت شجر الكلية الحربية بجوار القنالية يتناول افطاره ..
أحد الجنود يحضر له كوز شاي هدية من قائد المأمورية .. يفكر .. لو
انهم بدلا من رشوة زعماء القبائل زرعوا هذه الارض وساعدوا هؤلاء البدو
على الهبوط من أعلى الجبل والاستقرار .. لو أن الجهد الذى يبذلونه بذله
خبراء الزراعة بدلا من خبراء الحرب .. ودوى صوت ملاكينات الرى بدلا من
صوت ملاكينات ضرب النار وانتقل هؤلاء من عصر البداوة الى عصر الزراعة
الم يكن ذلك أوفر وأفضل لجميع الاطراف .. كان سيقتضى على ترودهم ..
ثورتهم .. غضبهم وصراعاتهم .. حل طويل المدى ولكن أكثر ضمنا .

القول يتحرك يعبر المخاضة الى الجانب الاكثر خطورة في اتجاه
عبس ... المناظر تتغير .. حقول مزروعة على الجانبين .. السكان اقرب
للفلاح المصرى اللون الاسود يقلب عليهم .. جدودهم هاجروا من الحبشة
واستوطنوا هذا الجزء أحفاد الملك أبرهة الذى غزا جزيرة العرب وحاول
هدم الكعبة ... النساء عاريات الصدور .. لا يلبسن الا أحزمة على هيئة
جيب حول الوسط أما الشديان نظاهران .. بعضهن ذوات قوام رائع ..
وأثناء مشجودة بعضهن أنداؤهن متهدلة أو متضخمة ينظرن اليهم بدون
خجل .. الجنود يصيحون من أعلى العربيات .. الحيوانات في هذا المكان
سمنة عن زميلاتها في وادى مور .. يصلون عبس قرية كبيرة تحوطها الجبال
بها مطار أنشأته القوات المصرية .. بئر عنتر .. بيت عيلة .. وعند نقطة
الشرطة يطلب منهم قائدها التحرك بسرعة حتى يصلوا قبل غروب
الشمس .. تصحبهم دورية حراسة لتأمينهم مكونة من عربيتين مدرعتين
مركب عليهما رشاشات متوسطة .. عند بئر تفيره جماعة مهندسين ..
وقفوا ليتزودوا بالماء ويقص عليهم الجنود أخبار معركة حدثت في اليوم
السابق .

فى الساعة الواحدة سبعوا اصواتا وحجارة تقذف على الموضع ..
ثم تحركات مشبوهة اطلقوا النار في اتجاهها وظلت المواقع تطلق النار طول

الليل وتكهرب الجو في عبس في الصباح وجدوا ان الضحايا فردان كبيران
جاءا ليشرىا .

الطريق من عبس الى حرض جبلى .. تشعر ان تحت كل حجر ينسئ
متربصا بينفتيته وشريط رصاص دم . نم .

يزيدون من سرعة العربات .. البلدوزران لا يستطيعان اللحاق بهم
يقفون في انتظارهما مجموعة من الاطفال تقترب منهم تطلب باسكو .. طفلان
أسودان في لون الابنوس يثتان ساكتين بدون كلام تقاطعيهما حلوة يجذب
لهما صديقنا ينزل من عربته يداعيهما يقبلهما ثم ينحهما قايلا من الفولية
يصلون الى مشارف قفل حرض .. يقفون قليلا لتجهيز انفسهم .. الجنود
يشدون اجسادهم الى المقاعد .. البلدوزران يطلقان ساريفتهما .. اليمينيون
يهللون لمنظر البلدوزرين .. القول أصبح امام البوابة الرئيسية .. الجنود
يقابلونهم بالتهليل متصورين انها قوات قادمة لتغيرهم .. العربتان المدرعتان
تستديران للعودة .. جندي من البوابة يقفز على سلم اول عربة نيقودهم
لكان سرية مهندسى اللواء .. اللون الاخضر هو اللون الغالب على المعسكر
الطرق محفورة في الجبل ملتوية وضسقة .. الجنود يخرجون من خيامهم
للترحيب بهم .. منظرهم يثير الضحك بخوذات والبنادق الموجهة للخارج .

احدهم يطلق .. لسه مشدودين اصلهم مستجدين .

الجنود حفاة في المواقع وبدون سترات او قمصان .. تقونهم طويلة
شعرهم طويل .

وصلوا الى سرية المهندسين التى تطل على الوادئ الذى سينشئون
فيه السد .. اللون الاخضر يجعلها اقرب لعزبة او حديقة .. ضباط السرية
يقابلونهم بالاحضان احدهم دفعة صديقنا يمزح معه :

بقا خضرتكم بنساة السد .

الفصل الخامس عشر

عندما قامت حرب ٧٣ كان صديقنا نائبا لمدير مخازن المهندسين. بالهرم منذ عام كان قد أصبح مقدما ونقلوه الى المخازن بعد ان خدم في التشكيلات لمدة عشرة اعوام .. معضرة للتعبيرات العسكرية ولكن تشكيلات بمعنى اسلحة القتال .

ان العمل في مخزن لرجل قففى معظم عمره في المواقع تجربة غريبة كان يتصور انه لا يعمل فهو لا يتود .. لا يؤثر .. لا يغير .. كل ما يعمل هو ان يوقع على النون حزم وارتجاع ويراقب حركة الصنف ثم يصدر اواير متحرك عشرات العربات فارغة وتعود مبتلة او بالعكس .

كلان يستقيظ صباحا .. يركب عربته الخاصة .. عربية صغيرة نصر ١٢٨ .. يذهب بها الى مكتبه .. ويظل يتكلم ويتكلم ويتكلم حتى يتعب .. فيعود ليحيا حياة عادية كاي مهندس حكومي من زملائه .. وكان قائده يشفق عليه فهو يعرف ان ضابط التشكيلات يموت على المكتب في مخزنه .. يصاب باراض الشيخوخة المبكرة وكان هو يعجب لمساذا يكون ضباط الشئون الادارية والمخازن مهندسين .. انها خبرات خلصة لا يتعلمونها .. وكان هو يجيب على السؤال وهل هناك شيء نعمله تعلمناه؟

ولكن اتاحت له اقامته في القاهرة ان يرى ويتعلم اشياء جديدة لم يتعلمها خلال رحلة حياته من سيناء الى اليمن وبين اليمن الى الجبهة .

لقد كان يشاهد اللوجيات التي يظنها طلاب جامعة القاهرة على مبناهم يحثون فيها القيادة السياسية على الحرب ويطلبون الحرية والديموقراطية وكان يشعر بالازمة الاقتصادية وهي تتجمع سحبها لتعصف بنقراء وطنه وكان أيضا ترعبه التطورات السياسية حوله .. عبد الناصر مات يعد ان

تضى سنوات عمره الاخيرة يدرب قوات الجيش للثأر من هزيمة ٦٧ والاصلاح الديموقراطى بعد بيان ٣٠ مارس .

وقام خلفه « بثورة ١٥ مايو » .. الخبراء الروس تم طردهم من القوات المسلحة في ساعات .. والجيش يعانى من ذل الهزيمة .. وعدم القدرة على تصحيحها وهو قابع فى مكتبه بهخازن الهرم يوقع اذنون الصرف والارتجاع .. واندلعت المظاهرات اكثر من مرة .. وكبحت المظاهرات اكثر من مرة .

فى ليلة العيد الكبير تم اعتقال اكثر من مائتى طالب من الجامعة ومن ميدان التحرير الذى احتلوه .. قرأ اكثر من مرة منشوراتهم .. ومطالبهم .. وتخفى فى زى مدنى فى يوم وقرا مجلات الحائط المعلقة بالجامعة .. كان يود لو أصبح مدنيا ليكتب ويصيح .. كان يتكلم عما يحدث حوله بحرية غربية .. لم يكن يهتم كثيرا .. منذ أن طلبه قائده وقفل الباب ثم خدشه عن الورقة الهامة التى يحتفظ بها فى درج الشانون .. واندلعت الحرب

الحرب بالنسبة للمدنيين مبالاة فى كرة القدم يهالون فيها لفريقهم او حتى الذى أحرز التعادل .

ولكن بالنسبة للعسكريين موت ودماء وضحايا وجثث وتشوهات .. ووصلته الانباء .. الجيش يندفع عبر المانع المائى .. وعبر تحصينات بارليف .. لم تدهشه لقد تحرب هو وجنوده على هذا الواجب على الاقل عشر مرات . الجيش المصرى يصد الهجوم المضاد التكتيكى والتعبوى .. ولا يدهشه هذا أيضا مخطط الاسرائيليين فى الدفاع عن سيناء معروفة .. ولقد تدرب الجنود عشرات المرات على معارك صد الدبابات بالاسلحة الشخصية . الجيش المصرى يتوقف عن الاستمرار فى التقدم للعمق .. وادهشه هذا . ان العمق الاستراتيجى أصبح ضيقا للحد الذى لا يمكن الدفاع عنه لا سبيل للدفاع عن الارض المكتسبة الا بالوصول الى الممرات .. هكذا علمه مقدم اسمر فى سيناء عندما كان ملازما صغيرا .. ثم تتوالى الكوارث .

اختراق للقوات فى الفصل بين الجيش الثانى والثالث بواسطة رأس حربة اسرائيلية يقودها شارون .

بناء جسر خرسانى عبر القناة فى مكان الشجرة .. الجيش الثانى محاصر داخل سيناء .. القوات الاسرائيلية تهاجم القوات المصرية فى الضفة الغربية .

الاسرائيليون يصلون الى الكيلو ١٠١ من القاهرة .. وقف القتال .. نحن لا نستطيع أن نطاول امريكا .. انهارت القيادة ثانية .. لقد ادوا

معركة عظيمة في الجزء الذي تدربوا عليه عشرات المرات .. وارتبكت القيادة عندها أصبح لابد من ادارة معركة حديثة .

وبدأت الاحتفالات .. سلاح المهندسين لا يكرمونه الا الشهداء .. اللواء احمد حمدي .. والسلاح الذي بنى الجسور .. وهزم المانع الترابي ودمر البدشم .. ورعى الانغام .. وازال الانغام .. وأوصل ونقل المياه وفتح الطرق .. كانه لم يعمل شيئا وكان هذه الاعمال تمت منفصلة كظاهرة من ظواهر الطبيعة وبدأت ارهاصات الانفتاح .. نحن لا نحارب امريكا اكبر قوة في التاريخ نسمون بالمائة من المشكلة في يد امريكا .. لابد من تشجيع اصحاب رؤوس الاموال على استثمارها في مصر .

وصدر القانون ٤٣ لعام ٧٤ .. وسمحوا للضبط بتقديم استقالاتهم او احالتهم الى المعاش .. وخرج صديقنا .. ثم ترقبته لرتبة عقيد ثم احبل الى المعاش بناء على اتفاق مع مدير سلاحه .

لقد أصبح الآن في الخارج .. لم يعد التفكير جريمة عسكرية .. ارتفعت الاسعار في بلده بعد الحرب مباشرة .. ارتفعت بشكل جنوني .. تضاعفت اسعار معظم السلع والخدمات خلال اربعة شهور .. وانخفضت القوة الشرائية للجنيه الى النصف .. وكان عليه ان يعمل .

ترى من يسمح لمهندس نخرج منذ اثني عشر عاما قضاها يربص الغمام وينثىء الملاجىء والسدود القرابية بالعمل وكان القطاع العام ملاذه .

سأله مدير عام ادارة المشروعات بشركة المقاولات عن خبرته .

كان يتكلم بخجل وحساسية .. فهو لم يعد صغيرا وفي نفس الوقت يريد العمل .. انها البداية دائما لتي عاناها طول عمره .. عندما بدأ في سيناء .. وعندما بدأ يحفر الملاجىء .. وعندما بدأ يزيل الانغام .. وعندما بدأ يبني السد .. وعندما بدأ العمل كمخزنجى .. وها هو يبدأ من جديد .

كان الآخر ينظر اليه بعطف وحب فكره بعيون قائده عندما سأله عن الماركسية على شاطئ الحديد لقد كان شابا آخر من الطليعة الوعدية .. ولكنه لا يخاف على أسرته ومرتبته ومكانته .. لا بل كان بخاف أيضا على أسرته ومرتبته ومكانته فقد أمضى

فى السجن سنوات خرج بعدها متأخرا عن دفعته وجاهد وتعلم ليحتل مكانه
ثم يتنوق ثم يتخصص .. كان أستاذاً حقيقياً .. وهب نفسه لقضية شريفة
ان يعلم الشباب .. وأن يحافظ على نفسه من الانزلاق بين يدى الزبانية
فأنتم لا تعرفون أصدقائى معنى الاعتقال والسجن ومحاربة البشر فى
أرزاقهم .. هم فقط الذين يعرفون .. من ذاق مهانة السجن .. ومن ذاق
مهانة التسلط على المسجونين لقد عاش عصر محاربة أعداء الثورة الذى
تكلم عنهم ضباط التوجيه المعنوى فى الدورة التى حضرها صديقنا .. لكنهم
لم يحاربوا أعداء الثورة .. حاربوا أعداء الثورة المضادة .. فانتصرت الثورة
المضاد مع أول ضربة لها .

لقد جردوا الثورة من حماها .. فأصبحت فريسة سهلة لرجال الانفتاح
لقد قلبوا أظافر المدافعين عنها فأصبح من السهل عقد اتفاق كالمب دافيد .

ومع ذلك الرجل لم ينهر .. بل قاوم فى شكل آخر .. فى خلق أجيال
جديدة من الفنيين الذين يملكون لغة العصر .. سلاح المقاومة الحقيقى
لجحافل جيوش الانفتاح .

قال له : عظيم نحن نحتاج لخبرتك هذه .. لدينا مشروع جديد ندرسه
العامل الحاكم فيه الخبر فى الصخر .. إذا استطعنا أن نخفض تكاليفه
ستمصبح فرصتنا أفضل .. هل يمكنك ان تدرس لنا تكاليف الخبر .. يمكنك
مساعدة زميل مكلف بهذه المهمة .

وبدا صديقنا من مكان أفضل بكثير من تصوره .. لتبدأ خبر فى
موضوع لا يعرفه غيره بين جميع العاملين بإدارة المشروعات .. ولكن هذه
مجرد بداية عليه تطويرها كما حدث دائماً .

وساعده مديره زوده بملاحظات دون ان يشعره .. كما فعل مهندس
المقاولين معه فى العريش .. ثم زوده بمجموعة من الكتب كان عليه دراستها ..
واستمر صديقنا .. يتعلم .. ويتعلم .. ويتعلم .

يتعلم من مساعديه لزملائه .. يتعلم من قرائته للكتب .. ويتعلم من
ملاحظات رئيسه ... وهكذا مصر دائماً .. بل وهكذا الحياة دائماً ..
لا تتوقف .. إذا أعطيتها أصطكت وأغنت البشرية .

لقد استطاع صديقنا في مدة محدودة أن يحصل ما فانه .. ولم يجد انه
اضاع سنين عمره هباء في القوات المسلحة .. لقد تعلم منها الكثير .. على
الاقل كيف يدير عملا .

تحركت العربية الجيب في طرقات المدينة اللتوية والممتلئة بالاطفال
الصغار والنساء المحجبات لتخرج في اتجاه الوادي .

كان يقودها نقيب من سرية استطلاع اللواء بجواره قائد سرية
مهندسى اللواء .. في الخلف على كرسيين عريضين متقابلين كان يجلس قائد
المأمورية وصديقنا وبجوار قائد المأمورية شيخ يمنى والى جوار صديقنا
شاب يمنى يرتدى الملابس العادية .. في نهاية العربية جنديان من سرية
الاستطلاع مسلح كل منهما ببندقية آلية .

الجو حار شديد الحرارة .. وضابط الاستطلاع يضع بجواره نرس
به مكعبات ثلج يرطب بها مثبليه ويمسح بها وجهه الابيض شديد الحرارة
الذى يحاكى وجوه الاوروبيين .. ويتصرف بتأنف .

قائد سرية المهندسين يضحك وهو يشرح غير عابىء بوتبع كلامه ..
هذا الشيخ الحاق ذو الرائحة النفاذة يمتلك خمسة آلاف فدان اى ان
حوالى سبعين بالمائة من الارض التى سريوها السد ملك له .. وبذلك
سنتحول من ارض للرعى الى ارض زراعية .. ثم يضيف :

الارض التى يحتلها لواء المدفعية ولواء المشاة ملكه ايضا ويؤجرها
للجيش يعيد صديقنا النظر اليه وهو يتشم فيجده يمنيا عاديا وان كان اكثر
سمنه من اغلبهم . اسنقه صفراء مهشمة او متأكلة من القات والايابس حتى
صندلا في قدميه ويخلع حزامه وخنجره احتراما للجيش المصرى .

يستكمل قائد سرية المهندسين : اما الامنى ده فهو مدرس ومثقف
المدينة الوحيد فهو يدير مدرسة يدرس فيها من عشرة الى خمسة عشر طالبا
وبالاضافة لذلك فهو مدير اعمال الشيخ لانه يستطيع قراءة عقود واوراقه
كذلك هو المستشار القانونى والتجارى لجميع اعيان القرية .

يتشم الآخر ايضا .. يمنى عادى تكاد تبرز مظلمه من تحت القميص
ولكنه يرتدى ثياب زنوبة ازرق متاكل .. غلق صديقنا .. اهلا وسهلا
بمنى احنا مع اقطاعى ومثقف يمنى . . .

ولم يكن هذا غريبا فالاطلاع وخدمو الاقطاع من المثقفين هم الحلفاء

الطبيعيون للجيش المستعمرة في أى مكان على الأرض .. وبذلك تحدثت
هوية الجيش المصرى فى اليمن مع فارق بسيط أن الاستعمار وسيلة عسكرية
لاستغلال اقتصادى وفى اليمن هم الذين يستغلون الجيش المصرى اقتصاديا ..
سواء عن طريق الاتاوات كما يفعل رؤساء القبائل أو عن طريق الإيجارات
كما يفعل شيخنا الخافى أو عن طريق البضائع التى يشتريها المصريون من
أسواقهم ويغرتون بها بلدهم .

إذا استرسلنا فسنصل الى أغرب نتيجة أن اليمن هو الذى يستمر
مصر .

شعر المثقف بلهجة صديقنا .. فحاول الدفاع عن نفسه .. أو التقرب
منهم أو على الأقل أشعارهم بأنه يختلف عن الباقين فتكلم عن آخر شخصية
يمكن أن يتوقعها أى منهم .. عن ماوتسى تونج .. ثم لينين .. ثم عن كتاب
الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية .. ويدلل عن طريقته .. يكذب الادعاءات
الاستعمارية السعودية .. وتصور صديقنا لأول وهلة أنه فى مواجهة شيوعى
يهنى .. تعجب .. !! الشيوعية تنمو حتى فى اليمن .. ؟؟

ولكن الآخر انتقل الى الكلام عن برتراند رسل ثم سارتر فطه حسين
والعقاد وصار يخطط الانكار بعضها ببعض بطريقتة مضحكة .

اعتبره الآخرون يثرثر فيما لا معنى له .. ولكن صديقنا لم يترك هذه
الفرصة تمر عليه ببساطة .

تجاوب معه ثم سأله — أين تعلمت هذا .. ؟؟

رد بأنه تعلمه من الصينيين .. عندما كانوا ينشئون طريق الحديد
صنعاء لقد عمل كمقاوم أنفاز يحضر لهم اليهنيين .. ويعطونه أجرته وبعض
الكتب كسب كثيرا ولكنه سافر الى عدن حيث وقع فى حب عدنية من اللاتى
يلبسن البلوزة المفتوحة والسروال القصير وأضباع هناك نقوده ولكنه ترا
للآخرين سكت قليلا ثم شرد ببصره خارج العربة .. ثم تكلم فجأة :

رجعت الآن وأعمل مدرسا .. أعلم الاطفال واحفظهم القرآن ..
وتوقفت عن القراءة الا ما أخذه من سيادة النقيب .

توقف ثانيا عن الكلام .. ثم نظر بعد ذلك لصديقنا وقال :

— أنت مش ضابط أنا عارف انت ايه .. !!

نظر له قائد سرية المهندسين وقال : لو جدع حقيقتي ومتقف تعرف
هو ايه !!

رد الآخر بثقة : انت صحفي .. رأيت مثلك كثيرين في مؤتمر حرض .

داعبه قائد المسابورية : لا خابث منك دى مش مضبوط .

رد المثقف : بيتنى انت المهندس .. ودول الضباط .

ضحكوا جميعا ولم يطلق احدهم .. لانهم كانوا قد وصلوا الى المنطقة
التي سيقام بها السد .. ولكن اذاعة السعودية في نشره اخبارها الاخيرة
في ذلك اليوم .. اذاعت انها قد رصدت عشرة آلاف ريال بينى لن ياتى لها
براس المهندس الذي سينشئ سد حرض .

الفصل السادس عشر

كان يتعاطف معهم جميعا .. يوليهم اهتمامه بنفس القدر .. كان يعرف بزايا وعيوب كل منهم وكيف يتعامل معها .. لقد كان قادرا على اقناع كل منهم بفتنصلا وايضا قيادتهم فى توافق كبايسترو نايغ مع اوركسترا متنوع الالات يعزف مقطوعة مركبة من اعمال باخ .

ولكن صديقتة كان له مكان خاص حاول الا يشعر به الآخرون .. لقد كان يردده الى اخصب فقرات حياته بمناقشاته السياسية والاجتماعية والعامة قال له : — لقد انهزمت القوى الثورية فى مصر .. لابد من الاعتراف .. انتهت المد الاشتراكى .. ولا ابل .. لقد فرضت أمريكا واسرائيل شروطها وتبيلتهما القيادة السياسية .. أن توقيع كامب دافيد بمثابة توقيع وثيقة استسلام نهائى رغم كل محاولات التجميل واظهاره على أنه انتصار .

صبت قليلا ثم اشار بيذه وكفه :

علينا أن كنا نريد ألا نفرق فى الطوفان أن نتوقع الآثار المترتبة على ذلك .. كأن يعدد له الآثار بنفس الطريقة التى يحلل بها بنود عطاء لتقدير سعره .

— اول هذه الآثار .. القضاء على المكاسب الاشتراكية أو تجميدها أو تفرغها من مضمونها .. وسيعانى القطاع العام الكثير من ذلك .

— بعد التجميد ستفرق الدول الصناعية السوق بغناض منتجاتها .. من كل نوع وصنف ومستوى وسعر .. فى البداية ستكون الاسعار منافسة للمنتجات المحلية وبعد أن تقضى على الصناعة المصرية سترتفع الاسعار تدريجيا بشكل لا يمكن تصوره .

علينا أن نستوعب دروس التاريخ عبود باشا خفض سعر الكحول
الى مليم للتر .. كان هذا السعر اقل من التكلفة .. عندما أغلقت جميع
المصانع المنتجة للكحول رفع سعره الى عشرين مليما .. لقد احتكر
السوق .

ثم اكمل نقاطه :

— سيتغير الهيكل الاقتصادي . الزراعة ستضعف .. الصناعة
ستنتهى ولن يبقى الا التجار والوكلاء والسامرة .. اى ان البناء التحتي
للمجتمع سيصاب بالضعف والتحلل .

— وسيعقب ذلك تغير البناء الفوقي .. القوانين — العقاليد —
الفن — الادب — الثقافة — الذوق العام .

سيطفو على السطح كل ما هو غث .. وسينتحر الثراء .. لن
ينجو نرد واحد من الطوفان .. سنغرق جميعا .. تفكر .

كان صديقنا ينظر اليه مندهشا .. لماذا يخصه بهذا التحليل .. !!
وفى هذا الوقت .. !!

اجاب الآخر دون ان يساله صديقنا — ان علينا واجبا .. لا معنى
للإستراتيجية الآن .. ان معركتنا معركة وطنية عليها ان تضم كل من هو
شريف على هذه الارض بغض النظر عن تركيبته الطبقية .. علينا ان
نواجه المد العالى للثورة المضادة وبأسلوبها .. اعادة النظر فى كل
النظريات السابقة .. سكنت قليلا ثم امسك القلم وبدأ يخطط على الورق
هناك بناء تحتى سيتم تدمره بواسطة المنتجات الجاهزة الصناعية
والزراعية علينا ترميمه بانشاء صناعة مصرية بدعوة كل المصريين للعمل
ولكن بأسلوب جديد باستيعاب لفئة العصر من ادارة وتنظيم .. كل
ما فعلته أوروبا وأمريكا لا يزيد عن ثورة فى الادارة والتنظيم واستخدام
الحاسب الآلى هو أداته .

وهناك بناء فوقي سيتمزق بذوق وتقاليد التجار .. وباستيراد
علاقات ومنون الغرب المعبرة عن التمزق .. بعضها سيتم انشاؤه للتصدير
لنا خصيصا .. ان الغرب سيصدر لنا أزمته يا صديتى .

وعليها ان تواجه البناء الفوقي المترهل الممزق بفسح ثوب جديد
يناسب المرحلة الجديدة .. ان التوفير شعار الابد ان يسود هذه الفترة .

كل من يتكلم عن الاشتراكية والشيوعية والسلفية والفيكتورية

وما شابه لا أود أن أقول خائن ولكنه لا يستوعب الموقف جيدا .

كان صديقنا قد توصل الى اجزاء من هذه الإنكار فلم تصدبه . .
ولكن الذى حركه وحمله هو الحل العملى الذى قدمه رئيسه بعد ذلك .

قال : علينا من الآن الاستعداد للبلدوزرات الكاسحة . . لشركات
العلاقة القادمة لقوى بنا وباقتصادنا وبنائنا القوتى والتحتى الأرض .

علينا ان نتعلم لغة المستقبل (الادارة والتنظيم والكومبيوتر) .

وانا رغم سنى هذا وتجربتى سأبدأ معكم .

واقترح صديقنا لقد تضى بعد ذلك معظم وقته فى دورات وتدريبات
بدرس أبجدية الإدارة الحديثة والاقتصاد . . وطرق الانشاء . . والبرجة
والكومبيوتر .

لم يكن الوحيد الذى يفعل هذا ان طالع إدارة المشروعات بقيادة
مديره الذى أقتنع إدارة الشركة يوجه نظره كان كخلية النحل . . تعرض
وتحاول التطبيق . . تفشل سرات ثم تنجح . . حتى أصبحت الإدارة نموذجا جديدا
استوعب مفردات لغة العصر وتشرب بالواقع . . ثم مزج الاثنين ليخرج
بتغير نوعى . . إدارة مصرية حديثة . . ولكن الطوفان لم يمهلهم . . لقد
صدقت رؤية المدير وبدأت البضائع الأجنبية ، تند وخلفها الشركات . .
وخلفها المعونات . . وبدأ البناء القوتى يتغير . . أصبحت العمولة
والرشوة والسمسرة والكسب السريع قيم المجتمع الجديد . . الذى
لفظ خليه إدارة المشروعات كما يلفظ الجسد جسما غريبا . . لقد بدأ
القطاع العام مملا يتغير .

وقفوا فوق تلة صغيرة وسط المضيق الذى سوف يفلقونه . عن يمينهم
مسافة كيلو ونصف مترا وعن يسارهم مسافة أخرى حوالى نصف كيلومتر
المضيق ينصل وادين متسعين تحفهما الجبال من الجانبين . . أى أن
طول السد المطلوب كيلو متران اذا تم ثقلها ستصطدم به المياه القادمة
من أعلى جبال اليمن وتخزن ثم تتحول الى جانب آخر يصل بها الى مبدى
عبر طريق حفرته السيول من قبل عندما كان هناك سد .

كان متقف القرية يتكلم عن الدواعى القومية والعربية والناصرية

التي ستجعلهم ينشئون السد .. ويشهد نيابة عن أعيان البلد بتوفير
الظلة والماء البارد للمهندسين والضابط طول مدة العمل .

وكان الآخرون يحسبون بشكل ابتدائي حجم العمل المطلوب .

قال قائد المأمورية : إذا تصورنا أننا سنقوم أتربة فقط بدون تشكيل
لجسم السد وحساب لقلبه أو الأعمال الفنية الأخرى المطلوب تكويم التى
متر طولى بعرض عشرين وارتفاع خمسة أمتار أى حوالى .. حوالى
مائتى ألف متر مكعب .. وبالتالي مطلوب حفر هذه الكمية وأخراج الطفرة.

قال قائد ثان المأمورية : لدينا بلدوزران على كاوتش أنساجية كل
نهما فى أقصى حالاته بدون عوائق أو مشاكل مائة متر مكعب فى الساعة
بمعنى ألف متر مكعب إذا عملنا عشر ساعات فى اليوم .. أى ألفى متر
مكعب يوم للبلدوزرين مقسومة على أربعمائة ألف فنحن نحتاج الى مائتى
يؤم عمل أى حوالى أربعة شهور .

ضحك قائد سرية المهندسين فلقد كانت هذه تقديراته ثم أضاف :
إذا كانت المدة المتيسرة قبل موسم الأمطار شهرين أو شهرين ونصف على
الأكثر .

ضحكوا جميعا ثم قالوا يصبح من المستحيل انشاؤه .. أو تتضاعف
المعدات كان مثقف القرية يتابعهم ويجاول أن ينهم ما يقولون فقد كانت
التركيبات والاصطلاحات الانجليزية التي أمثلات بها المناقشات تريبه ..
لقد تصور أنهم يعدون لصعود القهر وليس لبناء السد .. حاول أن يترجم
للشيخ المصاحب له .. ولكنه فشل .

كانت ابتسامة لا معنى لها لا تفارق وجهه حتى وصلوا الى نتيجة
أنه من المستحيل إنهاء العمل قبل السيول بمعداتهم فاصيب بخيبة أمل ..
تداول بعدها الحديث مع الشيخ بلهجتهم ثم قال : أنهم مستعدون
لمساعدتهم بمائة رجل كل يوم ومعهم بقرهم وزخائنهم .. ضحكوا جميعا
ولم يجيبوا .

فى مقر السرية كان المقدم فى انتظارهم ..

عندما أطلعوه على نتائج استطلاعهم .. ومطالبهم (فلقد طلبوا
حفارا ألمانيا بكباشي وبلدوزر آخر على كاتينة ومريتين قلاب ..) .

اعتبرهما خطيان .. فمن أين سيحضر هذه المعدات وكيف سينقلها
ظل ساهما لفترة ثم سألها عن المسافة بين مقر برية المهندسين ومكان
السد عندما عرف أنها حوالى خمسة عشر كيلو مترا .

اقترح ان ينشئوا معبركرا بجوار الموقع فيومرون وقت الذهاب
والعودة ويعملون كل ساعات النهار المتيسرة ..

ولم ترق لهما الفكرة .. فهم ستوفر حقا الوقت ولكنها ستفقد
الامداد الادارى وستجعلهم لقمة سائفة للقوات السعودية او المتسللين
وستزيد الجهد البدنى للجنود اثناء حراستهم للموقع ليلا .

واستمرت المناقشة طول الليل .. وكل طرف مصر على وجهة
نظره .

فى اليوم التالى صباحا ذهبوا جميعا الى الموقع ومعهم المعدات
والجنود وبدأوا يجربون الطرق المختلفة للانشاء . وكل من ثلاثتهم يحاول
أن يبتكر ويفعل .. فى البدء كان الانتاج غير مشجع لكفاءة البندوزوات
التي تتحرك على كاهوتش كانت منخفضة واقل حتى من حساباتهم الابتدائية
سواء فى الحفر أو رفع الاتربة .

وبمرور الوقت وتعديل طرق العمل حدث تقدم بطيء حتى استطاعوا
فى نهاية اليوم حفر وتشكيل عشرة أمتار فقط من السد .. كان معنى ذلك
انهم بحاجة الى مائتى يوم عمل أى حوالى ثمانية شهور واصبح اتمام
السد قبل سقوط الامطار بهذا الشكل عملا يائسا .

فى المساء .. جلسوا امام الخيمة المنصوبة حديثا يقلبون الامر ..
كان قائد الامورية قد اصابهم اليأس .. ولكن قائد الكتيبة كان متحمسا
بصر على انتهاء السد فى المدة المحددة .. كان الاخران ساخطان .. انهم
يتداولون الأوراق والأوامر فى ثلاثة أو أربعة شهور ثم يطلبون منا التنفيذ
فى شهرين . وكان القائد ولأول مرة دائم الابتسام فخبراته كانت ترشده
ان المقبات الابتدائية هى طبيعة الأشياء .. والاصرار والغلب عليها
هى طبيعة البشر .. كان يقول لهما لا تياسا إن المعدلات الحقيقية لم
نصل اليها بعد وغملا وفى اليوم التالى انجزا عشرين مترا بقليل من التنظيم
والتدريب وزاد حماسهما .. اذا انتظم الموقت أكثر قد يرتفع المعدل ..
وارتفع المعدل فعلا الى خمسين وعشرين وبدأت لهجة التشكيك تخفى

وبدا الأمل يغزو مفردات أحاديثهم ثم اقتنعا بأنه من الممكن أن ينهوا العمل في المدة المقررة ثم نهضوا بانتهاء العمل في المدة المقررة بشرط ألا يتيسر المسكر بجوار العمل .

كان قد مضى أسبوع تأكد القائد في نهايته أن رجاله تآخرون على نهوضهم أنهم يعملون مع رجال لهم طاقاتهم وحالتهم النفسية وحساسهم إنهاء المهمة فتركهم وعاد إلى مقر الكتيبة بالحديدة .

اقتنع الضباط بإمكانية إنهاء العمل في الموعد المحدد .. ولكنهم ويأسهم أن الحساب بطريقتة معدة ساعة أو رجل ساعة تقترض أن الإنسان يمكن التعامل معه بنفس درجة الثقة التي يتعامل بها مع الآلة .

وهذا هو موقف الإدارة الأمريكية إذ أنها تحلل كل شيء .. الحالة النفسية والاقتصادية والاجتماعية للعامل وانتمياته السياسية وتأثير الحرارة والضوء والوصول والموسيقى وعدد ساعات العمل على إنتاجيته أي كل ما يتصل بالإنسان سواء ما يشعر به أو لا يشعر به ثم تقدم كل هذه البيانات للكمبيوتر .. وتستخرج معدلات قياسية لكل نوع من العمل ولكل منطقة أو مجموعة من السكان وبالتالي يمكن الاعتماد على هذه البيانات في دراسة معدلات إنتاج البشر بنفس درجة الثقة التي تصب بها معدلات إنتاج المعدات والآلات ..

ولكن في شرقنا العظيم عليك أن تعتمد على التجربة والخطأ وحساسيتك عندما تتعامل مع البشر .. لتضمن سيولة الإنتاج .. قد تنتج في يوم أقل من المعدل وقد تنتج في يوم أعلى كثيرا من المعدل .

وهذا ما حدث مع الرجال .. انخفضت معدلاتهم وهم يشاهدون قائدهم يتخطون في بداية التجربة .. ثم ارتفعت معدلاتهم عندما كان قائد الكتيبة يغذيها بحساسه لتخفيض ثانيا بعد رحيلة .. وبدأوا يتكئون صباحا عند الاستيقاظ ويتعجلون العودة ويطلبون الراحة أثناء العمل .. وانخفضت الانتاجية من خمس وعشرين إلى ثمانية عشر إلى عشرة أمتار .

تصدى قائد المأمورية للموقف .. وقع جزاء على أحد الصف ضباط السائقين للبلدوزر وارتفع المعدل قليلا ولكنه لم يصل أبدا للخمس وعشرين مترا واستلهم صديقنا تجربة القسيمة .. اشترى معزة من نقوده الخاصة ثم أقام في المساء حفلة سر .. قاطعها قائد المأمورية .

حول المعزة المشوية التى يتخاطف لهما الضباط والصف ضباط
والجنود بدأت المواهب الكامنة فى أى مجموعة تلتقى عشوائيا فى الظهور
وارتفعت الضحكات ثم الغناء والرقص والمنولوج والنكت والضحك
والموال .. ثم حديث ..

سألهم صديقنا .. من هو الرجل ؟؟

قال احدهم — من يكسب جيدا . ٤ .

رد — النساء والأطفال والشواذ والمهارات يكسبون اكثر .

قال آخر — الحمش أى الذى يحترمه الناس ويهتمون برأيه
وبخلافونه .

رد — الأسد اكثر قوة من أى انسان .

قال آخر — غير المخنث .. ذو الشارب والعضلات المتقولة .

رد — هناك رجال عظام مظهرهم أبعد ما يمكن عن الرجولة ..
جيفارا كان طويل الشعر .. غاندى كان نحيفا ضعيفا .. اغلب القادة
بدون شوارب أو عضلات .

سأله أحد الصف ضباط لينهى الحديث — أذن فمن هو الرجل ..؟؟

— هو الذى يعمل ويعمل جيدا .

وفى لمح البصر تحولت كل العيون تجاه الكمالى .. وضع الجميع
بالضحك .

وتفجر الحديث بعد ذلك عن السد وإمكانية انهائه فى موعده .

كان صديقنا يشرح ببساطة وهدوء ما اقتنع به .. وكان واضحا
من كلماته وردوده الصادقة .

لقد كانت تجربة مدرسة التوجيه المعنوى لازالت ترشده .. الحرية
والمواجهة والمناقشة حتى الاقتناع بكل الصق بكل الحرية .. رتصاعد
الحديث وتشعب لدى تخلف وفقر اليمينيين .. وربط الجنود بين ما يتوهمون
به وما يمكن أن يحدثه من تأثير على انهاء فقر وتخلف أخوة لهم . . .

في نهاية الليلة .. كان كل منهم قد وعى تطلعا الدور الحضارى
والانسانى الذى يساهم به .. ونام صديقنا في هذه الليلة .

ارتفع المعدل بعد ذلك حتى وصل الى الخمس وعشرين مترا ثم
تجاوزوها ولكن للأسف توقفت الماكينات .. وكان من الصعب اتقاعها
بالدور الحضارى والانسانى الذى تقوم به .. لقد لاهلوا الصيانة ..
وسرقتهم حماسهم فلم يعالجوا الاعطال في بداية ظهورها .. وتعطل
البلدوزران احدهما ثم الآخر وانتطع هدير المكن .. ووقفوا .

كان السد قد اصبح حياته .. كان يستعذب الوقوف في الشمس
يرقبه يكبر ويكبر .. وكان لصوت هدير البلدوزرات وهى تقطع الارض
وتكومها وترفعها وقع السيفونية .. كانت سيفونية رائعة مبتعة تمجد
العمل والانسان والحياة وكان قد عشق صوتها وعشق الوجوه السهراء
المبللة بالمرق والتراب .

وكان للصمت الذى جثم على الموضع ايضا صوت ولكنه صوت الموت
والياس والابتسلام وقرر امرا .. قرر أن يبني السد بأيديهم بالكوريك
والأزمة والغلق .. قرر أن يحفره ويخلطه بالمرق والتعب .. عندما أعلن
هذا قابلوا الامر باستغراب .. باستخفاف .. ماذا سيفعل حفنة من
الرجال بدون المعدة .. ما سيحفرونه في يوم يؤديه البلدوزر في جرة
واحدة .. ومع ذلك أمر صديقته .

بالرومانسيته انه هو نفسه لم يتغير أبدا يهرب الى الأحلام كلما
واجهته مشاكل الحياة الصعبة .

تكاسل الرجال وهم يحفرون .. وهم ينقلون التراب .. وتتردد
احدهم مكان يتنقل بالطلق نصف ممتلئ .. كان شابا أسير من الصنعيد
يحمل كل شهامة المصرى الصعيدى وفي نفس الوقت طريقته في مقاومة
السلطة بالتخريب والسلبية .. لم يجرؤ على الرفض ولكنه ايضا لم يعمل
بحماس وانتقلت سلبيته الى الآخرين .. ناداه صديقنا أخذ منه الغلق
ثاقلا هذا شرف لا يقوم به الا الرجال .. حمله على كتفه وعمل بينهم ..
وقف الشاب في البداية مندهشا .. زاد حماس الرجال .. وقف الآخر
وحيدا بدون عمل .. لم يستطع ان يتحمل الموقف .. حاول استرضاءه
ليحاول العمل .. رفض صديقنا .. حاول أن يعثر .. ثم يسترضيه ..

وأخيرا سلمه الفلق بعد أن تعلم كلاهما درسا . . فلقد تعلم الشاب
أن قيمته لا تنبع إلا من العمل . . وتعلم صديقنا ألا يعذب نفسه ورجاله
بفكرة رومانسية غير قابلة للتحقيق .

لذلك نبعد أن انتظم العمل أنهاء وعاد لقره بالمهورية يبحث عن
وسيلة أخرى .

الفصل السابع عشر

عندما حيا الضيف الجالس عند رئيسه يتناول القهوة .. لم يكن يتصور انهما سيؤثر كل منهما في حياة الآخر أبلىغ تأثير .. كان متناول باطن وكان يتكلم عن الادارة الحديثة والبرجة وحسابات التكاليف والمتابعة عن طريق سرائر التكلفة وكان صديقنا ينظر له بدهشة .. نمقولو الباطن لا يتكلمون عن الادارة الحديثة .

فمنذ تأميم شركات المقاولات كان متناولو الباطن رؤساء انصار تم ترقيةهم بالأقدمية ليصبحوا متاولين معظمهم بجهل القراءة والكتابة وكل ميزتهم انهم يعرفون كيف يقتصمون ارباحهم مع مديري التثبيذ المشرفين عليهم . لقد تم تكليف جميع المهندسين ولم يسمح الا للقليل منهم بالعمل الحر ولم يكن املهم وسيلة الا مشاركة رؤساء الانفار وتحويلهم الى متاولين كان عددهم كبيرا لانه لم يكن مسموحا بحجم عمل يزيد عن مائة الف جنيه للمقاول الواحد خلال العام .

وكان لكل مدير تنفيذ عشرات من المتاولين يعملون معه .

ومع الانفتاح وفي بدايته زاد حجم العمل لبعضهم وتضخمو لدرجة انهم ثاروا على صانعيهم وصنعوا هم مديرين يكلفونهم بالعمل لقاء نسب من حجم العمل أو مكافآت محدودة .

شعر الضيف بنظرات صديقنا ودهشته .. غيدا يشرح له .. ان عملية المقاولات مرت بتطورات مختلفة .. بدأت منذ القدم .. عندما كان لكل صناعة شيخ وهو المسموح له باعطاء الترخيص للعاملين لمزاولة المهنة وكانت الأعمال بسيطة ومحدودة .. وفي الانشاءات الكبيرة كان يعمل اكثر من شيخ في أكثر من نشاط .

وتطور الموقف بغد انتهاء نظام شيوخ الحرف فأصبح الشيخ معلماً وتعدد المعلمون وأصبح لكل معلم صبيان .. وظل هذا النظام قائماً حتى الآن . رغم أن شركات كثيرة تعدى حجم عملها الملايين وموظفوها يعدون بالمئات ومن جميع التخصصات إلا أنها تدار بطريقة المعلم .

رئيس مجلس إدارة يجتمع في يده كل الأنشطة والقرارات ويحمل نفسه كل المسؤولية والباقيون صبيان يتفخون تعليماته دون مناقشة .

الشركة التي بها معلم قوى تصبح شركة ممتازة والتي معلمها ضعيف تدوى .. والمعلم هو المسئول عن ترسية الاعمال .. وتوفر السيولة النقدية ودراسة المشاريع وشراء المعدات والمواد .. وتشغيل مقاولي الباطن وصرف المستخلصات ومناقشة العملاء حتى تسليم المشروع .

هذا النظام يصلح للأعمال الصغيرة والمحدودة التي يستطيع أن يلم بتفاصيلها فرد واحد .. ولكنه لا يصلح للأعمال الكبيرة والمركبة .. التي يجب أن يتصدى لها نظام .. ومجموعة من المتخصصين .. وبرامج متابعة أي إدارة حديثة .

في الإدارة الحديثة تتحول المقاولات من أعمال حرفية صغيرة الى صناعة بكل ما تحمله الصناعة من معنى خطوط الانتاج والانظام .. وبالتالي على وسائل وطرق وعلاقات الانتاج ان تتغير .. أنكم هنا تعملون بطريقة المعلم ولكن البركة في العقول المتفتحة .. لقد خطوتم خطوة واسعة في طريق تصنيع المقاولات وادارتها بلفة عصرية تتناسب مع التطور السريع في العالم كان الرجل يتكلم بجدية وإيمان .. وشعر صديقنا انه لم يقل كل ما عنده أن ما قاله هو عناوين يمكن ان يدرج تحتها مناقشات طويلة .

كان مدير الادارة يتابع المناقشة باهتمام .. وكان قد بدأ يشعر بربح التغيير في الشركة .

نظر الى صديقنا بحب وسأله - أنا طلبتك لكي أعرف كل منكم بما بالآخر . الاستاذ صديق قديم وهو من مقاولي الباطن المتخصصين في تركيب اعمدة ومد شبكات الكهرباء الضغط العالي والمتوسط والمنخفض . وهو قد حصل على عملية في العراق حضر لى كى أرشح له مهندساً

ممتازا ليكون مدير فرع شركته هناك وينفذ المشروع .. ولقد رشحتك ..
(مد يده موقفا اياه عن الاعتراض) . رغم اننى أعرف ان مد شبكات
الكهرباء بالنسبة لك كالطلب مثلا .. لا تعرف عنها شيئا ولكن الموضوع
ايسر من ذلك .. انه ادارة وتنظيم .. واثت على درجة كفاءة عالية
فى كليهما .. تدريب عمليا فى القوات المسلحة .. واستكملت النظرية
معنا .. لا أريد اجابة الآن .. ولكن مكر .

أخرج الآخر كارت من حافظته وسلبه اياه .. وقال نتقابل الاسبوع
القادم فى مكتبى الساعة الخامسة مساء .. انا تشرفت بمعرفتك
ياباشمهندس .

لم يكن يتصور ان الامور سوف تتطور بهذا الشكل وبهذه السرعة
فلقد كان ضد فكرة السفر للعمل بالخارج .. وهو ايضا لا يمكنه ان يقبل
ادارة عمل لا يعرف طبيعته .
ولكنه سافر للعراق .

لقد تال له — كل ما أريده الشرف والرغبة فى بذل الجهد وتبوة
الاحتمال . الناحية الفنية يسكن شراؤها بواسطة المستثمرين من أى مكان فى
العالم .

.. اتفقا .. استقال .. وقع عقدا معه لمدة عامين .. ولحق به فى
بغداد .

استقبله الشيخ بترحاب فى منزله .. رغم الجنبيين المصاحبين له
ورغم بنادقهما المسددة له استعدادا للرد الفورى على أى محاولة اعتداء .

قدم له شرباتا مثلجا مستوردا شربه رغم تحذيرات الأطباء من
الدودة الاثرية . فهم يقولون ان هناك مرضا اثيريا انقرض من العالم
سمعوا عنه من كتب تاريخ الطب — عن دودة تسرى مع الدم وتخرق
الجلد فى مواقع مختلفة ولا علاج لها الا لفها على عود كبريت كلما خرج
منها جزء على الا تقطع عودا تكاثرت وهذا المرض ينتشر عن طريق بيض
الدودة الموجود بمياه الابار فى هذه المنطقة .

طلب منه امداده باليمنيين الذين وعده بهم لمساعدته .

ووعده الآخر بخمسمائة يبنى ليعملوا معه في اليوم التالي .

توافد اليمنيون على الموقع .. أعداد كبيرة ولكنها لم تصل للععدد الذى وعد به وبمجرد حضورهم انتشروا في الموقع بين الرجال .. وأحاط كل جندي عدد منهم .. وانطلقت الضحكات وحلقات السمر .. كان من الصعب السيطرة على الموقف .

لم يرغب صديقتنا الحوار .. فهم (أى جنود سرية المهندسين) أفضل من قدم الى اليمن .. لقد جاءوا للتعبير .. ولا يقتل أن .

ولكنه تذكر تحذير القائد من أنه قد يندفع خلف فكرة ما وينسى الأمن فصل جنوده وبمعلومات محددة لرتباء السرية منع اختلاطهم باليمنيين ثم حاصر الموقع بهجوة منهم للحراسة مستعدين للاشتباك .. وطلب من زعماء القبائل المصاحبين للعمال جميعهم في مجموعات عمل لكل مجموعة واجب محدد .

عندما انتظم الموقع وبدأت الثيران تجر الزحافات وتقطع الأرض وتكوبها وقف صديقتنا يحيطه جندياه الحارسان يتكلم مع بعض زعماء القبائل .

كان أحدهم شابا طويلا نحिला أسير ذا رائحة نفاذة وله شعر طويل مسترسل كمادة رجال تبيلتهم .. داعبه الحارسان .. نوجدا فيه أنسما أكثر بساطة منهما فبدءا يصفان له التليفزيون والعمارات والأساسيرات والقطارات بشكل ساذج ومضحك .. يزيد من طرافته انعكاسه على الرجل .

كانا بصفتان التليفزيون بأنه صندوق يخرج منه الرجال والنساء يرتصون ويغنون والعمارة على أنها منازل بنيت الواحدة فوق الأخرى .. والأساسير صندوق تضغط عليه فيرتفع .

كان الرجل مبهورا بما يقصانه عليه .. وكان يسأل الضابط فيصدق على كلامهما بهرور الوقت تسبب الموقف ثانيا .. تجمع بعض اليمنيين وبعض الجنود خلف العربات يتحدثون ويضحكون بصوت منخفض حتى لا يشعر بهم الضابط ووجد أن الموقف ميؤس منه وإنهم لن يقتربوا وإنما يعرض رجاله للخطر .

تجمعهم وحيا اليمنيين واستعد للرحيل .. عندها جرى خلفه

الشباب الطويل يرجوه أن يتوسط لدى الحكومة اليمنية لتسح له بالسفر الى مصر لكي يرى السيدات البيضاوات الخارجات من الصندوق يرتصن ويغنين .

عندما سأله صديقنا .. وأين ستقيم وكيف ستعيش .

رد عليه أغرب رد .. قال له - عندك .

عندما عالجوا الى المعسكر وجبوا أن مجموعة إصلاح قد حضرت من الحديدية ونجحت في إصلاح البلدوزين .. فتقابلتهم فرقة الموترات .. لتعود سينمونية العمل ثانيا ومن أعلى العربات كان الجنود يرتصون ويهللون .. ويقفزون ليحتضنوا رجال الإصلاح .. فالبلدوزرات بالنسبة لهم لم تعد ماكينة حديد وانما أصبحت كائنات اسطورية رائعة يحققون بها ارادتهم في التغيير .

في بغداد كان عليه أن يبدأ من معرفة الواقع .. بدأ بدراسة العتد ودراسة المواصفات ثم بمناقشة بعض الخبراء الذين احضرهم الباشا وهذا هو القلب الذي أطلقه عليه أصدقاؤه .

كان الموضوع أبسط من خيالاته .. انه حضر مكان للمأوى ثم رفعه وتركيب كابولي أى ذراع أعلى الأعمدة .. وتركيب عوازل .. وشد السلك .. وإطلاق التيار .. أنشطة محدودة واضحة .. كانوا سيحفرن بحفار مثل البريمة ويرفعون الأعمدة بالأوناش بعد تركيب الذراع عليها والعوازل ثم يسحبون السلك ويركبونه بواسطة فرق متخصصة .

إنتاجية العمرة المركب عليها البريمة والونش كانت لدى من استخدمها قبلهم من خمسة الى ثمانية أعمدة في اليوم .

وطبق صديقنا ما تعلمه في السد .. تجربة أولى .. متابعة سير العمل تعديل طرق الانشاء .. زيادة المعدلات .. تدريب العاملين .. ثم يتركهم للعمل .. بعد مدة تهبط معنويات العمال والمشرئين .. يقيم خلا لهم ويناقشهم .. ويعدل من نظام حياتهم ويمودون للعمل .. نفس التجربة . ولكنها أدهشت الباشا لقد ارتفع معدل حفر وتركيب الأعمدة الى عشرين وخمس وعشرين عامودا في اليوم بواسطة عمرة واحدة .

وبدا يتعلم كيف يخطط لبرنامج .. ثم كيف يعدله حسب تغير الموقف .. هنالك تنص الأعمدة .. تعمل البرامج .. هنالك نقص في

الاماكن المصالحة للتركيب تنقل الفرق . كل - اتعلمه طبقتة ولكن كانت هناك مشكلة للثلاثين بفرد وسحب وتركيب السلك اتوا بها من مصر .. معلم ومجموعة من الصبيان .. فرضت اتاوات عليه .. ورنض الاستسلام وتمعل العمل .. لجا للبائسا .. لناوضة المعلمين الذى استسلم لمطالبهم وبدأ العمل يتقدم ولكن ببطء لقد كان صديقنا متاكدا انهم يعملون حساسية الموقف .. لذلك فلقد ذهب للقاهرة وعاد بفرقتين آخريين .. وبدأ العمل يتقدم .. ليتوقف ثانيا .

طلبه قائد سرية الاستطلاع .. كان فى خيمته الشيخ ويمنى آخر وكان على باب الخيمة بلدوزر على كاتينة بترب ومظهره يدل على الاستهتار فى استخدامه .

استقبله الشيخ بالأحضان .. ثم تقدم له اليمنى .. انه سائق البلدوزر الواقف فى الخارج وانه بعد مباحثات ومناورات طويلة مع الحكومة اليمنية استطاع أن يحصل عليه لمساعدتهم وطلب منه استلامه .

كاد قلبه أن يتفزع فرحا .. لقد ازدادت فرصة انتهاء العمل قبل السيول بالتادم الجديد . تفحصه . كان يمينا تقليديا مع غارق انه يدخن بشراهة وعيناه غير مستقرتين ويتكلم بعصبية ..

سأله - أين تعلمت ادارته .. ؟؟

رد - مع الصينيين على طريق الحديد صناعا .

احتفل به الرجال .. أعطوه سجائر وطعاما ومياها .. وجبا فى نفس الوقت . ولكن صديقنا كان حذرا لم يتصور انه قادر على ادارة البلدوزر .. ولكنه خيب ظنه عندها بدأ يعمل لقد كان ماهرا جدا .. عمل معهم يومين وفى اليوم الثالث ترك البلدوزر وهرب .. وحل محله أحد الصف ضباط .

كان العراق فى ذلك الوقت هو البلد العربى الوحيد الذى يمكن لاي مصرى أن يذهب اليه بدون تأشيره دخول .. ولذلك فلقد امتلا بالمغامرين الهاربين من تدهور الحالة الاقتصادية والساعين الى اللحاق بسباق التطلعات الطبقيّة .. كل منهم يقترض اجرة السفر ويركب الطائرة .. وفى بغداد يكشف أن العمل ليس فى انتظاره وان الذهب ليس ملقيا على الأرض فى الشوارع وتختفى الدولارات المحدودة فى لمح البصر ثم يبحث

عن أى وسيلة تتيح له فرصة أكل ثلاث وجبات والنوم بعدها فى مكان مطلق .

ويعرض نفسه فى سوق العمل بقرش ويستغلهم الخريون والنجار وينتشرون فى طول العراق وعرضه . . يمكنك أن تجدهم فى أقصى توى الجنوب بنفيس القنر الذى تجدهم فيه يتنصرون فى الشمال .

وكانت الشركة التى يديرها صديقنا قد بدأت فى الانتشار أيضا . ورغم أن خمس أو ست شركات مصرية كانت تعمل فى ذلك الوقت فى مجالات شتى من الانشاء إلا أن شركته الوحيدة التى كان يطلق عليها الشركة المصرية وكان سائقو التاكسيات يقدون أمام بوابتها بعشرات من المصريين يوميا الباحثين عن عمل أو ثلاث وجبات ومكان للبيت .

فى البداية كانت رومانسية صديقنا تدفعه لمساعدته . . ولكن زاد الأمر تعقيدا فتحركت نزعة العملية . . ولم لا يعملون فى فرد وشدة تركيب السلك اختار عددا منهم شبانا وحاصلين على مؤهلات متوسطة دبلوم صناعة زراعة تجارة . . وطعم بهم نرق شد السلك التقليدية . . كان يرايهم ويهتم بمن يتنعم منهم وبعد فترة انصر من تصوره كان فى استطاعته أن يكون من مجموعة منهم ترقته منفصلة رغم اعتراضات رؤساء الفرق التقليدية تقدمت الفرقة شحس انتاجها وزاد وبعد مدة كانت الدافع لباقى الفرق التقليدية لزيادة انتاجها حتى لا يقلبهم (شوية الأندية) .

بمرور الوقت انقسمت الفترة لفترتين . . فأربع نرق . . حتى أصبحت معظم الفرق التى تعمل فى هذا النشاط من شباب المتعلمين . . واختفت ظاهرة تأخر شد السلك فى الشركة .

كان للبلدوزر الثالث الفضل فى سرعة تقدم العمل بشكل لا يمكن تصوره لقد كان المعدل قد ارتفع من خمس وعشرين مترا يوميا الى أربعين مترا قبل وصوله . . ثم ارتفع الى مائة بعد أن بدأ المشاركة فى العمل وازداد حماس الرجال . . النصر يلهب الحماس ويتود الى مزيد منه وايضا التجربة ترفع الكفاءة . . وقسم قائد المأمورية وصديقنا عبء الاشراف عليهما بالتساوى . . لقد أصبح عليهما . . مجرد مصاحبة الرجال وتحديد الاهداف لهم . . وكانت المأمورية تعمل وريتين احدهما صباها من الخامسة حتى الحادية عشر على الأكثر . . ثم من الرابعة ظهرا حتى السابعة وكان لهم روتين خاص .

نصيحة من الجنود بجساته ومكشطات الانعام تسبقهم للتأكد من خلو

الطريق من العواتق . عربة الجنود خلفها ثم البلدوزان .. ثم عربة أخرى للجنود وبذلك كانت وحوشهم الأسطورية في حماية كاملة .. ولم يتسوا ابداً فصالح قائد الكتيبة . الجنود وجوههم للخارج .. في أيديهم بنادقهم في مقدمة العربة جندي حاملاً رشاشه كل منهم على رأسه خوفاً ٥٠ عدا الضابط .. كان منظرهم يثير الضحك .. ولكن لم يحدث في يوم أن حاول أى متسلل أو يهين الاعتداء عليهم .

وانتهى السد .. هكذا ببساطة .. لقد أصبح اصطفاؤنا اسطورة في ذلك المكان .. وكان جندي المهندسين يسير رافعاً رأسه بين باقى الجنود فهو من بناء السد .

ولم تستطع الأمطار نبدأوا يحسنون في الموقف .. عمقوا المجرى الذى صنعه السيل .. عندما كان هناك سد من تيل ليضمنوا سهولة انسياب المياه الى مدي .

صنعوا سدوداً صغيرة لتوجيه اى لتوجيه المياه .. وهم يعرفون أن السيل سيقتضى عليها بعد فترة ولكنها مجرد توجيه للماء حتى يتحدد المجرى النهائى . ولم تستطع الأمطار .

اصبحوا في قمة القلق .. لقد انشأوا السد .. وهم في انتظار أن يصمد كان أكثرهم قللاً قائد السرية فهو الذى صمم السد قلبه من الطفلة وغطاؤه من التربة العنابية .

زار قائد الكتيبة الموقع لساعات لجرد الاطباء .. حضر بطائرة الصباح وعاد بطائرة الظهر .. يهيس في اذن مدينتنا لقد توصى لكها بنوط حسن أداء الواجب وسيرتى الصف ضباط استثنائية .

الحرارة ترتفع المطر ينهمر .. يزداد انهياره .. يتفون عرايا تحت المطر فالجو حار .. يضحكون .. المياه ترتفع من أعلى الجبال .. عبر المجزئ ببطء .. تكون بركاً صغيرة منفصلة .. تتصل البركة بعضها ببعض .. تترايط المياه تزداد سرعتها .. عريتان من عربات اللواء تغرزان في مجرى السيل والمياه تحطمها .. الثعابين تهرب من المجرى وتهاجم أماكن الاعاشة المياه تصل الى السدود التوجيهية .. تتحول الى المجرى الجديد .. تزداد اندفاعاً تحطم السدود .. تصل الى السد .. القلوب تخفق .. قائد سرية المهندسين .. قائد المسامورية .. صديقنا .. الصف ضباط ..

.. سائقو البلدوزرات جميعهم يقفون فوق جسم السد .. الماء يصلهم
بالسد يتوقف أمامه .. يرتفع منسوبه .. السد يحجز الماء .. المياه
تغمر مجراها .. تتجه الى ميدى نلاح يبنى يرمى نفسه فى المياه المحولة ..
الدموع تطفر من عيني صديقنا الشيخ يثمد على يده فيسحبها .. الاطفال
يلعبون فى المياه .. نزل حتى وصل الى الفلاح الملقب بالماء والطين ..
يثمد على يده .. مبروك مبروك الرجال يرتقصون من الفرح .. يتنبه
الجميع .

الآن الموعد المناسب لاغتيالهم .. الجنود يحيطون بصديقنا فهو الذى
رصدت السعودية عشرة آلاف ريال يبنى على رأسه .. ينسحبون بهدوء
تاركين اليمنيين يرتقصون ويغنون .

لا يستطيعون النوم .. انتهت المأمورية وبنوا السد وتحولت المياه .

فى نهاية الليل كانوا قد خلعوا خيامهم ورتبوا مهماتهم فى العربات
ورصوها فى مدخل السرية .. مع الفجر تسللوا خارجين من حرض فى اتجاه
الحديدة كاللصوص حتى لا يشعر بهم الاهالى فمن يعلم .

كان يقرأ كتابا عن اسطورة جلجامش ويستمع الى موسيقى واغانى
عراقية من فرقة الانشاد .. كانت المغنية تحكى قصة جسر الحديد الذى
أنبرى من دوس رجليها وكانت الاسطورة تقص قصة الطوفان الذى قضى
على الجنس البشرى عندما فاجاه الباشا بسؤال — هل أنت شيعى ؟؟

تعجب من السؤال .. منذ مدة لم يواجهه احد يمثل هذا السؤال .

اجاب بتردد — من الذى أوحى اليك بهذه الفكرة .. !!

— بعض الضباط المهندسين الذين يعملون بالعراق لقد عرتوك وقالوا
انك شيعى .

— ضحك ثم قال ثانيا .. توفعت الضحكة وبدأ يتكلم بجدية .

— أنا لست شيعيا أو ماركسيا .. أنا مثقف جزء من تكوينه الفكرى
ماركس وإنجلز وفرويد ودارون وبيتراند رسل وسارتر وكل ما هو له قبة
فكرية فى هذه الحياة أنا لست ماركسيا رغم معرفتى بالنظرية وفهمى لها ..
لان الماركسى محور حياته الفكرى والثقافى نابع من النظرية وأنا لى روافد
كثيرة اثرت على فكرى ولست شيعيا لان الشيوعى ماركسى يعمل على تغيير
المجتمع حوله ابتداء من قريته حتى نهاية الكرة الارضية .. وانت تعرف جيدا
اننى اهلون تغيير المجتمع ولكن ليس قسرا ولا بالشيوعية .

توجه الباشا بهذه المناقشة .. كان قد أحبه .. ووثق فيه وسله
ش. كته .. وكان يغيب عنه بالشهور ويعود ليجد الأمور تسير في خطها ..
لقد اتفقا منذ البداية على ضغط المصاريف .. كل مهندسين لهما حجرة
واحدة .. كل أربعة من المشرنيين لهم حجرة .. حتى هو شاركه في
استراحته المكتب وإضيوف .

وكانت المرتبات التى يمنحونها للجميع أقل من معدل السوق .. كان
يغذى العاملين بالأحلام والأمل من تعديل مرتباتهم وطريقة معيشتهم عندما
يسددون الدفعة المقدمة للمبني .

وكان صديقنا قد تعلم كيف يربط الناس من خلال الكلمات .. تعلم من
دورة التوجيه المغنوى ومن خلال رحلته بالقوات المسلحة .. وكانوا يثقون
فيه وفى وعوده عندما سأل الباشا هذا السؤال .. كانوا قد اتوا تسديد
الدفعة المقدمة لقد كان شرطها غريبا أن تسدد فى نصف المدة .. بدلا من
المدة بكاملها .

وكان الباشا يقول اننى لا أريد أكثر من الوفاء بالتزامى تجاه العميل
تسديد الدفعة المقدمة وبعد ذلك نقسم الأرباح .. ليصبح كل من عمل
بالشروع راضيا .

وشعر صديقنا بالقلق .. لماذا هذا السؤال الآن .. ؟؟

لقد عرض عليه فى اليوم السابق مشروع تعديل مرتبات العاملين حتى
تتساوى مرتباتهم بالسوق فيوقف نزيف الهجرة من شركته الى الشركات
انمراتية المحيطة التى ترحب بأى فرد من العاملين بالشركة المصرية .

وتحتقت المخاوف .. قفل باب الحجرة بالفتاح .. احتضنه وبكى .

— انا وحيد .. اننى أعتد عليك اعتمادا كاملا .. لقد قست بالواجب
وأكثر سأمنحك خمسين ألف دينار .. تصبح بهذا شريكا لى فى شركة جديدة
أنشئها .

تلص منه صديقنا ثم واجهه .. لقد وعدتهم .. لقد فذيتهم على الحام
لعم وئصف .. ولا أستطيع أن أراجع .. لا يمكننى أن أكون مخلى القط .

كان صديقنا قد تغير فى العراق .. غيرته الدنانير العراقية .. أصبح
يدخن سجائر مستوردة ويستخدم كولونيا مستوردة ويرتدى ملابس باريس
ولندن وروما وسائر أكثر من مرة لأوروبا .. أكل الجبن الفرنسى والشيكولاتة

.. السويسرى . وشاهد افلام البورنو واقتنى بعض المجلات القاضحة ..
وارتاد اماكن فى مصر اثناء اجازاته كانت محرمة عليه .. كان قد بدا يدور فى
عجلة الاستهلاك ولكنه .. لم يفقد شرفه ابدا .. ولم يحمل نفسه فوق
طائفة المادية .. لقد كان ينفق فى حدود دخله .. لذلك فقد اجاب على
البائس .

— عظيم .. يشرفنى مشاركتك ولكننى وعدت العاملين وعلى الوفاء
بالوعد اذا كنت ترفض اعتماد التعديل .. فانتى آسف .. سأضطر
لابلاغهم .. من وافق على ذلك وبقي .. فباركته .. ومن أبى فليتمصرف
مضى .. عقدي ينتهى بعد شهرين .. وأبلغك من الآن اننى لن أجده .

الفصل الثمان عشر

في الحديدية استقبلوهم باحتفال ضخم .. لقد مادوا من منطقة الخطر بعد أن أدوا المهمة ودون أن يחדش لهم جندي .. توافد الضباط من الوحدات المختلفة لزيارتهم .. وملوا من رواية الأحداث .. كل مجموعة جديدة تسأل نفس الأسئلة ويجيبون نفس الاجابات .

هل حاول السموديون ضريكم .. هل رحب بكم اليمينيون .. هل حقا رصحت السمعية عشرة آلاف ريال على رأسه .. ما شكل البدن .. وهل صمد التراب لانخفاف الماء .. ولماذا ترك سائق البلدوزر اليمنى معنته وهرب ..

فالضباط في الحديدية لم يكن لديهم عمل الا ترديد الاثاعات والتقصص التي تشبه الحوادث .

وبدا يخور في روتين الحياة اليومية - الطواير - التدريب - السباحة - الاستماع الى الحوادث وترديدها في بعض الاحيان .. متابعة محطات الاذاعة في العالم ولا مانع من متابعة اخبار الدورى العالم في مصر .. لقد كان نادى الاسماعيلية مكتسحا للدورى ونادى القرسانة على اعتاب الحصول على الكأس .

وشعر صديقنا انه يقضى اجازته السنوية على شاطئ الحديدية .

وكان قائد الكتيبة سعيدا بما حدث .. فخورا برجاله .. يتحدث عنهم كما لو كانوا أبطالاً .. وفي بعض الاحيان يبالغ امامها في حجم الانجاز الذين حققوه .

ولكن تلكد القوات وقائد الفرقة كان لهما رأي آخر .

لقد قرر قائد الفرقة تكريمهم .. وأقاموا لذلك حفلا بمقر الكتبية .

شكرهم وشكر قائد الكتبية على الانجاز العظيم الذي رفع رأس فرقتهم عاليا ثم صدق على ترقية جميع الصف ضباط الذين اشتركوا في العمل الى رتب أعلى وصرف خمس ريات لكل جندي وهدية رمزية للضباطين .

لقد رفض قائد القوات منحها نوط حسن أداء الواجب .. فتد زادت الأنواط والترقيات عن حدودها وكان عليه البدء في السيطرة عليها .

علق رئيس العمليات الجديد بعدما لاحظ خيبة الأمل في العيون .. لو انكم وضعتكم لغما تحت عربة من العربات او اطلقتكم بعض الطلقات القمقيتك لرتاكم شرعية استثنائية .. ولكن لعدم معرفتكم بأصول اللعبة رفض حتى التصديق على النواطين .

في ذلك اليوم عرف صديقنا أن الضابط الملحق على المخابرات لعمل الأتراك الخدامية .. ذلك الذي كان يحطم بشمسية على بلاج السويس وترمس ممتلىء بمكعبات الثلج .. وريكوردر .. وزوجة يلجأ الى حضنها .. أتفكرونه .. انفجر فيه آخر شرك خداعي كان يعده قبل سفره .. أطار ساعديه وساقه وأصابه بالعمى وفقد السمع .. وتم نقله الى مستشفى المعادي بالقاهرة .

غطس في المياه الدافئة أمام معسكرهم .. حاول أن يلطم نفسه .. لم يتصور كيف حدث هذا .. ؟؟ لقد كان ماهراً في صمته .. ولكن هكذا قالوا الخطأ الأول في المفرقات هو الخطأ الأخير .. لقد تغير صديقنا بعد انتهاء نائشاء السد .. أن دوامة العمل لم تتحله الفرصة للتفكير وهكذا حالنا جيبما .. نظل تعمل .. ونعمل .. ونعمل .. كما لو كنا نهرب من مواجهة أنفسنا .. وبذا يواجه نفسه .. عندما استرخى في معسكره بالصديفة بدون عمل يذكر .. ماذا يفعلون هنا .. ؟؟

لقد تحول اليمن الى ميدان معركة اشتركت فيه جميع الدول .. كل الجنسيات تعمل .. وتتجسس .. ويرقب بعضها بعضاً .

أمريكا تمهد طريقا بين صنعاء وتعز تنشئه شركة من شركاتها بواسطة طبقة من الحجر الوردى السائد في المنطقة فأصبح طريقا وريداً على جانبيه عربات جيش وأجهزة لاسلكية وأخبار .. عن الجيش المصري .. وروسيا والصين والمانيا الشرقية يسارعون لإنشاء مشاريع لها نفس الطابع والفرض

والجميع يعلنون ان مهمتهم اخراج اليمن السعيد من سيطرة عصور ما قبل التاريخ الى مرارة القرن العشرين .. انهم يعدون لشىء اكبر من حرب اليمن .

الضباط والجنود لا هم لهم الا شراء سلح لم يشعروا باحتياج لها في الظروف الطبيعية ومن اجلها يغيرون الاسترليني والدولار .. وتتغير نظراتهم وتصرفاتهم لتصبح نظرات شره وتصرفات كسل .

كان احدهم قد رفع صوت الرايو بحيث وصله صوت عبد الحليم حافظ في اغنيته الجديدة وهو يسبح في الماء الدافئ .. على حسب الريح متودى الريح متودى الريح متودى .. وياه انا ماشى .. ماشى ولا مهدى .

لقد تحول الجيش الى جيش متاجر بدلا من جيش محارب .. كل منهم يحاول ان يجنى اكبر قدر ممكن من الفائدة في اقصر وقت .

لقد ضبطوا احد قواد اللوات وهو يحاول تهريب عشرة كراتين سجائر تصور .. كل كرتونة تحتوي على خمسين قاروصة .. كل قاروصة عشر غلب اى خمسة آلاف غلبة سجائر كيلوباترا .

آخرون كانوا يهربون التلاجات والغسلات والريكوردرات .. لقد كانت طائرة الالتيهوف الضخمة تهبط في مطار القاهرة في ممر خاص محملة باكداس مكسبة من البضائع التى تحملها عربات الجيش المنتظرة في المطار الى المنازل .. لا تمر على جبرك او نفتيش او خلاصه .. وكان يستقبل الضباط والجنود موظفو الخزينة في المطار يصرفون لهم شيكات بدل السفر ويخرجونهم المطار ليجدوا الآف الايدى فى انتظارهم لامتناس ما جلبوا معهم ولاستثمار غيبتهم .. سائقو التكسيات يريدون جرة مضاعفة وبقيش وسجائر ق.م (قوات مسلحة) كانوا يقولون انها افضل من السجائر التى تباع فى السوق .. وأهلهم .. الزوجات والأولاد والبنات يرتدون الهدايا ويختالون بها على الآخرين .. ويعدون كشوف الطلبات الجديدة .

والراصات وساقطات الكباريهات يفرغن ما فى الجيوب .. وتنتشر الأبراض السرية القادمة من اليمن والتى أحضرها الجنود من بنات أبو منية .

ويتغير المجتمع .. تستطيع ان تميز العائد من اليمن من طريقة تصرفه ومن شرهه ومن تعالينه على أقرانه .

وتتحول الجنيهات المصرية الى أوراق نقدية اجنبية وتحول أوراق النقد الأجنبية الى رials يمنية .. ثم الى بضائع استهلاكية .. ويغرق الاقتصاد المصرى وتبدأ الشهوة من أجل الاستهلاك .. ويعقبها الانفتاح .

ان صديقنا الذى نجا من اغراءات غزة عندما كان فى سيناء .. ومن طوفان اليمن الاستهلاكى لم يصد فى العراق .. لقد تعمد الباشا اتلافه ان يغذى انتهازيته .. أن يربطه به .. ليدير سواقى الزيت .. عندما رافقه الى باريس لمناقشة بعض الشركات الفرنسية حرص على أن يجعله يرى فى أول يوم الشانزليزيه .. حيث الثراء الفاجر وبيجال حيث الانحلال الفاجر أيضا .. كان يدخل به الى الأماكن التى يبيعون فيها أغلى البضائع .

يحاول أن يشتري له منها .. على حسابه .. على حساب المشروع .. ورفض صديقنا .. ثم استسلم .. ثم اعتاد .. اعتاد على كريستيان ديور .. وجيفنشى وبير كردان .. واعتاد على الدرجة الأولى فى الطائرة وعلى أن يحيط نفسه بهالة من الثراء الكاذب .

وكان الآخر يتصور انه اشتراذ .. وانه غير قادر على العودة لتأليه القديم موافق على انتهاء عقده .. بتصوراً أنه سيمود بعد أن يتعلم الدرس . لقد أنفق صديقنا معظم دخله .. وهو اليوم فى مصر .. بدون عمل دون دخل الا معاشاً صغيراً لا يثبغ .. والأما محدودة من الدولارات هى كل ما نجا من المذبحة الاستهلاكية .. وأكواها من الأجهزة الثالفة أو التى ستلف والملابس التى انتهت موضتها .. وعربة فاخرة .. أو كانت فاخرة يوم أن اشتراها جديدة .. وعادات نخرت فى جسده .. واستعجته .. وكان أمامه أحد الخيارين العودة محطاً .. أو الاستغناء .. وتسليح صديقنا بسلاحه التقليدى .. قوة الاستغناء .. ولكن فى أى مجتمع .. فى مجتمع الانفتاح حيث يقيمون الرجل بها فى جيبه وما يستطيع أن ينفقه .

لقد كان من السهل التسليح بقوة الاستغناء عندما كان المجتمع بالكامل فى وضع الاستغناء .. عندما كان صديقنا فى سيناء واليه ن .. ولكن فى مجتمع الفارق فيه بين من يملك ومن لا يملك وأسعا .. ومميزاً ولا يمكن عبوره أو تجاوزه يصبح الاستغناء اقرب للرهيئة .. اقرب للقباض على الجمر بيده كلما حدثنا الرسول .

وهكذا بدأ صديقنا يعدل من سلوكه .. وبدأ يقبل ما لم يقبله . كان مدير ادارة المشروعات فى شركة المقاولات قد استقال أيضا .. وكان قد دار دورة تربية من دورة صديقنا ويكون مكتباً استشارياً يعمل فى ادارة التشييد ويقدم خدماته للراغب من مئات الشركات التى طلع بها

الاقتصاد المصرى خلال السنوات السابقة .. كان يعلمهم كيف يدرسون مشروعا .. وكيف يخططون برنامجا .. وكيف يتابعون الأعمال .. وكان هذا العمل يمنحه دخلا مناسبيا يسمح له بأن يعيش بشكل طيبى ويقتضى اجازة فى الصيف وأخرى فى الشتاء فى بلد من بلاد العالم يتعرف عليها وعلى حضارتها ولكن عن طريق شركات السياحة لأنها أرخص .

ساعده صديقنا فى عمله .. حتى تهرّف على مجموعة شركات استثمار .. طلبت منه أن يكون مستشارا لها متفرّفا .. لقاء ألف وخمسمائة جنيه شهريا .

عاد صديقنا الى نمط الحياة الذى اعتاده خلال عمله بالعراق .. غير سكنه ليصبح من تاطنى حى الزمالك .. وجدده عربته .. وأرتاد أنخضر الأماكن وأنفق ببذخ .. وزاد رصيده فى البنوك .. وسافر الى معظم بلاد العالم . وتعرف على الشركات الأجنبية وأتقن اللغة الانجليزية .. وأصبح صديقنا الذى وقع فى يوم ما عقد شراء أسهم الشركة المصرية الأمريكية المشتركة وهكذا الأيام .. ما لم تغيره غزاة واليهن .. غيره الانفتاح .

سألته — لقد مضى شهر ولم تجد مشترىا .. ولم تأت بجديد عن مشروع المدينة السكنية .. انهم لن يتركوك هكذا .. ان الانجليزى يكرهك ويقلب عليك الجميع .. اننى أعرفهم .. اللهجة التى سألونى عنك بها توحى بعاصمة قريبة .

كان قد أنهى دراسة عطاء جديد .. لقد طلب منهم أن يدرس العطاءات بنفسه وفى القاهرة اذا كانوا يريدون عملا جديدا .. وكان فى انتظار أحدهم كى يراجعهم معه .. ويوافق على التقدم به .

كانت علاقتهما قد بدأت تفتت بعد أن اكتشف كل منهما أن الآخر ليس هدفه .

وبعد أن غرق فى علاقات نسائية أخرى عسى أن تشفيه من آثارها .

قال لها بصراحة — أنا غير موافق على هذا المنهج . لا أستطيع أن أعمل عملا مخالفا للقانون .. حتى لو لم أكن مقتنعا بالقانون نفسه .

انفجرت — قل أنك ضعيف ولا تصلح لشيء .. ثم أكملت ..

هذا جزائى أن رشحتك لهم .. ودعمتك .. وأحببتك .. كل الرجال

خائنون لا فرق بينك وبين الآخرين .. فليبحث كل منا عن مصلحته .

عندما جاء مندوبيهم .. لم يكن اى شخص لقد كان صاحب الشركة صديقا بنفسه لقد استقدمته .

قال له — اننا لن نتقدم فى هذا العطاء .. دراستك تصلح لشركة مصرية وغير محزية لشركة امريكية .. سنجد نشاطنا فى بلدكم حتى نستطيع أن نحصل على عملية توليها المعونة الامريكية لذلك قررنا ان نجد « شريك نائم » هل لديك مانع للتنازل عن أسهمك فى مقاسيل إعادة الكمبيوتر لك وعدم تحملك لاي مصاريف خلال المدة السابقة .

ووافق صديقنا نورا .. لقد كان هذا قراره .. ثم نوالث الاحداث سريعا . لقد كانت هى « الشريك النائم » الذى عناه صاحب الشركة .

وتنازل لها عن أسهمه .. لقد طردوه من وظيفة كوبرادور .. وعينوها بدلا منه على الاصلاح للوظيفة .

الفصل التاسع عشر

كان يستمع الى كونشرتو الفلوت لموتسارت وهو يقلب كتابا عن رينوار ويتأمل راقصة بالية مرسومة بالطريقة التأثيرية .. عندها هطل الجنود في المعسكر .. لم يهتم ثم لاحظ هرجا .. احدهم يندفع في اتجاهه على شاطئ البحر .. لقد اسقطنا خمسين طائرة يا فندم .

اين .. وكيف .. ولن ؟؟

لقد قامت الحرب في سيناء .. كانوا يعلمون ان هناك تحركات وان عبد الناصر هدد اسرائيل لحشد جيوشها امام الحدود السورية .. وانه اغلق خليج العقبة .. ولكن لم يتصور ان تنشب حرب .

ثم توالى الانباء غارات اسرائيلية على مطارات مصر .. والطائرات الاسرائيلية تسقط كما لو كانت ذبابا اطلقت عليه ببببدا حثريا .. وبدا الضباط والجنود يديرون مؤشرات الراديووات الترانزيستور يستمعون الى اذاعات العالم .

الاذاعة المصرية تتكلم عن الانتصارات .. والاذاعات الاجنبية تصف الهزائم وتبليبلوا من يصقون .

ثم توالى الاحداث .. وقف اطلاق النار .. الاعتراف بالهزيمة استقالة عبد الناصر .. جواهر ٩ و ١٠ يونيو .

انسحاب تكتيكي من اليمن .. القوات المتوغلة تنسحب تحت حماية القوات القريبة .. الطائرات والبواخر تمتلئ بالمائتين .. مصر في حاجة اليهم يزداد الجهود المعصبى .. يتوتر .. يشحنون المعدات .. العربات

السلاح الجنود .. أسعار البضائع ترتفع بشكل جنونى .. الجنود والضباط ينفقون آخر « بوكشة » يحملونها .

المركب تتحرك خارج الميناء .. يقف ينظر الى مبانى الحديدية وهى تبتعد .

انهم متجهون الى مصر .. يتيم .. بلادى .. بلادى .. بلادى ..
ينفجر فى البكاء .. بكاء عصيبا .. مستمرا .. لا يهدأ الا بعد أن يحقنوه
بسائل مخدر .. لينام .

الباخرة ترسو على ميناء الادبيية .. الوجوه حزينة .. الضباط يتحركون فى الخفاء تنتقل الكتيبة الى الجبهة مباشرة .. حركة تنقلات بين الضباط .. قائد الكتيبة ينتقل ليصبح قائد لواء كبارى .. ضباط جدد قادمون من ارض الهزيمة .. التخصص لا تنتهى .. العمل الدؤوب لاعادة بناء التحصينات .. التدريب على العبور .. حرب الاستنزاف .. صد موجات الطيران الاسرائيلى .. بناء قواعد الصواريخ .. وتستمر الحياة .
تجدد الخلايا التى ماتت وتضمد الجروح التى اتخنت .. وتكمل فى مستقبل افضل بعد أن اوضحت النكسة انحرافات المسيرة .

ومات الزعيم .. شعر الكثيرون أنهم قد فقدوا السند .. الامل .. الاطمئنان فقدوا الاب الذى تعهد برعايتهم وحل ازماتهم ومواجهة أعدائهم .. وتحقيق انتصاراتهم .. وشعر آخرون بانزياح القمة البولييسية .. والديكتاتورية وعبادة الفرد .

ولكن الشعب المصرى خرج ليودع آخر الفراعنة كما قال الامريكيون محطما جميع الكردونات التى حاول الجيش والبوليس صناعتها .

كان صديقنا اهد المكلفين بصناعة حاجز ما بين الزعيم والشعب .. ولكن عندما شاهد المدفع قادما من بعد .. لم يستطع الا أن ينضم مع الزاحفين هاتما .. الوداع يا جمال .. يا حبيب الملايين .. لقد احببه ووثق فيه وعمل تحت قيادته اصلب أيام حياته .. واختلف معه قليلا .

وانتهت خدمة صديقنا فى التشكيلات .. نقلوه الى المخازن .. مخازن المهندسين بالهرم .. خططا .. برعوبا .. ثائرا .. مثمرا .. مما يحدث بعد وفاة القائد .. ثم حمل لقب ميثاكس الذى امله للحالة الى المعاش .

وهكذا وجد نفسه لثلاثاء رابع مرة بدون دخل .. لقد قطعوا مرتبه يوم أن باع لها أسهمه واستقال .

وتظاهر بعدم الاهتمام .. سيجد وظيفة ما .. وظيفة أفضل ..
وانتظرها شهرا .. وآخر .. وآخر .

وبدأت سحب التغير تتجمع .. لقد تضاسق من المدينة .. من
انفاسها المشبعة بالعماد والتراب .. وحريق النفايات ونتائج الجباسات
ومصانع الاسمنت .

أصبح ينوتر من الأصوات والميكرفونات واجهزة التنبيه .. وصياح
البشر .

وأصبح يتحدث عن التلوث البصري في نوضى الانشاء والاعلان
والملبس والذوق العام .. والتلوث السمعى بالاغاني والمسطلات ..
والتلوث الخلقى في التزاحم والتصارع والكذب والخداع .

وأصبح لا يطيق عريقته .. ترعبه الشوارع .. ويرعبه السائقون ..
ويرعبه الراجلون ويضيق بالميكانيكية والكهربائية .. والمنادين .

وبدأت سحب التغير تخطر .. كان يتكلم عن الهجرة من المدن واللجوء
الى البساطة والطبيعة .. وقوة الاستغناء .

وأثرت الأمطار في تربة نفسه نباح عريقته .. وشقته .. واعتزل
البشر الا هي . بعينها الواسعتين المظلتين دائسا بالدروع .. هل
تعرفونها .. أخته . وطاف صديقتنا يبحث عن مكان يصلح لانامة البشر ..
أسوان .. الأقصر الوادى الجديد .. الواحات .. سيناء .

وفي سيناء الجنوبية وجد ضالته .. أبو زينة .. أبو رديس .. الطور
شرم الشيخ .. دهب .. نويبع .. أمضى الشهور يتجول بينها .. يرقب
بحب اقرب للصوم .. الجبال الشلخية وعلاقتها بالسهول المنبسطة والبحر
شديد الزرقة .. شديد العطاء .

وفتنته حبيبته القديمة سيناء .. كان يقول اننا مجرمون في حق
انفسنا وفي حق هذا الجمال .. كان يتخيل المسارح والقرى والمنازل والحقول
والمصانع والناجم .. البشر السعداء الطيبين .. ويقول .. هذه هي
ملجأنا الأخير بعيدا عن كل تزييف .. بعيدا عن نهر الأباطيل .

وهذا صديقتنا .. لم تعد تبهره الملابس المستوردة / .. ولا الجفلات
الصاخبة . ولا العلامات المبتذلة .. لقد اكتشف ان اقل قدر من الملابس
يكفى لوقاية البشر .. وأقل قدر من الطعام يطيل العمر .. وأن هواء
المدينة والسجائر تلتف صدر وقلب ومقل الانسان .

وزهد في العالم .. كانت تقبض كل شهر معاشه وتذهب به اليه ..
فينفقه كما لو كان بينه وبين النقود عدا .. وكانت تعجب كيف تصنول

انى هذا الحال . . . لساننا فقد صلابته . . وكفت عن احضار الفتود . . كانت تشتري له احتياجاته . . ملابسه . . طعامه . . وتدور تبحث عنه على الشواطىء المترامية الأطراف حتى تجده جالسا متأملا شبيها ما . . بحرا . . صخرة . . اشعة الشمس . . جبالا عاليا . . طفلا صغيرا . . حيوانا متعبا قادما من الغرب يبحث عن السكن .

كانت واثقة انه لم يتغير وانما هى لحظة تأمل . . وفى كل زيارة كان يفاجئها بفكرة غريبة . . فى احدى الزيارات حدثها عن الموظفين الرسميين القادمين من وادى النيل يمضون عقوبة ما حكمت بها الاقدار عليهم . . فى زيارة أخرى حدثها عن الجنود المصريين الذين يحمون الاسرائيليات العاريات تماما من نظرات المتطفلين ويأكلوه نباتا .

وفى مرة أخرى عن الامكانيات المهدرة التى عرف تيمتها المستعمرون ولا يلتقى لها بالا الرسميون .

كانت الأيام تزيد نحوها واستطال شعر رأسه وذقنه . . واتسخت ملابسه أصبح مثلهم . . مثل المهيبين القادمين من الغرب الراضين لحضارتهم وكان يتكلم مثلهم . . عندما سألها عن رصيده فى البنك خافت .
لقد كان لازال يملك مبلغا ادهشه هو نفسه بعد ان باع العربة والشقة .

لقد قرر أمرا . . قرر أن يخوض الصراع ثانيا . .
ان سيناء مشبعة بالتجدي . . جنود فصل القوات . . عرايا اسرائيل اهل الرسميون . . لا مبالاة اهل الوادى .

واقام صديقنا مستعمرته على شاطئ ذى رمال بيضاء ناصعة البياض وبحر أزرق متدرج اللون هادى . . مبنى صغير مرنج بسيط . . وعصرية نصف نقل لشراء الاحتياجات . . واهلانات على الطريق .

اغسلوا انفسكم فى المياه الطاهرة . . اخلعوا أثوابكم القديمة وارتدوا أثواب العصر . . كبروا عن خطاياكم فالشريس التقيية تمحوها . . الى ايها المتعبين وحاملى الاثقال . . فالعمل يخلصكم من احمالكم .

وكافت أول القادمين . . وتبعها آخرون هربوا من سخم المدينة لينبوا حياة جديدة على الأرض المغضوب عليها . . واتسعت المستعمرة لتضم عشرات من الهاريين . . يسبحون . . يتنفسون . . يستمتعون . . ويمهلون فى أرض الميعاد بعد أن كانوا على شفا الموت . . على شفا الجنون .

١٩٨٤/٤/٢٢ .

محمد حسين يونس

مطبوعة اخوان نورافطنى

رقم الايداع ٥/٣٧٩٣

صحت قليلا ثم اشار بيده وكفه .

علينا ان نكسب ثريد الا نفترق في الطوفان ان نفوق الآثار الخرفية
على ذلك . .

كان يعد له الآثار بنفس الطريقة التي يحل بها بنود عطاء
لتقدير سعره .

- اول هذه الآثار القضاء على المكاسب الاشتراكية او تجهيدها
او تفريغها من مضمونها . . وسيطاني القطاع العام الكثير
من ذلك .

- بعد التجهيد ستفترق الدول الصناعية السوق بفائض منتجاتها
من كل نوع وصنف ومستوى وسعر . . في البداية ستكون
الاسعار منافسة للمنتجات المحلية وبعد ان تقضى على الصناعة
المصرية سترتفع الاسعار تدريجيا بشكل لا يمكن تصوره .

علينا ان نستوعب دروس التاريخ عبود باننا خفض سعر الكحول
الى مليم للتر . . كان هذا السعر اقل من التكلفة . . عندما اغلقت
جميع المصانع المنتجة للكحول رفع سعر اللتر الى عشرين مليما بعد
ان احترق السوق ثم اكمل نقاشه .

- سيتغير الهيكل الاقتصادي . . الزراعة ستزوى . . الصناعة
ستنتهى ولن يبقى الا التجار والوكلاء والسماصرة اى ان البناء
الانتحي سيصاب بالضعف والتحلل . .

- وسيعقب ذلك تغير البناء الفوقي - القوانين - التقاليد -
الفن - الادب - الثقافة - الخوق العام .

سيطفو على السطح كل ما هو غت وسينتحر الشرفاء . . لن ينجو
فرد واحد من الطوفان . . . ستفترق جميعا . . تذكر .

١٩٠ قرشا محلى

٢٥٠ قرشا للتصدير

